

فهرست

مختارات كامل كيلانى

الوعظ القصصى

والوعظ الكاذب

ومقالات اخرى

بقلم

كامل كيلانى

مؤلف مصارع الخلفاء ونظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى وشارح رسالة الغفران

الطبعة الاولى

« ديسمبر سنة ١٩٢٩ م . »

عُنى بنشره الأستاذ عبد الوصيف محمد مدير الجمعية العلمية
والسيد عبد اللطيف حجازى صاحب مطبعة المعاهد

يطلب هو وسائر الكتب العلمية من مكتبة الجمعية العلمية بشارع رقعة القمح
شرقى الازهر الشريف

مختارات كامل كيلاني

مقالات شتى في التاريخ والأدب

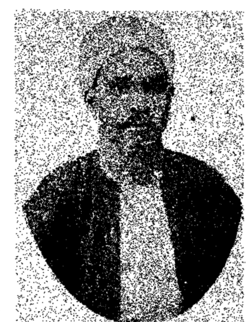
بقلم

كامل كيلاني

مؤلف مصارع الخلفاء، ونظرات في تاريخ الأدب الأندلسي وشارح رسالة الغفران



الاهداء



والدى البار الشيخ كيلانى ابراهيم :

رأيتك - منذ حداثتى - تقرأ الكتاب وتتخذه صاحبا ورفيقا فحببنى ذلك فى الكتاب ومازلت أحبه الى اليوم .

ولقد طالما سلكتَ فى تأديبى طريق الوعظ القصصى فكنتَ أول من حبب الىَّ هذه الفكرة ، وكان لك الفضل الأول فى أخذى بهذا الأسلوب وتمكينه من نفسى ، وكنتَ نعم القدوة لابنك فى تربية ولده مصطفى وأخويه .

* * *

ولقد تفضلت ياوالدى العطوف فشرفت ولدك بسماع هاتين المحاضرتين كما تفضلت بقراءة بقية المقالات المنشورة بهذا الكتاب وأظهرت لى رضاك عنها فكان ذلك أكبر مشجع لى على اهدائك هذا الكتاب - وهو ثمرة من ثمار غرسك - فإذا راقتك منه فكرة طريفة فإنما يرجع فضلها إليك، وإنى بهذا الرضى لسعيد .

كامل كيلانى

تصدير الكتاب

أتيح لنا الاطّلاع على هاتين المحاضرتين اللتين ألقيتا فى « جمعية مكارم الأخلاق » بالقاهرة وعُنِى بتلخيصهما الأديبُ الفنّانُ النابغةُ الاستاذ سيّد أفندى ابراهيم المجلتى « المصور » و« الاخاء » فرأينا من الخير أن تُذاعا فى طبعة مستقلّة ، وإن قضى تواضعُ صاحبهما الاستاذ الألمعىّ الكبير « كامل افندى كيلانى » بأن يقول إنّه لم يدر بخلده أن تُتاحَ لهما فرصةُ التّدوين بله الوصول الى أيدى القرّاء .

***

والأستاذ كيلانى فى غنًى عن التنويه بأدبه الجمّ وبنظراته العميقة الى لبّ الحياة ، فحسبنا أن نذكر أنّ فى محاضرتيه مِنْ سحر بيانه وجمالِ شاعريّته وصدق فلسفته، وسمّو مبادئه مايجعلهما مُتعةً نفسيّة لكلّ قارئٍ وقارئةٍ ، وعظةً بالغةً للآباءِ والأمّهاتِ و لرجال التعليم والارشاد على الأخصّ . ومن أجل ذلك نغتبطُ لقيامنا بنشرهما ، ونحيّى فى صاحبهما الفاضل مواهبَه العاليةَ ورُوحَه الساميةَ ، ونشكر لصديقنا الاستاذ «سيّد افندى ابراهيم» هذه العناية المحمودة بحسنات الأدب العصرى وسماحه لنا — كما سمح الأستاذ كيلانى — بإصدار هذه الطبعة المستقلة .

***

وقد انتهزنا هذه المناسبة فأضفنا اليهما طائفةً أخرى من مقالاته الأدبيّة الرائعة التى كثيراً ما أعجب بها المتأدبون خدمةً للأدب وإرضاءً للقرّاء ؟

عبد الوصيف محمد　　　　عبد اللطيف حجازى

تحية

الى صديقى الأستاذ النابغة كامل افندى كيلانى

ياصديقى العزيز (كامل) حُيِّيـ * ـتَ بقلبٍ وَهَبْتَه صَفْوَ قَلْبِكْ
ليس أسمى من المحبةِ إهدا * ءً فهل لى سوى مجاراةِ حُبِّكْ

***

وأراك الغنىَّ عن كلّ شُكرٍ * كغناءِ الضياءِ والطِّيبِ عَنَّا
إنَّ مَنْ طَبْعُهُ المحبةُ والإِ * صافُ يَغْنَى بطبعهِ حين يَغْنَى

***

ولو اخترتَ فى اكتفاءٍ مِثالاً * لوفاءٍ لعشتَ سيّدَ خَلْقِ
فإِذاك الذى أضاف كمالا * من نُبوغٍ الى مكارمِ خُلْقِ

***

وتحمّلْتَ — فى سنين توالتْ * ـكتوالى الأعباءِ ـتهذيبَ جيلِ
واتخذتَ التواضعَ الحُلْوَ كالستـ * ـرِ لما قد وهبتَه من جميلِ

***

فإِذا أنكر الغبيّون جَدْوَا * كَ وأمثالُهُمْ مثالُ الجُحُودِ
فلأنتَ الذى تَسامَى ولم يَعْـ * ـبأْ بما قالَهُ شُيوخُ القرود!

« أبو شادى »

الوعظ القصصي

قال لى صاحبي وهو يحاورنى :

« لقد نكبتنا وزارة الأوقاف حين حتّمت علينا أن نؤلف خطبا ونسجلها فى الدفاتر ! »

قلت : « لقد أسدت إليكم معروفا أى معروف ! »

قال : « أفى مقدورى أن أعظ وأن أخطب »

قلت : « ولم لا ؟ »

قال : ـ « إنى لأعجز عن تسجيع جملتين اثنتين فى يوم واحد ؟ »

قلت : ـ « وماشأن هذا بالخطابة ؟ »

قال : ـ « وكيف تكون خطابة بلا سجع ؟ »

قلت : ـ « بل كيف يكون سجع وخطابة ؟ »

قال : ـ « أمرك عجيب ؟ »

قات : ـ « أمرك أعجب »

قال : ـ « دع المزاح جانبا وخذ فى الجد »

قلت : ـ «إنى لأمزح إلا إذا كنت تسمى الصدق مزاحا؟ إنك تتصور الخطابة تصوراً فاسداً خاطئاً ، وهذا التصور وحده هو علة عجزك عن القيام بها ، إن الوعظ أيسر مما تظن بكثير

إن كل أمر بالمعروف وكل نهى عن المنكر هو وعظ له قيمته وخطره فإذا سرت فى الطريق ورأيت حادثًا من الحوادث ـ خيرا كان أو شرا ـ فقصصته على سامعيك مثنيًا على جانب الخير منددا بالجانب

المرذول حاثاالناس على الاقتداء بالأول محذرا إياهم من الوقوع فى الثانى،فقد أحسنت وأجدت وكنت الخطيب المفوه والواعظ المرشد الأمين

وبهذا تكون قد قدمت للناس أمثلة يقتدون بها وأمثلة يحذرون الوقوع فيها ، ووعظتهم بما حدث لسواهم من خير وشر

« والسعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه »

قال : ـ

« ما كنت أحسب الوعظ بهذه السهولة »

قلت ـ :

« إن سوء فهم كثير من الخطباء معنى الوعظ هو علة تخبطهم فيه وعجزهم عن القيام به »

* * *

قالوا : إن مربية أولاد لويس الرابع عشر طلبت الى أحدهم ـ وكان صغير السن ـ أن يكتب كتابا إلى أبيه وكان بعيداً عنه

فقال لها مدهوشاً ـ :

«أفى قدرتى أنا أن أكتب كتاباً ؟»

فقالت له ـ :

«هب أباك حضر فماذا أنت قائل له ؟ »

قال ـ :

أقول له« لقد أوحشتنا واشتقنا الى رؤيتك ! »

قالت ـ :

« فاكتب له هذا . »

ثم قالت له ـ :

«قل له: إن البيت يحترق ! »

فقال لها :

«هذا كذب! »

قالت ـ :

« قل له إذن إن الخادم تنظف غرفة الاستقبال »

قال : ـ

« وهذا خبر تافه . »

قالت : ـ

«لقد عرفت الآن كيف تكتب الكتاب ، فليس يكلفك ذلك أكثر من أن تكتب ماتشعر به مبتعدا عن الكذب وعن الحقائق التافهة ! »

وهذه أيها السادة هى وظيفة الخطيب تماما.

***

وفى إحدى روايات « موليير » نرى احد المولعين بالدرس ـ على كبر ـ يشرح له معلمه النظم والنثر ، فيقول له : ـ

«النظم هو الكلام الموزون المقفى»

فيسأله « وماالنثر؟ »فيقول له ـ :

«هو ماتتكلمه الآن»

فيقول : « واعجبا ، إذن فأنا أتكلم النثر أربعين سنة وأنا لا أدرى ! »

***

ولعل أكثركم سيدهش أيضا حين أقول له إنك كثيراً ماتكون

خطيباً — عن غير قصد منك — وإنك تكون واعظا بليغا كلما قصصت على إخوانك أو أهلك أو طلبتك قصة بليغة ذات مغزى حكيم !

ولعل أيسر وأبلغ طريقة يتبعها الواعظ — فى بيته وطريقه وعلى منبره — هى ضرب الأمثال ورواية القصص .

ولقد فرغ علماء التربية من التدليل على أهمية الأمثال والقصص ، وقد سبقهم القرآن الكريم الى ذلك فقال :

« وتلك الأمثال نضربها للناس »

وقال « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »

***

ولقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصى حداً عجيبا :

أذكر لكم — على سبيل المثال — أن مدرساً فاضلا من مدرسى العربية كان يدرس لنا — فى مدرسة أم عباس الابتدائية — وكانت نتائجه أبهر النتائج وتلاميذه أقوى التلاميذ ، وكان السر فى ذلك هو إسرافه فى حب القصص ، وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصى حداً مدهشاً جعله يشرح لنا — فى قواعد اللغة — « أثر كان وأخواتها وأثر إن وأخواتها » بأسلوب قصصى جذاب يحبب فى النحو أزهد الناس فى النحو .

كان يشرح لنا أثر كان واخواتها فى معموليها وأثر إن واخواتها كذلك فيقول :

المبتدأ — والخبر أخوان وهما دائما رافعا الرأس ، ففى ذات يوم بينما هما جالسان فى بيتهما ، إذ سمعا قرعا بالباب فأسرعا الى زائرهما ففتحا له الباب ورحبا به ،

وأرادا أن يقدماله شيئا من الحفاوة ، بعد أن سألاه عن اسمه فقال لهم .

« اسمي كان »

فقالا لها — :

« أهلا وسهلا بك ومرحبا ، ماذا نستطيع أن نقدم لك من قرى ؟ »

فقالت :

«أريد أن أصاحبكما وأن تترك صحبتي أثرا ظاهرا تميزاني به من بين رفاقكما جميعا»

فقالا :

« وأي أثر تريدين ؟ »

فقالت .

« أن أنصب أحدكما »

فلا تكاد تتم قولها حتى يتقدم اليها الخبر مرحبا بشرطها هذا راضيا بحكمها .

وإنهم لكذلك إذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب ، فإذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيفان ، فيسألونهم : « من أنتم » فيقولون لهم : «نحن أخوات كان . »

و بعد أخذ ورد يظفرن بمثل ماظفرت به كان

فإذا جاء اليوم التالى جاءت «إن» زائرة وطلبت إليهما أن يمنحاها ميزة كما منحا كان بالأمس .

فيتقدم المبتدأ فى هذه المرة مرحبا بشرطها ، ولا يكاد يفعل حتى تأتى جميع أخوات إن طالبة مثل طلبها فيظفرن به .

هكذا كان يسلك ذلك المـدرس الظريف فى شرح النحو وتحبيبه إلى نفوس الطلبة وهى طريقة طريفة كانت تحبب الطلبة فى دروسه وترغبهم فى الاستفادة من علمه .

***

وكثيراً ما لجأ أبى ـ فى تربيتى ـ إلى ضرب الأمثلة والقصص أذكر لـكم أنـ بعض أشقياء الصبية أغرانى بتسلق الترام ـ وأنا صغير ـ فرآنى أبى وانا أفعل ذلك ، ولم أره

فلما عاد الى المنزل قال لى ـ :

« لقد حدث اليوم ياولدى أمر عجيب ، فقد هوى ولد شقى تحت عجلات الترام فقطعته شطرين ، وظل الناس يلعنونه ويلعنون أهله .

« وهنا ذكرتك ياولدى فحمدت الله على حسن أدبك وبعدك عن هذه الدنايا »

أقول لحضراتـكم إن الأرض كادت تغوص بى وكان هذا آخر عهدى بهذا العمل الممقوت .

***

وفى ذات يوم قلت له ـ وكنت طفلا ـ :

« انى لأخشى العفاريت والحشرات المؤذية حـين أصعد سلم البيت فى ظلام الليل »

فقال لى ـ .

« من الذى يحرسك وأنت نائم ؟ »

قلت : « هو الله »

قال ـ « أتظن أن من يحرسك وأنت نائم لايحرسك وأنت يقظان؟ »
فكان ذلك آخر عهدى بالخوف أيها السادة
ولقد قرأ لى أبى كثيراً من القصص فى فجر حياتى ، لاأزال مديناً لها ـ إلى الآن ـ بما يظنه فى بعض من يحسنون الظن بى ـ من خيال وأدب.

* * *

ليست وظيفة الواعظ منحصرة فى أن يقول للناس «اتقوا الله واخشوا عذابه واحذروا ناره » فى كل أسبوع بعبارات مختلفة ، وأن يقول :
« عباد الله
أوصيكم وإياى بطاعته ، وأحذركم وإياى من عصيانه ومخالفة أمره »
إلى آخر هذه الكليشيهات والعبارات المحفوظة حفظاً والجمل المرصوفة رصفاً .
ولكن وظيفته وواجبه فى أن يحسن التعبير عما يشعر به من خوالج وعواطف صادقة
ولو كنت خطيباً فى مسجد لما صعب على أن أهتدى إلى موضوع صالح ـ كل يوم ـ بله كل أسبوع
فأمامى الحياة اليومية أقتبس منها ألف مثل مما أراه فى الطرقات وغيرها .
وأمامى التاريخ الحافل بالعظات والعبر والمثل العليا

موقعة أحد

خذ وامثلا على ذلك موقعة أحد
فهى وحدها تصلح موضوعا لعدة خطب

(١) عاقبة المخالفة

كان النصر محققا للمسلمين فى بدئها

فلما خالفوا أمر النبي عليه السلام وانتقلوا من موضعهم كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً فيهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

واستطاع العدو أن يخلص إلى النبي فيرميه بالحجارة

قالوا ـ « ووقع لشقه

فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفتاه . ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون الخ »

أليس هذا موضوعا جليلا يبين لنا عاقبة المخالفة ؟

(٢) وفاء الصحابة

وفى هذه الموقعة يتجلى لنا مثل عال من أمثلة الاخلاص والتفانى فى الوفاء . إذ يقبل الصحابة على النبي مستبسلين يفدونه بأرواحهم

يأخذه على بيده

ويرفعه طلحة بن عبيد الله

ويحيط به جماعة من الأنصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم .

وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة فلا تقل عن شجاعة « جان دارك » التى لا يكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسى من كتب التاريخ ، والتى ملأوا الدنيا إعجابا بها .

تنحاز « نَسيبة بنت كعب » إلى النبي (ص) وتتفانى فى الذود عنه ـ وكانت تسقى فى أول النهار ـ فلما رأت هزيمة المسلمين أسرعت

إلى النبي تفـديه بنفسها ، ضاربة بسيفها مرة ورامية عن قوسها أخرى حتى أثخنتها الجروح .

أتريدون أمثلة أخرى من هذه الموقعة ؟ لو شئتم لـاوفت الليلة كلها إذا قصرناها على هـذه الموقعة وحدها ؛ فلنجتزى بذلك ففيه الـكفاية . أتريدون أمثلة على فضل الصبر

فضـل الصبر

صـبر الصحابة

كان النبي يذكر يوما مالقى من قومه من الجهد والشدة ، قال . « لقدمكثت أياما وصاحبي هذا(يشير الى أبي بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام إلا البرير (ثمر الأراك) في شعب الجبال »

***

وكان عتبة بن غزوان يقول ـ اذا ذكر البلاء والشدة التي كانوا عليها بمكة ـ «لقد مكثنا زمانا ، مالنا من طعام إلا ورق البشام . أكلناه حتى تقرحت أشداقنا ، ولقد وجدت يوما تمرة ، فجعلتها بيني وبين سعد . ومامنا اليوم الا وهو أمير على كورة»

وكانوا يقولون فى من وجد تمرة فقسمها بينه وبين صاحبه : « إن أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه ، يلوكها طول يومه ولياته . من عدم القوت »

قال صلى الله عليه وسلم : « لقد رعيت غنيمات أهل مكة لهم بالقراريط »

***

أتريدون أمثلة على الاعتداد بالنفس !

جاء صلى الله عليه وسلم يوما ليدخل الكعبة

فدفعه عثمان بن طلحة العبدرى ، فقال — :

« لا تفعل ياعثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدى أضعه حيث شئت ! »

فقال — : « لقد ذلت قريش وقلت »

قال — : « بل كثرت وعزت »

وانظروا الى حواره (ص) مع قريش حين قالت له تفاخره — :

***

« أتباعك من هؤلاء الموالى (كبلال وعمار وصهيب) خير من قصى ابن كلاب وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ؟ »

فقال — : « نعم

والله لئن كانوا قليلا ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن .

حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ويقتدى فيقال — .

« هذا قول فلان »

« وذكر فلان »

فلا تفاخرونى بآبائكم الذين موتوا فى الجاهلية فلما يُدَهْدِهُ الجعل بمنخره خير من آبائكم الذين موتوا فيها .

فاتبعونى أجعلكم أنسابا

والذى نفسى بيده ، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ! »

فقال له عمه أبو طالب — :

« أبق علي وعلى نفسك ! »

فظن النبي أنه خاذله فقال :

« ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته»

ثم استعبر باكياً ، ثم قام .فلما ولى ناداه :

«أقبل ياابن أخى»

فأقبل فقال .

« اذهب وقل ماشئت ، فوالله لاأسلمتك لسوء أبداً ! »

***

أرأيتم خيرا من هذه الأمثلة يسوقها الخطيب يعظ بها قومه ويضرب لهم بها أعلى الأمثال ؟

مثال الطمع وعاقبته

فإذا شاء الخطيب أن يقرب للناس مثل الطمع وعاقبته ، فامل أبلغ مثال يسوقه اليهم هو أن يقص عليهم

« حكاية الدرويش وصاحب الجمال »

وخلاصتها أن رجلا كان يملك ثمانين جملا فكان يستأجره الناس لحمل متاجرهم من بلد الى بلد ، ففى ذات يوم كانت جماله الثمانون تحمل خشبا من بغداد الى البصرة فلقيه فى طريقه درويش وسار معه زمنا ثم جاء وقت الغداء فأكل الدرويش معه

وبعد قليل قال له الدرويش — :

«لقد صرنا رفيقين وصديقين ، وسأرشدك الى كنزثمين تحمل منه ماشئت من ذهب ولآلىء — على جمالك — ثم نقتسم هذا الغنم معا، فمارأيك ؟ »

فهش الرجل وطار فرحا بهذه الصفقة الرابحة التى تضمن له الغنى طول حياته.

وقاده الدرويش الى ذلك الكنز الثمين وفتحه وحمّلا الجمال الثمانين ماااستطاعت حمله من نفائس وذخائر .

ورأى الدرويش صندوقا صغيرا من الخشب فأخذه .

ثم سارا معاً الى مفترق الطريق فتعانقا بشوق شديد وأخذ كل منهما أربعين جملا وسار فى طريقة ،ولم يكد الرجل يبتعد قليلا حتى وسوس له شيطان الطمع فقال فى نفسه ـ :

« ترى لوطلبت من ذلك الدرويش عشرة جمال أكان يرفض طلبى ؟ »

ولم يكد يمر بذهنه هذا حتى أسرع يجرى الى الدرويش ويناديه بأعلى صوته ويلوح له بيديه ـ :

« يادرويش ! يادرويش! »

فعاد اليه الدرويش وسأله : ما الخبر ؟

فقال له ـ .

« ماذا عليك إذا أعطيتنى عشرة جمال من جمالك وأنت رجل زاهد لايعنيك من أمور الدنيا شىء ؟ »

فقال له الدرويش

« لك ماطلبت »

ففرح الرجل بذلك وأخذ الجمال العشرة مغتبطا ثم ودع صاحبه عاد إلى طريقه .

ولـكنه لم يكد يسير قليلا حتى وسوس له شيطان الطمع مرة ثانية

فقال فى نفسه .

« إنه رجل طيب القلب لين العريكة، وما أحسبه يرفض أن يعطينى عشرة جمال أخرى إذا طلبتها منه »

وما كاد يستقر فى نفسه هذا الهاجس ، حتى أسرع يعدو نحو الدرويش ويناديه بأعلى صوته ـ :

« يادرويش ، يادرويش ! »

فلما عاد اليه الدرويش وسأله عما يريد ، قال له ـ :

« ألا تسمح لى بعشرة جمال أخرى أيها الرجل الكريم ؟ »

فقال له الدرويش

« لك ما طلبت ياأخى »

ففرح وأخذ منه الجمال العشرة ، ولم يكد يودعه و يسير بضع خطوات ، حتى عاوده الطمع فقال ـ :

« إن الجمال جمالى ، ولولاها لما استطاع أن يحمل هذه النفائس الكثيرة ، ثم إن هذا الدرويش زاهد فى الدنيا ، وأحسب أن عشرة جمال محملة نفائس وذخائر ثمينة تكفيه وتغنيه طول حياته »

وثمة أسرع يجرى نحو الدرويش ويناديه ـ :

« يادرويش !يادرويش! »

فعاد اليه الدرويش مستفسرا عما يريده ، فقال له الرجل ـ :

« انك قد غمرتنى بفضلك وكرمك ، وأحسبنى إذا طلبت منك عشرة جمال أخرى ، لم تخيب رجائى ؟ »

فقال له الدرويش ـ :

« خذماشئت»

فأخذها وودعه ، ثم عاوده الطمع مرة ثالثة فقال فى نفسه ـ :

«ومافائدةهذهالجمال العشرة لهذا الزاهد المشتغل بعبادة الله . إنهرجل متقشف وربما شغلته عن دينه . هذا الى أنه رجل ضعيف وليس فى قدرته أن يمنعنى ماأطلب.وما أجدرنى أن أنتهز هذه الفرصة النادرة فآخذ منه بقية جمالى ؛ فإذا أبى أن يعطنيها قتلته أوأخذتها منهقسراً »

وثمة أسرع الى الدرويش ، وقال له ـ :

« أنت رجل زاهدمتقشف . ولست فىحاجة الى هذه الجمالالعشرة ، فماذا عليك إذا سمحت لى بها وأضفت الى إفضالك فضلا آخر لا أنساه ؛ لك ماحييت ؟ »

فقال له الدرويش ـ :

« لك ماطلبت »

فشكره وودعه وأخذها وانصرف ،ولـكنه لم يكد يبتعد عنه قليلا حتىذكر الصندوق الصغير الذى أخذه الدرويش من الـكنز ، فقال فى نفسه ـ :

« لولا أن لهذا الصندوق الصغير قيمة أثمن من كل هذه النفائس لما سمح لى الدرويش بها جميعاًراضيامغتبطا ! »

وما كاد يطيف بذهنه هذا الخاطر حتى أسرع يجرى نحو الدرويش فلما أدركه قال له ـ :

« لقد رأيتك تأخذ صندوقاصغيرا من الـكنز وأحبأن أعرف فائدة هذا الصندوق ؟ »

فقال له الدرويش ـ :

«فائدة هذا الصندوق أن من يكحل به إحدى عينيه يرى كنوز الأرض قاطبة، فإذا كحل عينه الأخرى عميت عيناه جميعا »

فقال له الرجل ـ :

« إذن فاكحل عيني »

ولم يكد الدرويش يفعل حتى رأى الرجل كنوز الارض كلها أمام عينيه .

فقال في نفسه ـ :

« إذا كان من يكحل عينا واحدة يرى كل هذه الكنوز ، فكيف بمن يكحل عينيه جميعا! لاشك أن هذا الدرويش يخدعني و يحرص على أن يحرمني فوائد عظيمة ! »

ثم التفت الى الدرويش وقال له :

« اكحل لي عيني الأخرى »

فحذره الدرويش من عاقبة هذا الشطط ، فلم يزده التحذير إلا إلحاحا وعنادا . وبعد لجاجة طويلة أذعن له الدرويش وكحل له عينه الأخرى فعميت عيناه جميعا.

فأخذ الدرويش جماله الثمانين وسار بها الى حيث شاء وترك صاحبنا يلاقي جزاء طمعه وأنانيته .

* * *

أترون أيها السادة أبلغ من هذه الحكاية يقصها الخطيب ليقرر للناس عاقبة الطمع ؟ إليكم مثالا آخر :

« عاقبة الغفلة »

زعموا أنه كان أسد فى أجمة ، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه ، فأصاب الأسد جرب وضعف شديد وجهد ، فلم يستطع الصيد .
فقال له ابن آوى : « ما بالك ياسيد السباع ، قد تغيرت أحوالك ؟ »
قال : « هذا الجرب الذى قد أجهدنى وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه »
قال ابن آوى « ما أيسر هذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً لقصار يحمل عليه ثيابه ، وأنا آتيك به »
ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له : « مالى أراك مهزولا ؟ »
قال : « ما يطعمنى صاحبي شيئاً » فقال له : « وكيف ترضى المقام معه على هذا ؟ »
قال : « فمالى حيلة فى الهرب منه . كلما أتوجه إلى جهة أضربى انسان فكدنى وأجاعنى » قال ابن آوى : « فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمر به إنسان خصيب المرعى ، فيه قطيع من الحمر لم ترعين مثلها حسناً وسمناً ،
قال الحمار : وما يحبسنا عنها ؟ »
فانطلق به ابن آوى نحو الأسد وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه ، وتخلص الحمار منه فأفلت هاما على وجهه ، فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار ، قال له : « أعجزت ياسيد السباع إلى هذه الغاية ؟ » فقال له « إن جئتنى به مرة أخرى . فلن ينجو منى أبدا »
فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له : « ما الذى جرى عليك ؟ إن أحد الحمر رآك غريباً فخرج يتلقاك مرحباً بك ، ولو ثبت لآنسك ومضى بك إلى أصحابه ؟ »
فلما سمع الحمار كلام ابن آوى — ولم يكن رأى أسداً قط — صدقه وأخذ

طريقه إلى الأسد، فسبقه ابن آوى إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له «استعد له فقد خدعته لك. فلا يدركنك الضعف فى هذه النوبة فإن أفلت فلن يعود معى أبداً»

فجاش جأش الأسد لتحريض ابن آوى وخرج إلى موضع الحمار. فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها، ثم قال:

«قد ذكر الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور، فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه وأترك لك ما سوى ذلك قوتا»

فلما ذهب الأسد ليغتسل، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطير الأسد منه فلا يأكل منه شيئاً

ثم إن الأسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى —:

«أين قلبه وأذناه؟»

فقال له —:

«ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به وأذنان يسمع بهما. لم يرجع اليك بعدما نجا من الهلكة[1]»

***

أليست هذه مصداق الحديث: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»

***

«ثم ذكر المحاضر أمثلة أخرى كثيرة وختم محاضرته بقوله:»

«فإذا أردت مثل العقوق ومثل الوفاء فأمامك حكاية «أبى صير وأبى قير» وهى فى ألف ليلة

---

(١) من كتاب «كليلة ودمنة»

و إذا أردت مثل القضاء والقدر ؛ فأمامك حكاية «الملك عجيب » وهى فى ألف ليلة أيضا .

وإذا أردت مثلا على أن لكل مقام مقالا فاقرأ حكاية العم « عمارة » وهى مشهورة لاحاجة بنا لذكرها

* * *

وجماع القول أن القصص وضرب الأمثلة محببان إلى نفوس الكبار والصغار معا وهما من خير الوسائل التى يلجأ اليها الخطيب لتقرير فكرة أو تعزيز مبدأ فى أذهان سامعيه .

الوعظ الكاذب

أيها السادة

قال لى ولدى مصطفى — ذات يوم — وعلى وجهه أمارات الدهشة والعجب :

« انك توصينى ياأبى بالصدق ! »

قلت : « نعم ! »

قال — : « وتنهانى عن الكذب ! »

قلت: نعم

قال —: « كذلك تقول المعلمة ! »

قلت —: « حسن . فماذا حدث ؟ »

قال :

« حدث أن معلمتى — التى توصينى بالصدق وتمدحه لى وتنهانى عن الكذب وتبغضنى فيه — قد كذبت ! »

قلت — :

« وكيف كذبت يامصطفى ؟ »

قال — :

« إنها ضربتنى فشكوتها إليك، فلما سألتها أنكرت ! »

فماذا ترون أيها السادة ؟

إذا كان هذا الطفل — وهو لم يعد السادسة من سنى حياته — قد فطن إلى التناقض بين قول المدرسة وفعلها ، وأدرك أنها تأمر بما لا تأتمر به ، أترونى قد بالغت إذا قلت: إن أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل إدراكا وفهما لما يقع من التناقض بين أقوال وعاظهم ومرشديهم وأفعالهم ؟

الحق أن العامة ـ مهما بلغ بهم الجهل ـ لن يكونوا أقل انتقادا لوعاظهم من الأطفال .

ولست أدرى كيف يأمرنا الواعظ بالصدق و يكذب وكيف يأمرنا بترك الحلف ويحلف ، كذلك الذى يقول «والله ما حلفت صادقا ولا كاذبا »

أو كذلك الذى أراد أن لايبوح بحب معشوقته فباح بها فى قوله ـ :

«لا لا أبوح بحب بثنة إنها … أخذت علىّ مواثقا وعهودا»

وكيف يأمرنا الواعظ بحسن المعاملة وهو نفسه أسوأ مثل للمعاملة ؟.

وكيف تمتلىء قلوبنا خشية من واعظ منافق يأمر بما لايأتمر به ويقرر مالا يفعل ، وكيف نخلد بثقتنا إلى رجل :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر … يصف الحساب لأمة ليهولها

ويكون غير مصدق بقيامة … أضحى يمثل فى النفوس ذهولها

نعم، كيف نصغى الى واعظ وصفه أبو العلاء وأبدع فى وصفه فقال ·

«رويدك قد غررت وأنت ندب … بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحا … ويشربها ـ على عمد ـ مساء

يقول « لقد غدوت بلا كساء» … وفى لذاتها رهن الكساء

إذا فعل الفتى ما عنه ينهى … فمن جهتين ـ لاجهة ـ أساء»

فإن كان بعض الوعاظ يحسب أن مايقترفه سرا من الشنع مستور غير معروف ولا ذائع. فما أشد ضلالته ووهمه :

قال كاتب انجليزى :

« إذا دار بخلدك — لحظة واحدة — أن أخفى أسرارك التى تحرص عليها وتمعن فى تكتمها لم يعرفها الناس جميعا فقد خدعت نفسك خداعا بينا »

وقال الشاعر العربى — :

«ومهما تكن عند امرىء من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس — تعلم»

***

أيها السادة !

لقد استفاد الناس من أخلاق النبي وأعماله أضعاف ما استفادوا من أقواله ومواعيظه.

كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أمثلة عملية للأخلاق الفاضلة فاستفاد الناس من أفعالهم أضعاف ما استفادوه من أقوالهم.

ألا ترون مثلا الى عمر بن الخطاب يجلد ولده — عقابا له — ولا يتهاون فى إقامة الحد عليه.

ثم ألا ترون اليه وهو يعنف ابن العاص بقولته الحكيمة المأثورة — :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

ألا ترون اليه تخطئه امرأة فتحجه فيعترف لها بالغلبة ويذعن للحق إذعانا، ويقول قولته المشهورة — :

« أخطأ عمر وأصابت امرأة »

وليس هذا إلا مثلا من أمثلة عدة يعيينا أن نتقصاها.

ألا ترون الى « كاميل فلاماريون » مثلا كيف عاقب نفسه بغرامة — وقد كان قاضيا — فأصدر على نفسه حكما كما يصدره على عامة الناس.

ألم تسمعوا قصة القاضى الذى أهانه ابن مايكة — وهو فى منصة القضاء —

فزج به فى السجن . فلما علم الملك بذلك فرح أشد الفرح وقال — :
« الحمد الله الذى جعل فى بلادى قضاة يقيمون العدل حتى على ولدى نفسه ! »

***

هذه — أيها السادة — أمثلة عملية قليلة من أمثلة كثيرة يجدر بمن يتصدون للنصح أن يتخذوها نموذجا لهم ليكونوا جديرين بوعظ الناس وإرشادهم .

فإن الناس يستفيدون من النموذج العالى أكثر مما يستفيدون من الحكم والمواعيظ الخطابية.

وفى قدرة كل منكم أن يكون مثلا أعلى لأبنائه وأفراد أسرته وعشيرته وجيرانه . ليقلدوكم فى ذلك .

***

وأنا أضرب لكم مثلا يبين لكم فائدة هذه النماذج الصالحة :

وجدت أبى — وأنا طفل — لا يكاد يترك الكتاب من يده ، فأحببت أن أكون مثله وقلدته فى ذلك حتى أصبح ذلك دأبى الى الآن ، وانقلب التطبع طبعا أصيلا .

ووجدته يصل الرحم فقلدته فى ذلك

ولو رأيته — على عكس هذه الصفات — لقلدته فيها كذلك.

وما أصدق قول القائل :

«مشى السرطان يوما باعوجاج	فقلد شكل مشيته بنوه
فقال: «علام تنحرفون؟» قالوا:	«بدأت به فنحن مقلدوه »
نخالف سيرك المعوج واعدل	فإنا — إن عدلت — معدلوه

أما تدرى أبانا كل فرع   يجارى بالخطى من أدبوه
وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه ! »

***

فما أجدر وعاظنا ومرشدينا أن يعنوا بهذه الحقيقة - فلا يكتفى الواحد منهم بسرد تلك الألفاظ الميتة التى ألفوا ترديدها فى خطبهم ، مقتصرا على تلاوة عبارات مرصوفة محفوظة واصطلاحات عتيقة بالية لا تعبر عن نفسه. فإن من يسلك هذه الطريق مسىء لا محسن ، ورب داع الى الفضيلة هو - على الحقيقة - أشد خطرا عليها من ألف داع الى الرذيلة .

***

وأنا أختم هذه المحاضرة بالقصيدة التالية التى تلخص لكم أثر الوعظ الكاذب فى النفوس - وقد ترجمتها عن الفرنسية - وأظنها تعبر عن ذلك المعنى أدق تعبير :



قصة الباز واللقلق

فَدَصَ البازُ قُنْبرهْ   وعلا البِشْرُ مَنْظَرَهْ
فانبرى لَقْلَقٌ لهُ   ورمى الباز بالشَّزَرْ
قال :« أطلِقْ سراحها   تأت برا ومأثرَه
صوتها ساحر ، فلا   تحرم الناس مصْدَرَهْ
ضَعفها ظاهرٌ ، وفيـ   ـك صيالٌ ومقدره
فاحبُها نعمة الحيا   ة جميلا فتشْكُرَهْ»

***

هزىءَ البازُ قائلا :   «سيِّدى ! ألف معْذره !
غير أنى تريـنى   فِعلةٌ منك مُنْكَرَه
ضِفْدَع بين مِخلبيـ   ـك تزُجيِّه كالكُرَهْ
ضَعفُهُ ظاهر ، وفيـ   ـك صِيالٌ ومقْدرَهْ

فاحبُهُ نعمةَ الحيا ة جميلا فيشكرهْ
إنّ للخير - إنْ أردْ ت - طريقا مُيَسَّرَهْ
فافعَلِ الخير بادئاً ثمّ لُمْنِي على الشَّرَهْ »

***

كَمْ خطيبٍ على المكا رم - قد حثَّ مَعْشَره
إن رأى نا كباً عن الخيـ ر كَلَاهُ وعَيَّرَهْ
هَنَواتُ الورَى يرا ها ذنوباً مكبّرة
ثمَّ يُلفِي ذنوبه هَنَواتٍ مُصغّرهْ
مثل هذا مُنافقٌ جعلَ النصحَ مَتْجره
نصْحهُ كلّه خدا عٌ وغشٌّ وثرثرهْ !

ابن الرومى (١)

كيف أغفله صاحب الأغانى

« لو نطق الدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل »
« ابو العلاء »

ألف أبو الفرج كتابه الاغانى لغرض خاص هو إثبات المائة الصوت التى اختاروها الرشيد ، ثم جره ذلك الى الاستطراد ، فذكر من الطرف والبدائع شيئا كثيرا حتى أصبح كتابه كنزاً من كنوز الادب العربى لا مثيل له .

فإذا أغفل أبو الفرج التنويه بشاعر فحل كابن الرومى ، فهل نجد من يحتج له بهذا العذر ، وأية دهشة تتملكنا ، بل أية حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر فى هذه المجلدات الضخمة التى تؤلف دائرة معارف ادبية نادرة ، فنرى مؤلفها الذى أغفل ابن الرومى قد استطرد اكثر من الف مرة إلى ذكر من يستحق الذكر ومن لا يستحقه والتنويه بشعراء — إن اجللناهم مرة — نزهنا ابن الرومى عن أن يوضع معهم فى ميزان أو يقاس اليهم بمقياس ورأيناهم — إلى جانبه — أقزاماً أمام عملاق !

فإذا زعم زاعم أن شعر ابن الرومى لم يغن به ، قلنا له هذه « مسألة فيها نظر ، وليس لدينا الآن ما ندحض به زعمه فإن اخبار ابن الرومى لم يصلنا منها شىء يذكر ، وقد أجمع المؤرخون — أو كادوا يجمعون — على اغفال هذا الشاعر العظيم كما تعمد أبو الفرج أن يغفل ذكره إغفالا يكاد يكون تاما ، فى حين أنه ملأ الدنيا بأخبار البحترى الذى كان يعاصر ابن الرومى ، وأخبار أبى تمام أستاذ البحترى ، وكثير من معاصريهما وغيرهم من المشهورين كأبى نواس ودعبل الخ . وقد عنى أبو الفرج — فى غير كتابه الاغانى — بدواوين من يحبهم من الشعراء ، فجمع ديوانى

---

(١) نشرت بمجلة المقتطف

أبي تمام والبحتري ، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع - لا على الحروف - كما عني بجمع ديوان أبي نواس !

وتعمُّد الاغفال ظاهر ، فإن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومي في كتابه (الأغاني) إلا مرتين ، وكأنه لم يذكره إلا ليسيء إليه بدلا من أن يشيد بذكره

فقد ذكره في الموضع الأول بمناسبة انتحاله بيتاً من الشعر لإبراهيم ابن العباس (١) ، وذكره في مكان آخر من الكتاب بمناسبة نكبة سليمان بن وهب وابنه (٢) ليظهره لنا بمظهر الشامت ، وكلا الموقفين لا يشرف صاحبه .

ففي الموقف الأول يعرفنا به سارقا منتحلا بيتاً من الشعر

وفي الموقف الثاني يقدمه لنا هاجياً في غير موقف هجاء ، ليثبت أبو الفرج - في نفس الصفحة - رثاء البحتري لسليمان بن وهب الذي جود فيه - كما يقول أبو الفرج - ثم يتبع ثناءه على البحتري بإطرائه إبراهيم بن العباس والإشادة بذكره !

فإذا لم يكن ذلك إغفالا فهو عندنا شر من الإغفال ، وإذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن الراوية قد تعمد الإساءة إلى ابن الرومي فكيف يكون تعمد الإساءة بعد ذلك ؟

* *

لم يكن ابن الرومي خاملا في عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره في هذه الموسوعة الضخمة . وقد زعم بعض الادباء أنه كان خاملا . وهو وهم يفنده الواقع ، فلم يكن ابن الرومي خاملا - لا في عصره ولا بعده -

---

(١) ارجع الى ج ٩ ص ٢٨ من كتاب الاغاني
(٢) ارجع الى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى

ولكنه كان مكروهاً من الناس لإفحاشه فى الهجاء حتى لم يكد يسلم من لسانه إنسان له خطر ! [1]

فإذا قال قائل — : «ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل وذكر كثيرا من أخباره وهو كابن الرومى فى سلاطة اللسان والاقذاع فى الهجاء ؟»

قلنا إن عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومى بقليل وقدمات من أساء إليهم دعبل وقل حقد الناس عليه . فلم يبق هناك بأس من الإشادة بذكره والتنويه بفضله .

أما ابن الرومى فقد أساء الى أعيان الدولة وكبار رجالها . كما أساء الى شيوخ الأدب وزعماء الشعر . ولم تزل إساءته — الى زمن أبى الفرج — عالقة بالأذهان . ولا زال بعض من أخش ابن الرومى فى هجائهم عائشا فى زمن أبى الفرج وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقاؤه ! . ولقد كان أبو الفرج من التشيعين . وكان ابن الرومى متهما بالتشيع . ولم تكن هذه الصلة شفيعا له عنده ولا سببا يدعو الى التنويه بذكره .

هجاء البحترى والأخفش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا وأفرط فى شتمه . وكان للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار رجالها — حتى بعد موته — وقد رأيت أن أبا الفرج كان يحبه ويشيد بذكره ويعنى بآثاره . ولا يتسع هذا المقام الضيق للاسهاب فى ذلك وشرح الأسباب التى دعت اليه ؛ فنجتزئ بقوله فى هجائه من قصيدة :

قد قلت — إذ تحلو الشعر —: حاشر له   إن البروك به أولى من الخبب »

(١) وكان الهجاء سبب قتله

وفيها يقول :

وحسبه من حباء القوم أن يهبوا ... له قفاه ـ إذا مامر ـ بالعصب[1]

ثم يقول :

الحظ أعمى ، ولولا ذاك لم تره ... للبحترى بلا عقل ولا أدب

وفي هذه القصيدة يقول :

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب

كأنها ـ حين يصغى السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب ـ

رقى العقارب . أو هذر البناة . إذا ... أضحوا على شعف الجدران فى صخب

وقد يجىء بخاط ، فالنحاس له ... وللأوائل مافيه من الذهب

سمين مانحلوه من هنا وهنا ، ... والغث منه صريح غير مجتاب

يسىء عفا ، فإن أكدت وسائله ... أجاد لصا شديد البأس والكلب

ثم يقول :

عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب

ما إن تزال تراه لابسا حللا ... أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

شعر يغير عليه باسلا بطلا ... وينشد الناس إياه على رقب

الى آخر هذه القصيدة الطويلة التى لانسمح لأنفسنا بنقل ماورد فيها من الهجاء المقذع والفحش الشنيع فى مثل هذا المقام . فليرجع اليها القارىء فى ديوانه إذا شاء .

***

ولاتنس هجاء ابن الرومى للأخفش ـ أستاذ أبى الفرج ـ فقد كاد ابن

---

(١) جماعات الناس

الرومى يقف حياته على هجاء الأخفش، وكاد الأخفش يقف حياته على التشنيع به والزراية عليه، فلا غرو أن يغرس الأستاذ فى نفس تلميذه بذور الكراهية والبغض لابن الرومى — منذ الصغر — أو يغضب التلميذ لأستاذه فيتعمد إغفال من جعل همه الأول شتم أستاذه والتشهير به. « وآفة الرأى الهوى ! » .

***

وإلى القارىء شيئاً من هجاء ابن الرومى للأخفش ليتبين صحة ماذهبنا اليه، قال من قصيدة طويلة رائعة :

قلت لمن قال لى: عرضت على الأخـ   فش ما قلته فما حمده
قصرتَ بالشعر حين تعرضه   على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ولا رواه، فلا   ثعلبه كان، لا ولا أسده
فإن يقل: « إنى رويت » فكالدفـ   تر جهلا بكل ما اعتقده
أرُمت زينى بأن تعرضنى   لمدحه؟ فالذليل من عضده
أم رمت شينى بأن تعرضنى   لثلبه؟ فالسليم من قصده

الى أن قال :

شعرى شعر — إذا تأمله الإنـ   سان ذو الفهم والحجا — عبده
لكنه ليس منطقا بعث الله   به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطيـ   ر سليمان قاهر المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من   تفهم عنه الكلاب والقرده

ثم قال — بعد أبيات —:

لارحم الله أم أخفشكم   ولاسقى قبر والد ولده
ماذا عليه — وقد رأى ولداً   أعور جم العوار — لو وأده!

سأسمع الناس ذمه أبداً ما سمع الله حمد من حمده

وفى هذه القصيدة أيضاً من هجر القول مالا يسمح بذكره المقام .

وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمنن السفيه بادرتى فإننى عارض لمن عرضا

عندى له السوط إن تلوّم فى السير وعندى اللجام إن ركضا

وفيها يقول:

أضحى مغيظاً على أن غضب الله عليه ونلت منه رضا

قولا له : ينطح الجدار إذا أعيا ، وصم الصفا إذا امتعضا

ولا يحمل ضعيف مُنّته حربى ، فما مثله بها نهضا

الى أن يقول :

أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضا

***

فإذا ذكرنا — إلى ذلك الهجاء المقذع — أن فى التنويه بابن الرومى إساءة إلى جمهرة من أعيان الدولة وكبار رجالها الذين هجاهم ابن الرومى أو هجا آباءهم — كما أسلفنا القول — عرفنا السر فى هذا الاغفال .

ما رأيك (١) ؟



عجوز أظهرت دهشاً كبيراً   أتعرف كل دهشتها لماذا ؟

شرت لقرينها خبزاً ، فلما   أتت ألفته مات ، فكان ماذا ؟

شرت كفناً له توّاً ، وعادت   فألفته صحا ، دهشت لهذا ؟

---

(١) من كتاب محفوظات الأطفال الذى لم يطبع بعد . وهذه المقطوعة مترجمة عن الانجليزية .

ابو العلاء المعرى

فى لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوى المزاج ؛ ممعن فى السخط على الحياة ، بالغ فى سخطه وبرمه مدى لا يشركه فيه الا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين

وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الأمم التى نقلت آدابها إلى العربية ، وعالم واع أخبارها ، صادق حين يقول :

«ما مر فى هذه الدنيا بنو زمن الا وعندى من أخبارهم طرف»

وهو — مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة ، والرواية الواسعة لآدابهم المتباينة — ممحص فطن خبير بتمييز الأخبار ، دقيق فى نقد زائف القول من صحيحه .

وأبو العلاء مفكر ؛ عميق التفكير ، ماهر المعنى ملتقى الحجة ، وعالم من أكبر أساطين اللغة المشهود لهم بالسبق والتفوق

وهو — إلى ذلك — شاعر فنان ، عريق فى الفن ، عارف بروائعه ، خبير بأسرار الجمال ومواطن الجلال وهو حر الفكر واسع الخيال فياض المعانى مشرق الديباجة لا يعوقه عن بلوغ غايته شأو ، ولا يقف فى سبيله حاجز .

***

هذه الميزات الباهرة هى أول ما يبدهك من شعر أبى العلاء — الحافل بروائع الفن والفلسفة — حين تقرأ كتاب اللزوميات ؛ فتطالعك كل صفحة منه بما يزيدك اقتناعا بتلك المزايا العالية التى أفردت أبا العلاء فأحلته أسمى مكان بين شعراء العربية جميعا ، وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة فمازته من بين جبابرة الفكر وأساطين الفن المبرزين.

وأى روض من رياض الفكر ، أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الروض الفكرى البهيج الذى تتملى به فى كل صفحة من صفحات اللزوميات إذ تقرؤها فتطالع فيها سفرا من أسفار الحياة حافلا بأسمى وأروع ما يُبْدعهُ العقل الانسانى وتتمثل فيها الخوالج النفسية واضحة جلية ، لا لبس فيها ولا ابهام.

***

اقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناة وأنا الزعيم لك بأنك لن تجد إلا ماحدثتك عنه من الروعة والجلال ، فإذا حال دون إمتاعك به كلمة غريبة عنك ، أو لفظة تنبو عنها أذناك ، فحذار أن تعجل بالحكم على الرجال قبل أن تتثبت من وجهها الصحيح ، فليس هذا ذنبه ، وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته ، وإنما إثم ذلك عائد إلى تسرعنا فى الحكم أو قلة محصولنا اللغوى ، أو عدم إلمامنا بقسط كاف من تاريخ الأمم العربية والأمم الأخرى التى أثرت فى تاريخها وفى أدبها معا ، أو قصورنا فى درس جغرافية تلك البلاد .

***

وليس على أبى العلاء إثم إذا عثرت كذلك فى شعره بكلمة غريبة ، وتبادرت الى ذهنك كلمة حسبتها أليق منها وأبلغ فى أداء المعنى ، فمضيت فى حكمك لاتلوى على أحد !

نعم ! فإن الرجل دقيق يعنى مايقول ، وليس مغرورا يولع بالبهرج ، ولا منافقا يكذبك نفسه ، ولا قليل البضاعة يزجيها عليك ، ولكنه رجل واسع الفكر بعيد المرمى ، وليس أجدر بالروية والأناة من قارئ الأدب

العلائى

ـ فإذا وقع بصرك على مثل قوله :

« لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته بفقير معرى ، أو أمير مدوّج »
« وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج »

فتبادر إلى ذهنك أن كلمة « مدوج » ثقيلة على السمع ، وأن التزامه الاغراب هو السر فى التجائه اليها وأنه كان جديرا أن يقول بدلها « متوج » وما أليق هذه الصفة بالأمير وما أخفها على السمع وألطف مدخلها فى القلب . . . . . . !

فتريث قليلا ، وانظر الى المعنى ـ بعد أن فتنك بهرج اللفظ ـ وخبرنى بعد ذلك : « أيقابل عرى الفقير تاج الأمير » وقل لى بربك « كم تفقد تلك الصورة الشعرية من الجمال إذا وضع هذا اللفظ بدل ذاك ؟ »

***

إذن ـ فقد أراد أبو العلاء اللفظة الأولى ، وقصد إليها قصدا ، ولو كان يتكلم نثرا لأتى بها ولم يرض منها بديلا . وما أروع تلك الصورة الشعرية الجميلة التى تتمثلها فى هذا البيت الدقيق إذ « ترى الشتاء زاحفا بقره ومطره وزمهريره ، وترى فقيرا بائسا يستقبل هذا الفصل القاسى عاريا لايجد مايدفئه أو يقيه غائلة البرد ، ثم ترى ـ إلى جانبه ـ أميرا مثريا متدثرا بلحاف فوقه لحاف ، لايكاد يشعر بألم البرد القارس أو يحس زمهريره

وترى فى البيت الثانى مجدودا ، تكدست أمامه أقوات أمة بأسرها ؛ وإلى جانبه مسكين قد حرم قوت يومه ! »

* * *

حسبنا هذا المثل من أمثلة عديدة يعيينا استقصاؤها ولايتسع الوقت لذكرها . ولكن حذار ، أن يدخل فى روعك ، أو يدور بخلدك — لحظة واحدة — أننا ننزه أبا العلاء عن الزلل ؛ وأننا نطاق القول إطلاقا ، فنعصمه من كل خطأ أو نزعم له شيئا من ذلك ؛ فإنما هو إنسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار .

ولكن كل ماتقوله إننا ألفنا منه الدقة والإحكام ؛ ولم يعودنا الثرثرة والهذيان وإننا وضعنا فى البوتقة جل ماقدمه لنا من المعادن فألفيناه ذهبا خالصا غير مختلط بنحاس . فإذا شذ من ذلك شىء فهو الفكر الانسانى الذى لايسلم صاحبه من عثار أو كبوة إلى الأرض — أثناء تحليقه فى سماواته العلى — وهو الشعر كالشجر :

« ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر »

ونوجز فنقول . « إننا اذا عددنا نخبة المفكرين والفلاسفة المعدودين الذين تركوا أوضح أثر فى تاريخ الفكر الانسانى والذين هم أبعد الناس عن الإسفاف واللغو : فإن أبا العلاء بلا شك يكون فى أعلى ذروة يجاس فيها أساطينهم وجبابرتهم »

وهذا كلام نؤكد للقارئ أننا نعنيه تماما وأننا نقوله جادين وأننا أبعد الناس عن المبالغة حين نقرره

فليس يمترى أحد درس أبا العلاء حق دارسته فى أنه قد خط للشعر العربى طريقا جدية فلسفية . وأنه قد أودع لزومياته أسمى المبادئ الاجتماعية وأرقى أساليب النقد الصحيح . والسخرية الخفية اللاذعة . والدعابة القاسية

التى تحوى الجد المر بين ثناياها ، والتى تكشف عن النفس الانسانية وعن الطبيعة الخالدة سجفها وأستارها الكثيفة ، فتجليها فى أبهى حلاها وتطلع الأنسان على أخفى خفاياها .

* * *

وهذه الميزات الباهرة التى نكبرها فى أبى العلاء والتى نعجب بأدبه من أجلها وندعو الناس الى الاقبال على آثاره الخالدة ليمتعوا أنفسهم بها . هى وحدها السر فى عزوف فريق الأدباء الجامدين عن كتب أبى العلاء . وبغضهم للأدب العلائى والفلسفة العلائية ، فإن أذهانهم الضيقة لاتتسع لفهم معانيه العميقة . وصدورهم الحرجة لاتنفسح لحريته البعيدة المدى .

ولاغرو إذا عجزوا عن فهم شعره فتنقصوه وعابوه . فقد ألفوا من الشعر لغوا وهذيانا ودعابة وترديد معان سخيفة أنهكها التكرار الممل . ونوعا من الشعبذة الكلامية تلتئم مع طبائعهم الممسوخة وأذهانهم الملتوية الفاسدة . وماأجدر هؤلاء أن يبغضوا شعر أبى العلاء ويعزفوا عنه وماأخلقهم أن لايصدعوا أدمغتهم بجده القاسى الذى لاتحتمله أذهانهم اللطيفة ! !

***

فإذا كان لابد لهم أن يحفظوا شيئا يتندرون به من كلام أبى العلاء ليتمموا به سلسلة محفوظاتهم الأدبية . فأمامهم بضع قصائد قالها فى أول حياته الأدبية ـ فى كتاب سقط الزند ـ وتبرأ منها فى مقدمته . كقوله مثلا :

إذا خفقت لمغربها الثريا توقت من أسنته اغتيالا

وقوله :

ولو أن الرياح تهب غربا وقلت لها « هلا » هبت شمالا

وأقسم لو غضبت على ثبير لأزمع عن محلته ارتحالا

وقوله:

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

وقوله :

وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان

وقوله:

وعلى الأفق من دماء الشهيديـ ن - على ونجله - شاهدان

الى آخر ذلك الهذر والعبث الذى يلائم مزاج تفكيرهم وأسلوبهم.

* *

على أنهم سيجدون - حتى فى هذه القصائد الأولى وأشباهها - بضع أبيات فلسفية رائعة تبغضهم فى شعر ابى العلاء وتستدر نقمتهم على أدبه !

ولكن مالنا و لهذه الفئة الأمية الفكر الحقيرة الشأن، وقد أوشكت تنقرض وسمعنا صوت احتضارها الخافت ، لاشأن لنا بهم بعد أن اكتسحت نهضتنا المباركة أكبر زعمائهم - فيما اكتسحته .. وستأتى على الباقين منهم فى القريب العاجل !

فلنترك إذن هذه الفئة تحتضر ، ولنغتبط برواج الأدب الحى وانتشار الفن الصحيح بين أبناء الشرق الناهض فليس أدعى إلى الاغتباط من نفاد طبعات ثلاث من هذا السفر الأدبى النفيس ، وشدة الالحاح المتواصل فى طلبه .

وما أجدر الأدباء بذلك ، وما أجدر الأدب العلائى أن يجذب اليه أنظار المفكرين فى هذا العصر الناهض الحافل بالجد والحياة ، وأخلق بذلك الإقبال

أن يتخذ دليلا لايقبل الشك ، على صدق نهضة الشرق وعنايته بالأدب الصحيح والفن العالى

وفى بعض هذا ما يفسح مجال الأمل فى رقيه ، ويدعو إلى التفاؤل الصادق بنجاح سعيه وإدراك غايته النبيلة التى يسعى اليها بخطواته السديدة . فقد فرغ الباحثون من التدليل على أن كل نهضة لاتعتمد على الأدب زائفة وشيكة الإخفاق ، وأن الأدب الصادق أساس كل نهضة حقة ، ورائد كل حركة قومية منتجة .

***

وأى أدب أصدق من الأدب العلائى الذى يحوى لب اللباب ويشرح أخفى الخوالج الإنسانية ويوضح أدق وأسمى إحساسات النفوس العالية ،

ظلي (١)

أنت ياظلى رفيـق عمرى
أنت ياظلى عجيب الأمر
كم تطول
ثم تبـدو غاية فى القصر
أونزول
ثم تعدو ـ بعدها ـ فى أثرى

***

إن ظلى مشبهى كل الشبه ... كلما استيقظت ألفيـه انتبـه
قافزا خلفى ـ طـورا ـ وأمامى ... صامتا لم يدر مامعنى الكلام
حـركاتى كلها يأتى بها ... لايبالى سهلها من صعبها

***

أنت قد حيرتنى فى أمرى
أنت خافٍ ـ حين أجرى ـ تجرى
أنت ـ إن أبطئ ـ بطئ السير
أى نفع لك ، لست أدرى .

---

(١) من كتاب محفوظات الأطفال. وهذه القطعة مقتبسة من الانجليزيه

الخسوف والكسوف (١)

١

ذعر الأقدمين منهما – وبعض أساطير الأولين عنهما

لانكاد نسمع – في هذه الأيام – بقرب حدوث خسوف أو كسوف حتى نترقبه بفارغ الصبر. فإذا وقع اندفعنا الى رؤيته متهافتين تحفزنا الرغبة العلمية الصحيحة، أما فى غابر الازمان، فقدكان للناس شأن آخر – على نقيض ذلك – إذ لم يكونوا يفهمون لحدوثهما معنى إلا الإنذار بوقوع نكبات وويلات عاجلة.

أثر الخسوف فى جيش الاسكندر

ولقد كاد يتحتم الفشل على الاسكندر فى موقعة (اربل) وكاد يكتب لجيشه الخذلان بسبب الخسوف، إذ جن الليل، وخسف القمر على مرأى من رجال الجيش الذين أيقنوا أنه نبوءة صادقة بالهزيمة. فدب الخوف فى قلوبهم وسرى الوهن والفتور الى عزائمهم. لولا ما بذله الاسكندر من جهد فى تسكين روعهم وإعادة الحماسة اليهم. وليس هذا إلا مثلا واحداً لما كان يسود الناس فى تلك الأزمان من الأوهام التى نجمت من جهلهم علم الفلك

---

(١) قدمت مجلة الأخاء هذا المقال بالكلمة التالية:

« هذه المسامرة رائعة تمثل ذعر الاقدمين من الخسوف والكسوف و بعض أساطيرهم العجيبة التى كانوا يتناقلونها و يعللون بها حدوثهما، وهى – إلى طرافتها – تلخص لنا رأى الأقدمين فى الخسوف والكسوف، واعتقادهم في الشمس والقمر، أحسن تلخيص »

وقوانين الطبيعة

أثر الخسوف فى نجاح كولمب

ويذكر لنا المؤرخون الذين كتبوا عن اكتشاف امريكا ، أن «خرستوف» مدين بحياته وحياة رجاله لعلم الفلك ، ولولاه لماتوا جوعا ، فقد نفدت ذخيرتهم فى (جمايكا) وضن عليهم الأهلون بالزاد لما كانوا يشعرون به من الكراهية لهؤلاء الغرباء ، وكان « كولمب » يعلم أن القمر لا بد مخسوف فى الليلة التالية ، فجمع رؤساء العشائر وخطبهم متوعداً إياهم بشر النكبات إذا أصروا على عنادهم وأبوا أن يلبوا طلبته ، ومما قاله لهم :

« سترون غداً مبلغ سلطانى على الطبيعة ، حين أبدأ بحرمان بلادكم ضوء القمر ! »

والحق أن رؤساء القوم قد ساورهم القلق حين سمعوا منه هذا الوعيد ، وتملك نفوسهم ذعر غامض لا يعرفون كنهه ، فقد كانوا يخشون سطوة هؤلاء البيض الذين جابوا الأرض والمحيط حتى وصلوا إليهم ، على أنهم أخفوا ذلك القلق وأظهروا لكولمب كثيرا من التجلد إذ لم يدر بخلدهم أن قوته — مهما عظمت — تستطيع أن تغير من نظام الشمس أو القمر . فخرجوا من عنده يهزون أكتافهم ساخرين .

فلما حانت الليلة التالية ورأوا بأعينهم ضوء القمر يتضاءل ثم يتلاشى بعد ذلك ، خلع الذعر قلوبهم فأسرعوا ضارعين الى (كولمب) أن يرفع عنهم تلك النقمة ، وبهذه الحيلة ظفر (كولمب) بكل ما يحتاجه من الزاد بعد أن وعدهم بإرجاع الضوء الى القمر فى الحال ، وما كادوا يبصرون البدر مؤتلقا زاهياً فى السماء بنوره الفضى حتى آمنوا بقدرة كولمب وهيمنته على عناصر

الطبيعة كلها (١)

أمثلة من خرافات المتقدمين

واقد كان المتقدمون - سواء منهم الغربيون والشرقيون - يذعرون أشد الذعر كلما وقع كسوف أو خسوف، وكان الخرافات عندهم سوق رائجة؛ وإليك بعض ما كانوا يتناقلونه ويؤمنون بصحته من تلك الأساطير :

كان يعتقد بعضهم أن الشمس والقمر لاينكسفان إلا إذا وقعا فريسة لشرير من العمالقة أو المردة التي تسعى لالتهامهما . فكان الاوريون ينسبون ذلك الى مارد عملاق اسمه « مابويا » يعزون اليه كل ما يصيبهم من شر أو يحل بأرضهم من طوفان أو بلاء . بينما يتخيل الهندوس أن ذلك المارد على صورة حية هائلة ، ويعتقد جيرانهم أنه نمر غاية في الضخامة ، ويتمثله آخرون كلبا عظيم الجرم من كلاب البحر؛ أما أهالي سومطرة وملقا فكانوا يدينون بأن القمر والشمس لاينكسفان إلا لأن حية كبيرة تلتف حول أحدهما لتخنقه (٢)

---

(١) من ألطف ما يرويه لنا المؤرخون عن كولمب أنه رسا ذات يوم على بعض سواحل أمريكا وبينما هو جالس مع أهل تلك الجهة أتى عليهم بعض الاسئلة فلما أجابوه طلب الى كاتبه أن يكتب ما قالوا ففعل ، ولم يكد يراه القوم يسطر بقلمه على الورق حتى ذعروا وفر أكثرهم من المجلس لاعتقادهم أنه ساحر يخط رموزا من السحر، وقد بذل كولمب جهده حتى تمكن من إقناعهم بالبقاء.

(٢) وفي قصة « سيف بن ذي يزن » أسطورة ممتعة عن دابة هائلة الجرم « من دواب البحر » مولعة باختطاف الشمس، يصفها الشيخ جواد راوي تلك الاسطورة- فيقول:

« واعلم ياولدى أن هـذه الدابة خلقها الله وشغلها بالشمس فاذا نظرتها - وهي مشرقة من المشرق - دارت بوجهها تروم اختطافها فلا تلحقها ، وعند نزولها المغرب تنقلب الي جهتها وتروم أن تلتهمها بفمها فلا تلحقها ، فتخبط رأسها بالأرض حتى تدوخ فيدركها النوم فتنام حتى يحين موعد شروق الشمس، فتفيق الدابة من نومها فتجد الشمس قد ظهرت من المشرق فتنحرف إليها تريد اختطافها فتكون الشمس قد ارتفعت ، فتدور معها وهي ناظرة اليها الى أن تغرب وهكذا. »

ارجع الى (ج«١» ص «٤٧») من القصة .

وفى أساطير بعض الأمم « أن الشمس والقمر امرأتان وأن النجوم بنات القمر

وأن الشمس قد كان لها فى غابر الزمان بنات كبنات القمر . »

قالوا :

« ثم خشيتا [1] أن يعجز الناس عن احتمال كل هذا النور والحرارة ، فاتفقتا على أن تأكل كل منهما بناتها . أما القمر فنكثت بعهدها وأخفت بناتها عن عين الشمس التى برت بوعدها ولم تتردد فى أكل بناتها . على أنها لم تكد تفعل ، حتى أظهرت القمر بناتها من مخبئهن . فلما رأت الشمس ذلك غيظت من القمر ، وأنشأت تطاردها لتقتلها . ولا تزال كذلك الى اليوم ، وقد تدنو منها فتعضها وهذا هو الخسوف »

رأى الهنود فى النيرين

« ومن سنة بعض حكماء الهنود — فيما يقول الشهرستانى — أنهم إذا نظروا إلى الشمس قد أشرقت سجدوا لها . وقالوا : « ما أحسنك من نور وما أبهاك وما أنورك ! لا تقدر الأبصار أن تلذ بالنظر اليك !

فإن كنت أنت النور الأول الذى لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح ، وإياك نطاب ، وإليك نسعى لندرك السكنى بقربك ونتظر الى إبداعك الأعلى ، وإن كان فوقك وأعلى منك نور آخر — أنت معاول له — فهذا التسبيح وهذا المجد له وإنما سعينا وتركنا جميع لذات العالم لنصير مثلك ونلحق بعالمك ونتصل بما كنك

(١) ليلاحظ القارئ أن الشمس والقمر فى هذه الخرافة امرأتان ، وأن الضمير يعود عليهما — لذلك — مؤنثا

إذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها، فحق لكل طالب أن يهجر جميع اللذات ليظفر بالجوار بقربه ويدخل فى غمار جنده وحزبه (١) . »

وفى الهند فرقتان تعبد إحداهما الشمس والأخرى القمر

عبدة الشمس

« فأما عبدة الشمس — كما يقول الشهرستانى — فقد زعموا أن الشمس ملك من الملائكة ولها نفس وعقل ، ومنها نور الكواكب وضياء العالم ، وتكون الموجودات السفلية . وهى ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء

ومن سنتهم أن اتخذوا إليها (صنما) بيده جوهر — على لون النار — وله بيت خاص باسمه ، وقفوا عليه ضياعا وقرايين . وله سدنة وقوّام يأتون البيت ويصلون ثلاث كرات ، ويأتيه أصحاب العلل والأمراض فيصومون له ويصلون ويدعون ويستشفون به (٢) »

عبدة القمر

« وأما عبدة القمر ، فقد زعموا أنه ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلى والأمور الجزئية فيه . ومنه تنضج الأشياء المتكونة واتصالها إلى كمالها . وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات ، وهو تلو الشمس وقرينها ومنها نوره وبالنظر إليها زيادته ونقصانه .

ومن سنتهم أن اتخذوا صنما على صورة عجل — وبيد الصنم جوهر

ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه ، وأن يصوموا النصف من كل شهر

---

(١) الشهرستانى

(٢) الشهرستانى

ولا يفطروا حتى يطلع القمر ، وهم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن ، ثم يرغبون اليه ، وينظرون الى القمر ويسألونه حوائجهم ، فإذا استهل الشهر علوا السطوح وأوقدوا الدخن ودعوا عند رؤيته ورغبوا اليه ، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور ولم ينظروا اليه إلا على وجوه حسنة (١) وفى نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا فى الرقص واللعب والمعازف بين يدى الصنم والقمر (٢) »

كيف كانوا يدفعون عنهم نكبات الخسوف والكسوف

وهكذا كثرت الاشاعات ، وتعددت الأوهام ، فلم تسلم منها أمة قديمة من سكان المعمورة كلها .

أما الوسائل التى كانوا يدفعون بها تلك النكبات الموهومة التى يترقبون وقوعها زمن الخسوف أو الكسوف فهى كثيرة ؛ أهمها أنهم كانوا يتظاهرون - رجالا ونساء - ثم يحدثون أقصى مايستطيعون من جلبة وضوضاء ، ليخيفوا تلك الجبابرة - أو المردة - التى تحاول التهام الشمس أو القمر . فكنت ترى - فى حيثما ذهبت - رجلا يحمل معه طنبورا أو بوقا ، والى جانبه امرأة أو فتاة معها دف - أو ما يقوم مقامه إن أعوزها الدف (٣) - وربما ربط بعض الأمم كلابهم وانهالوا عليها جلدا بالسياط بكل ما فيهم من قسوة حتى يرتفع عواؤها الى عنان السماء

---

(١) لا يزال بعض الناس إلى اليوم لا ينظرون الى القمر فى أول استهلاله الا على وجه من يحبونه تفاؤلا منهم بذلك

(٢) الشهرستاني

(٣) ولا تزال هذه العادة شائعة فى أغلب القرى المصرية الى اليوم بعد أن دخل فيها قليل من التغيير

أما الصينيون فكانوا يضيفون إلى ذلك خروج جنودهم إلى ساحات الفضاء متنكبين أقواسهم فلا يزالون يطلقون سهامهم - بلا انقطاع - رغبة فى إنقاذ الكوكب المخسوف.

وقد كان بعض المتقدمين يعلل الخسوف والكسوف - فيما يقول مؤرخو اليونان والشارقة - بأنه ناجم من طوفان أتى من الجحيم فغمر الشمس أو القمر وسبب الكسوف، وكان هذا الاعتقاد يدفعهم إلى دق النواقيس - فى كل مكان - استنزالا لرحمة وطردا لتلك الأرواح الشريرة التى سببت لهم هذا البلاء.

وكان من عادة الايطاليين أن يلجأوا الى ذلك حتى فى أوقات اشتداد العواصف. ولم يكن الفرنسيون أقل هلعا من غيرهم عند حدوث الكسوف، فلم تكد تنكسف الشمس فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٤٠٦ حتى انخلعت قلوبهم من الذعر، وهرع جمهورهم إلى الكنائس معتقدين أن آخرة العالم قد حانت، مؤثرين أن يموتوا فى الكنائس شهداء أبرارا، ولم يكن رعبهم من الكسوف الذى وقع فى شهر أغسطس من عام سنة ١٦٥٤ بأقل من سابقه. ولقد مرض لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم مرضا خطيرا بسبب ما لحقه من الرعب من كسوف ٣ مايو سنة ١٧١٥.

وكان ذلك خاتمة الحوادث التى أثارها الكسوف والخسوف. ثم استنار الناس، وعلموا حقيقة هذه الظاهرة، فلم يعد يخشاها أحد!

٢

ابتهاج المتأخرين بهما

ولم يكد يتقدم علم الفلك حتى عرف الناس ما لم يكونوا يعرفون، وأدركوا ما فى تلك الأساطير من خطل؛ فتبدل خوفهم أمنا وطمأنينة.

ماذا ؛ بل انقلب الأمر من النقيض الى النقيض، فأصبحوا يترقبون ـ بفارغ الصبر ـ رؤية الكسوف والخسوف، وآية ذلك ما أظهروه من الغبطة والفرح بالكسوف الذى وقع فى باريس يوم ٢٢ مايو من سنة ١٧٢٤، فقد حدث ذلك قبيل الغروب، وكان بدؤه فى الساعة ١٨ث ٥٥ق ٥س مساء، وقبل أن تنقضى ساعة أصبح الكسوف تاما وغطيت صفحة الشمس كلها بظلام دامس؛ فبدل النهار ليلا حالك الإهاب، وظهرت النجوم فى السماء، ولكن فرح الجمهور المتلهف لم يطل. فقد أرخى الليل سدوله ـ بعد دقيقتين ـ قبل أن يتملى الناس برؤية هذا المنظر الرائع ـ منظر خروج الشمس من ذلك الظلام الحالك الذى غطى صفحتها ـ فقد توارت عن العيان، ومالت الى الأفق الغربى بين أسف الجمهور ولهفته. وكان رجال البلاط قد أعدوا عدتهم لرؤية ذلك الكسوف وجلسوا فى أعلى مكان فى القصر الملكى ـ ومعهم نظاراتهم الفلكية ـ وفى وسطهم الملك الشاب «لويس الخامس عشر» وكانت سنه حينذاك أربعة عشر عاما. وجلس الى جانبيه الفلكيان الشهيران اللذان يعدان أكبر رجال الفلك فى ذلك العصر وهما «جاك كاسينى» و «جاك مور الدى» فكان لويس يشهد ذلك الكسوف من خلال مرقب كبير أمامه، وكان يسمع منهما غرائب ما يشرحان له من طرائف علم الفلك بأذن سميعة وقلب واع. ولم يكد ينتهى ذلك الكسوف حتى أعقبته فكاهة طريفة، ظلت حديث عصره ردحا من الزمن. فقد رأى الملك سيدتين من سيدات البلاط تقبلان فى اللحظة التى غربت فيها الشمس. فقال لهما مازحا:

«لقد فاتكما هذا الكسوف، فانتظرا الكسوف التالى بعد قرنين»

ولكن إحداهما ابتدرته قائلة بسذاجة نادرة ـ:

« كيف ، ألا يستطيع « كاسيني » الفلكي إذا أمرته جلالتكم أن يعيد لنا تلك الظاهرة من جديد ؟ »

فأغرب الملك في الضحك وتبعه رجال حاشيته في ذلك مجاراة له . ولم يفت أحد ظرفاء ذلك العصر أن ينظم أغنية جميلة ضمنها تلك النادرة !

وقد شغل الناس بالحديث عن ذلك الكسوف زمناما . فنسوا كل كلام سواه : وعلقوا على صدورهم شارات رمزوا بها الى الكسوف . وصنعوا ألوانا من الحلوى أطلقوا عليها اسم الكسوف ، منها رقاقة ابتكرها تاجر من تجار الحلوى . أسماها « رقاقة الكسوف » وهي رقاقة بيضاء مغطاة بطبقة سوداء من الشكولاته . رمزاً الى نور الشمس المكسوف . كما مثلوا على المسارح كوميديا ذات ثلاثة فصول . اسمها كوميديا الكسوف !

وفي هذا أكبر دليل على مقدار ما وصل اليه ابتهاج المتأخرين بالكسوف واحتفائهم بوقوعه

***

على أن الفلكيين كانوا في حاجة الى الاستزادة من الدرس . فأخذوا يترقبون بفارغ الصبر وقوع كسوف آخر

ومضى على ذلك ثلاثة أرباع قرن سهلت في أثنائها المواصلات وأصبح من اليسير على العلماء أن يسافروا الى أي مكان يقع فيه الكسوف . فلم يفتهم أن يذهبوا الى أواسط فرنسا لمشاهدة كسوف ٨ يوليو ١٨٤٢ . ولا لمشاهدة الكسوف الذي وقع في « الماليزيا » و « الهند » في ١٨ أغسطس سنة ١٨٦٨ . ورحل العلماء من كل صوب لرؤية الكسوف الذي وقع في أسبانيا وشمال أفريقيا في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ وكان كسوفا كليا توفروا على

درسه بروية واطمئنان

وفى السابع عشر من شهر ابريل سنة ١٩١٢ وقع فى فرنسا كسوف لايقل خطره عن كسوف سنة ١٧٢٤ الذى أسلفنا ذكره، فخف سكان باريس وغيرهم إلى مشاهدته فى الضواحى لاسيما فى منطقة « سانجرمان »

فضل الطيران على رجال الفلك

ولايفوتنا أن نذكر ـ قبل ختام هذا المقال ـ أول فضل أداه الطيران لرجال الفلك وكيف أعانهم على درس الكسوف الذى وقع فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣ فى « كاليفورنيا » حيث ذهب العلماء من أقاصى الأرض رغبة فى درسه . ولقد كاد يعتريهم الخبال ويستسلمون لليأس ، حين رأوا الضباب يحجب عنهم السماء وشمسها . فلا يتبينون شيئاً . ولكن العلماء تمكنوا بفضل الطيارات من اجتياز هذه العقبة . فحلق سرب مؤلف من سبع عشرة طيارة الى ارتفاع خمسة آلاف متر ، وثم تمكنوا من رؤية السماء وتصويرها ونجحوا فى إدراك مايبتغون .

ومع تلك الدجنة الحالكة التى سببها الضباب ، فإن العلماء لم يوفقوا فى حياتهم الى مثل ما وصلوا اليه فى هذه المرة ـ بفضل الطيران ـ من النتائج الباهرة [1] .

---

(١) اقتباس وترجمة

آلام الفقير [1]

سألنى الغنى :

« مم يتألم الفقير ؟ »

فأجبته أن اتبعنى ـ حيث أقودك ـ وأنا الكفيل بإقناعك !

***

كنا فى المساء وكان منظر الطرقات ـ التى تراكمت على أرضها الثلوج ـ يدعو الى الانقباض والوحشة ، وكنا مرتدين لباسا سميكا أحكمنا دثاره لشدة البرد ، ولكن ذلك لم ينقذنا من قشعريرته.

وإذا بشيخ مسن مرَرْنا به فى طريقنا ، ولم يكن فى رأسه إلا خصل قليلة من الشعر الأبيض . فسألته :

« ما الذى أخرجك من بيتك ؟ وماذا تعمل فى هذه الليلة القرة ؟ » .

فأجابنا :

« حقا إنها ليلة قاسية البرد . ولكننى لم أجد وقودا فى بيتى فاضطررت إلى مغادرته . واستجداء الناس المعونة »

***

ورأينا طفلة صغيرة عارية القدمين ، تسأل الناس بصوت مرتفع جرىء فسألتها :

« وماذا تصنعين هنا فى هذه الريح الصرصر ؟ »

فقالت :

---

(١) للشاعر الانجليزى الذائع الصيت « سوذى »

« إن أبى لا يستطيع مغادرة البيت الآن . فقد ألزمه المرض فراشه . وثم اضطررت الى الخروج أستجدى الناس لعلى أحصل على بلْغة[1] من العيش »

* * *

ورأينا امرأة جالسة على صخرة تستريح . وعلى صدرها طفلة ، وفوق ظهرها أخرى ، فسألتها :

« وما الذى أخرجك فى هذه الريح العاتية ؟ »

فالتفتت إلى طفلها الذى كان من خلفها . وأمرته أن يكف عن صياحه . ثم قالت لنا :

« إن زوجى جندى طوّح به القدر إلى مكان قصىّ ، فلم أجد مندوحة عن الذهاب إلى الكنيسة متكففة »

* * *

وهنا التفتُ إلى صاحبى الغنى ـ الذى وقف حينئذ واجما ـ وقلت له لقد سألتنى : « مم يتألم الفقير »

وقد أجابك كل هؤلاء !

صحبة الكرام[2]

شقائق النعمان ضمت مرة	فى طاقة الزهر مع القرنفل
فاكتسبت فى لحظة من طيبه	ومن يصاحب ذا كمال يكمل

---

(١) مايتبلغ به من الزاد (٢) عن الفرنسية

فخر المجد (١)

أنا لازلت تلميذاً صغيراً ولكنى ـ على صغرى ـ مجد
أسير إلى العلا سيراً حثيثاً ، وأنشط ـ نحو غايتها ـ وأعدو
وليس يضيرنى صغرى ، إذا لم يثبطنى عن العلياء جهد
وما يغفنى التى طول وعرض ، إذا لم يغنه فهم ورشد
فليس يقاس إنسان بشبر ليعرف قدره ـ إن جد جد

***

ونبت القمح مرتفع قليلا ، ولكن ، هل له فى النفع حد ؟
هو القوت الذى نحيا جميعاً به . وهو الذى مامنه بد
وقد يعلو سنابله نبات ـ قليل النفع ـ يعجب حين يبدو
وكم عود من القصب اعتلاه وما هو ـ رفعة ـ للقمح ند
وفخر المرء علم يبتغيه ، وإخلاص يحليه ، وكد

***

وسوف أكون مثل القمح نفعا . وقدما أحرز السبق المجد
نعم ، وأحب فعل الخير جهدى وأسهر للعلا والمجد ، بعدُ
وتدرك همتى شرفا ومجداً وحسبى ـ غاية ـ شرف ومجد

---

(١) من كتاب محفوظات الأطفال ، وهى مترجمة عن الايطالية

اثر المصارحة (١)

السيد : هل لى أن أعرف منك ياجاك مايقوله الناس عنى ؟

جاك . نعم ياسيدى ، متى وثقت من أن ذلك لا يهتاجك بحال ما !

السيد : كلا ، لن يضايقنى أبداً

جاك : عافنى من هذا ، فإنى على يقين من أنه سيغضبك إغضاباً

السيد : لا ، لا ، أؤكد لك لا . . إنه على العكس من ذلك سيسرنى إذ أعرف مايقال عنى

جاك : إذا كانت تلك هى إرادتك فانى مصارحك القول ياسيدى :

« إن الناس ليسخرون منك فى كل مكان

« وإنهم ليقذفونك بمئات من النكات من كل صوب ، وليس أتم لسرورهم وأدعى لتفكههم من رواية الكثير من الملح والنوادر التى لا نهاية لها عن بخلك المزرى

« فبينما يروى عنك أحدهم أنك تعنى بطبع تقاويم خاصة تضاعف فيها أيام الصيام المفروضة لترغم عشراءك على عدم تناول طعام عندك فى خلالها

« إذ يحدث عنك آخر أنك على استعداد دائم لخلق شجار بينك و بين خدمك فى صبيحة اليوم الذى تطردهم فيه ، لتجد لك بذلك مندوحة لحرمانهم من أجورهم

« ويقص علينا ثالث أنك كسرت رجل قطة جارك لانها أكلت فُضَالَة فخذ شاتك

---

(١) حوار ممتنع بين سيد وحوذية ، وطرفة مختارة من رواية «البخيل» للكاتب الفرنسى الخالد « موليير »

ويقول عنك رابع : إنك تسللت ذات ليلة لتسرق علف خيلك ، ففاجأك حوذيك ـ الذى كان عندك قبلى ـ فضربك بهراوته فى الظلام ـــــ لا أدرى كم ضربة من الضربات التى تحملتها مؤثرا ألا تقول لأحد عنها شيئاً .

« وبعد أتريد أن أقرر لك أن الانسان لا يكاد يهتدى الى جهة واحدة يؤمها دون أن يسمع عنك ما تنوء بحمله من المثالب ؟

فأنت المثل السيء ، وأنت الأسطورة المضحكة التى يتلهى بها الناس ، وأنت من لا يتكلم عنه أحد دون أن ينعته بالشحيح ، الوغد ، البشع ، رمز الدنايا ! »

* * *

السيد ـ يضرب جاك مغضباً ـ : « إنك لأحمق ، خبيث ، مختبل العقل »

جاك : « لا بأس من ذلك ، ولكن ألم أتنبأ بهذه النتيجة من قبل ؟ على أنك لم تشأ أن تصدقنى حين أكدت اليك القول بأن تقرير الحقيقة لابد مهتاجك ! »

السيد : « تعلم كيف تقول ! »

فن الكتابة

أو كيف ندرس فن الانشاء (١)

اقتباس وترجمة

« ليست الصعوبة – التي تعترض الكاتب أو الشاعر – فى أن يكتب أو ينظم فى أي موضوع شاء ، بل الصعوبة كلها فى أن يقول ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع »

هكذا يقول بعض كتاب الانجليز وأساطين مدرسى الانشاء ، وقد استشهدنا بهذا القول فى مقدمة ديوان ابن الرومى حين عرضنا الكلام على دقته التى امتاز بها فى شعره . كما استشهدنا بقول الشاعر العربى :

«وفضانى فى القول والشعر أننى   أقول على علم ، وأعلم ما أعنى»

وهذه هى الغاية الجليلة التى يجب أن يفوّق اليها كل رام سهامه ويجعلها نصب عينيه وحفل أذنيه . وهى الغاية التى نريد أن نبين الطريق المؤدية اليها ، تاركين الكلام الى أساتيذ التربية وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم فى تدريس هذا الفن الجليل . ملخصين آراءهم حينا ومقتبسين بعض عباراتهم حينا آخر ، رغبة فى الاختصار الذى تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة ، وإلى القارىء خلاصة هذه الآراء :

تمهيد

أول ما نرمى اليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الانشاء خطة واضحة المحجة و نبين له منهجا يترسم خطاه ليصل الى غايته رأسا ، دون أن يضيع

(١) فصل مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان لم يطبع بعد .

وقته عبثا فى تمارين ، لا نقول : إنهـا عديمة الفائدة فحسب ، بل إنها ــ على الحقيقة ــ عائق يقف حجر عـثرة فى طريقة ويحول دون نجاحه فى الـكتابة الصحيحة التى ينشدها .

أما التمارين التى نعنيها بهـذا النقـد فهى تمارين الإعراب وتصريف الـكلمات وحـل الجمل حلا لفظيا لاطائل تحته ، فهذه ــ فى نظرنا ــ وسيلة عقيمة بيّنه الخطل محققة الفشل ، وهى كالمستنقع الضحضاح المملوء بالوحل ، لا يستطيع السالك أن يسبح فيه أو يمشى .

ولبعض المؤلفين ولع شديد بإرهاق النشء بما يـكدسه أمامهـم من القواعـد النظرية التى يحاول أن يقررها فى أذهانهم ويجعل منها ضابطا لا معدى للطالب عنه ولا مفر من اتباعه ؛ وليس ذلك من همنا فلنترك النظريات التى يستحيل اتباعها عمليا مولين وجهنا شطرا آخر . فنعمل على أن نثبت أقدامهم ونمكنهم من الـكتابة التى تجمع بين الرشاقة والقوة . وتـكون ــ الى ذلك ــ خالصة من الشوائب دقيقة التعبير حسنة الأداء

وللوصول الى هذا طريق عملية واحدة هى الاكثار من التمـارين الانشائية . الى حد قد يظنه البعض غير ضرورى أو يرى فيه إسرافا لاداعى اليه ــ إسرافا فى الجهود وإسرافا فى الزمن ــ ولـكن سلوك هذه الطريق الطويلة ضرورى لامناص منه . وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الأخرى ــ التى هى أقصر منها ــ خير منها .

ألا ترى الى طالب العود أو البيانو ؛ قـال لى بربك : كم عاما يقضى فى سبيل غايته ؛ وكم من الزمن يمر عليه حتى يصل الى درجة الإتقـان أو ــ على الاصح ــ حتى يدنو من درجة الإتقان ؛

وإذا كان ذلك كذلك ، فما بالك بمن يتطلع إلى إتقان الكتابة والتصرف في فنون القول ؟ ما بالك بمن تطمح نفسه الى مثل هذا المطلب الوعر ؟ وكم من السنين يجدر به أن يقضيها حتى يصل إلى غايته ؟ « ومن يخطب الحسناء لم يغلها مهر »

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان ويسمو بأسلوبه عن الركاكة واللبس والتعقيد وما إلى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة ، ويجمع — الى ذلك — ذوقا فنياً عالياً .

أضف الى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء ، إنما هو — على الحقيقة — يريد أن يتعلم كيف يفكر ، فهو فى بحثه عن الكلمة الصحيحة الفصيحة وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء الموفق التعبير ، يسلك كثيراً من شعاب القول وفنونه ويمر بمنعرجاته ومنعطفاته الكثيرة باحثا منقبا عن الفكرة المنشودة . متخيرا من بينها أمثل طريق ، وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب ويميز بين الحسن والأحسن ، وكلما سار فى هذه الطريق تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعانى ، وكان مثله كمثل « سول » ذلك الفتى الذى تحدثنا الأساطير ، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعيرانه فظفر بملك عظيم .

تمارين الانشاء

أما تمارين الانشاء فيجب ان تكون قصيرة ، وأنا ألح فى الرجاء أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الامر كل العناية وأن يجتنبوا دائما المقالات الطويلة بل أن يحرموها على طلبتهم بتاتا ، ذلك أنها منهكة لقواهم مضيعة لوقت المدرسين بلا طائل ، وهى — إلى ذلك — تعود الطلبة أن يجمحوا كثيراً ، وربما

تركوا جوهر الموضوع ـ كما يحدث ذلك أحيانا ـ وبعدوا عن أساسه ؛ وشر عيوب الكتابة الشطط .

أضف الى ذلك أن التطويل يعوّد الطالب الإهمال فى صوغ عباراته بدقة كما يعوده الإهمال فى تخير الألفاظ ؛ فلا ترى له إلا كتابة مفككة الأوصال ركيكة التعبير ؛ على حين أنه لو كتب موضوعا قصيراً لا يتجاوز عشرة أسطر ـ أحسن تنسيقها وعنى بأدائها خير أداء ـ لكان ذلك أجدى عليه وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب فى عشر صفحات قد رصفت فيه الكلمات رصفا ـ بلا روية ولا إحكام ـ ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب إلى الطريق التى يسلكها ثم يدع له وحده تخير الجمل وصقل الأسلوب .

أما الطالب فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعانى ما يلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه حتى يجيد أداءه

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الانشائية فى الفصل ـ أمام التلاميذ ـ فإن ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله . ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة فى نقط الموضوع وتبيان وجهات الخطأ والصواب فيه . فتتاح الطلبة فرصة الانتقاد والأخذ والرد والمناقشة ويمتلىء الدرس حياة ونشاطا ويتعود الطلبة الكلام والمحاجة منذ حداثتهم .

حوار شائق بين طالب ومدرس

طالب ناشىء يريد أن يصل إلى درجة عاليـة فى فن الإنشاء ويصبح قادراً على التعبير عن أغراضه بعبارة بليغـة وأسلوب دقيق ، وقد امتلأت نفسه بهذه الرغبة ـ التى تماكت عليه مشاعره ـ فلم يجد أمامه من يسترشد به فى معرفة الطريق التى يسلـكها للوصول إلى تحقيق غايته ، غـير أستاذه ؛ ولم يكد يوضح لأستاذه غرضه حتى دار بينهما الحوار التالى :

الطالب ـ : « أريد أن أصل الى درجة عالية فى الإنشاء وأن أصبح قادراً على الـكتابة بأسلوب بليغ وعبارة مختارة ، فما هى أقرب الطرق إلى ذلك ؟ »

المدرس ـ : « إن غايتك التى ترمى إليها غاية نبيلة ، ومطلبك الذى تسعى إلى تحقيقه مطلب سام جليل ، فليس أبهج للنفس من القدرة على أداء الأغراض والتعبير عن خوالج النفس بعبارة صحيحة بليغة ، وسترى من إحكام لغتنا العربيـة ووفرة أساليبها ودقة تعبيرها مايساعدك على إدراك طلبتك ، فلقد تكون لغتنا أغنى لغة فى العالم كله ! »

الطالب ـ : «ألا تنصح لى بقراءة شىء من الـكتب التى ألفت فى هذا الفن ؟ »

المدرس ـ : « كلا كلا ! لاحاجة بك إلى قراءة شىء من ذلك أبداً ، أو ـ على الأقل ـ لاحاجة بك فى هذه المرحلة الأولى التى تجتازها إلى قراءة تلك النظريات والقواعد البيانية والبلاغية وما إليها !

إن كل ماتحتاجـه الآن هو المرانة على الـكتابة والتعبير عن أغراضك بأسلوب عربى واضح ، ولك أن تمارس ذلك فى أى يوم تشاء أو فى كل يوم .

وأحب أن أقص عليك تلك الحـكاية المشهورة التى يروونها عن سيدة

فرنسية كانت مربية لأولاد «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا العظيم ، لترى فيها المثال الذى أريد أن أنبهك اليه . وخلاصة هذه القصة أن تلك المربية سألت ولداً من أبناء لويس الرابع عشر ـ هو الدوق دى مين ـ أن يكتب الى أبيه كتاباً . فقال لها مدهوشا ـ :

« أمثلى يستطيع ذلك وأنا لا أعرف كيف أخط جملة واحدة منه ؟ »

فقالت له المربية ـ : « ألست تفكر فى أبيك أحيانا ؟ »

فقال ـ : « أفكر فيه كثيرا ، وأحزن لغيبته الطويلة عنى أشد الحزن ! »

فقالت له ـ : « هذا حسن ! هذا حسن ! ! لتكتب له ذلك إذن ! ولكن خبرنى ، أهذا هو كل ماتفكر فيه ؟ ألا تشعر بشىء آخر ؟ »

فقال ـ : « نعم ؛ أود أن أراه وسأكون سعيداً جداً إذا عاد إلينا من سفره ! »

فقالت له ـ : « هاهو كتابك قد تم إنشاؤه ، ولم يبق عليك إلا أن تكتب له ذلك وتجعل له افتتاحاً وختاماً ؟ »

فقال لها متعجباً ـ : « ما كنت أحسب أن كتابة الرسائل بمثل هذه السهولة ! فقد كنت أتخيل أن من يريد كتابة رسالة جدير أن يملأها بألفاظ لغوية وجمل منمقة لايقدر على الإتيان بها إلا كبار البلغاء وأساطين الكتاب ! »

فقالت له ـ . « لاحاجة بك الى شىء من هذا ، وليس عليك إلا أن تكتب ماتشعر به بأسلوب واضح وكلمات سهلة بسيطة ! »

* * *

ولعلك تتبين من هذا المثال الخطة التى أريد أن أرسمها لك لتنتهجها

فى فن الانشاء ؟ »

الطالب — : « ومارأى سيدى الأستاذ فى القواعد النحوية والتمارين الصرفية وماإلى ذلك ، ألست مضطراً الى معرفتها لمراعاتها أثناء الكتابة؟ »

المدرس — : « كلا ، لست فى حاجة الى ذلك كله . فستعرف الشىء الكثير منها أثناء الطريق . وأنت — إذا ملأت ذهنك بتلك القواعد فى هذه المرحلة وشغلت نفسك بها — كان مثالك كمثل من يود أن يتعلم المبارزة فيذهب الى قاعة التمرين حيث يقلدونه حساماً فيترك العناية بما جاء لأجله من التدريب إلى الاشتغال بالنظر الى حسامه وكيفية وضعه ، وربما عثر به أثناء التفكير فيه .

يجب أن ينصرف عقلك — أثناء الكتابة — الى الموضوع الذى تكتبه وألا يبقى فى ذهنك أى فراغ للتفكير فى قواعد النحو والصرف والبيان حتى لا يشغلك ذلك عن متابعة المعنى وتقصيه وتخير الأسلوب الملائم الذى يؤديه أحسن أداء »

الطالب — . « ولكننى — إذا فعلت ذلك — وقعت فى أغلاط لغوية ونحوية ! »

المدرس — : « قد يكون هذا ، ولكنك — بلا شك — ستقرأ موضوعك بعد أن تتم كتابته ، وهذه فرصة حسنة نعنى فيها بتصحيح ماوقعت فيه من الأخطاء ! أماوقت الكتابة فيجب أن ينصرف عقلك إلى التفكير فى الموضوع الذى نتصدى للكتابة فيه ! »

الطالب — : « ومارأى سيدى الأستاذ فى تمارين الاعراب والتطبيق — وماإلى ذلك — أليست تساعدنى على التفوق على أقرانى فى الإنشاء ؟ ألا ترى

فيها مرشداً لى ؟ »

المدرس — : « بل أرى فيها شر مرشد ياولدى ، وبجدر بى أن أوضح لك ماأعنيه فى هذه النقطة الدقيقة ، وأن أجلّى لك وهما يقع فيه كثير من أقرانك :

إن فائدة هذه التمارين — الخاصة بالإعراب والتطبيق ونحو ذلك — تنحصر فى شىء واحد . هو تدريب عقلك على تعرف سر تركيب الجمل وموقع الفاعل والمفعول من الجملة . الخ

ولكن الانشاء شىء آخر غير هذا كله ، شىء يخالف ذلك كل المخالفة ، وأوجز ماأقوله لك إن عملك فى الإنشاء هو عكس عملك فى الإعراب وتطبيق القواعد النحوية الخ .

ربما خطر ببالك أن التفوق فى النحو — الذى يكسبك خبرة صحيحة بمواقع الكلمات من الجمل — سيكسبك نفس هذه الخبرة فى إنشاء موضوع مّا . وهذا وهم يكذبه الواقع وتنقضه التجربة . فليست هذه القواعد عديمة الجدوى فى تفوقك فى الإنشاء فحسب . بل هى — إلى ذلك — أكبر عقبة تعترض سبيلك وتعوقك عن التقدم فى هذا الفن والنجاح فيه .

وماظنك برجل يريد أن يعلمك المشى مثلا ، فلا يحفل بتدريبك عليه . بل يدع ذلك جانبا ؛ ويبدأ بتعريفك كل دقيقة وجليلة من عضل الساق وسر تركيبها وعمل كل منها أثناء السير وتوقف تحريك تلك العضلة على تحريك هذه . إلى آخر ذلك البحث المضنى الشاق الذى لايعنى به إلا المختصون من الأطباء بدراسة التشريح .

إنك تستطيع أن تدرك — بأدنى تأمل — أنك فى غير حاجة إلى تفهم كل

هذه المباحث العويصة وأنك في حاجة إلى التمرين - قبل كل شيء - وأن التدريب وحده هو خير الطرق لتعويدك المشي ، وحسبك إذا شئت - أن تعرف أسماء العضل الرئيسي في الساق تاركا بقية التفاصيل إلى الأطباء المختصين .

ولقد تعلم الناس المشي - منذ آلاف السنين - قبل أن يعرفوا أسماء هذه العضل ، ولم يكلفهم ذلك أكثر من محاكاة غيرهم وتقليدهم في ذلك.

واعلم ياولدي أن المشي والكلام والكتابة غاية في اليسر ، وأن كلا من هذه الأشياء الثلاثة لا يكتسب بغير المرانة . وأن على هذه المرانة وحدها يتوقف سر النجاح فيها جميعاً .

إن في هذه الكتب - التي يضعها مؤلفوها لتعليم الانشاء - كثيراً من العجائب إن لم أقل السخافات ، مثال ذلك :

اكتب ثلاث جمل في كل منها فعل يتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة مفاعيل أو نحو ذلك ، أنشيء ست جمل مبتدأة أولاها بحرف ألف وثانيتها بحرف باء الخ .

هذا نظام غير طبيعي وهو نوع من التمارين الانشائية المتكلفة التي لا تنطبق على حاجتنا في أداء أغراضنا ومعانينا في الحياة العملية ، فإن أول شرط في الكتابة أن تكون طبيعية كالكلام والمشي ، ولا جرم أن الانسان - إذا تكلم أو كتب - لا يُعنى بأمثال هذه السفاسف ، وهو لا يتكلم - أو يكتب - إلا معبراً عما يدور بخلده من المعاني والأغراض ، ومن ثم تواتيه الكلمات والجمل - عفو الخاطر - حتى يتم موضوعه دون أن يحفل مطلقاً بجعل هذه الجملة قصيرة أو طويلة ، فيها أفعال تتعدى الى مفعول واحد أو ثلاثة مفاعيل ، مبتدأة بحرف جيم أو حرف زاي ، الى آخر هذه الصغائر !

وموجز القول أن الإعراب والإنشاء متعارضان كل التعارض وأن

نظام هذا وطبيعته مناقضة كل المناقضة لنظام ذلك وطبيعته .

فعمل الإعراب هو تفكيك الجملة ـ بعد أن وجدت ـ وعمل الإنشاء هو خلق تلك الجملة قبل أن توجد . هذا يفهمك مواقع الكلمات ووظيفتها فيفكك أوصال الجمل الوصول الى غرضك ، وذلك يعلمك كيف تنشئ الجمل إنشاء من العدم لتؤدى المعانى المطلوب أداؤها منك . هذا هدم وذاك بناء . أو ـ بعبارة أخرى ـ هذا يمثل الفناء وذاك يمثل الخلق .

واعلم أنك ـ إذا عنيت بالنحو والإعراب وما اليهما وشغلت نفسك بمراعاة مواقع الفاعل والمفعول ونحو ذلك من كل جملة أثناء الكتابة ـ التوى عليك القصد وفسد المعنى وجاءت كتابتك آية من من آيات المسخ والتكلف والتشويه ، ووقفت تلك القواعد ـ التى تحسبها معينة لك ـ عقبة كأداء فى سبيل نجاحك وتفوقك فى الإنشاء . »

الطالب : « شد ما أدهشتنى ياسيدى الأستاذ ! لقد كنت ـ إلى هذه اللحظة ـ أرى فى قواعد النحو والصرف أكبر معين لى على إدراك طلبتى ! »

المدرس : « إنك إذا أتقنت النحو والصرف وصلت الى نتيجة أخرى ، وهى تعرّف صحة الجمل وتمييز الخطأ والصواب فيما تقرأه من الكلام . ولكن هذا كله لايفيدك فى تنظيم أغراضك ولايعدل من طريقة تفكيرك وكتابتك ؛ بل أنا أقول لك : إن انشغال بالك بالنحو والصرف وانصرافك إلى التفكير فيهما ـ أثناء الكتابة ـ قد يضرانك أشد الضرر ، وربما جعلاك حذرا خائفاً تتوقع الخطأ فى كل جملة تكتبها أو تقولها . »

الطالب : ـ « إذن يجدر بى أن ألقى بكتب النحو والصرف . وأن أركن إلى نفسى مادمت فى غير حاجة اليها ! »

المدرس : « إنك — إن فعلت ذلك — ارتكبت أشنع الخطأ ، فان لهذه الكتب فائدة كبيرة ، وحاجتك إليها شديدة — على شرط أن تستعملها في مكانها ووقتها الملائمين — . ولكن هذه الكتب — بعد ذلك — لا تجدى فى الإنشاء ، ولا علاقة لها بضعفك أو تفوقك فى هذا الفن ، لأن النحو شىء والإنشاء شىء آخر ! »

***

الطالب —« فبماذا إذن أسترشد وبأى دليل أهتدى للوصول إلى غايتى فى فن الانشاء ؟ »

المدرس « ليس لك إلا مرشد واحد ، هو انتهاج طريق الكتاب الممتازين والإكثار من مطالعة كتاباتهم ، وتفهم أساليبهم الرصين وعباراتهم الرشيقة. أمامك رجال الفكر العربى وأساطين الكتاب الممتازين — فى مختلف العصور — فاقرأ كلامهم واستوعب كتاباتهم فإنك بذلك واصل الى بغيتك »

الطالب : « ألا يتفضل سيدى الأستاذ بذكر نخبة يختارها لى من أقوال الكتاب الذين يعنيهم ؟ »

المدرس — « إنهم كثيرون وإنى أذكر لك من هؤلاء الكتاب — على سبيل المثال — ابن المقفع وأبا الفرج الاصبهانى وعلى بن عبد العزيز الجرجانى وعبد الحميد كما أذكر لك خطب الحجاج وزياد ، وأحب ألا تفوتك تلك المحاورات الشائقة التى دارت بين على بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، ولا تلك المراسلات المعجبة التى دارت بين على ومعاوية ، فإن أمثال هذه الكتابات آية من آيات الدقة والاحكام ونموذج عال من نماذج الإبداع والافتنان !

ولا تنس قراءة كلام النابغين من كتاب عصرك الذين امتازوا بتوخى الدقة وحسن الأداء ومتانة الأسلوب . هذا إذا أردت التفوق فى الكتابة العربية ،

فإذا وليت وجهك شطر الأدب الانجليزى وأردت التفوق فى الكتابة بالانجليزية ، فاقرأ من نوابغهم أمثال « ماكولى » و « فرود » و « كنج ليك »

وجماع القول أن الوسيلة الوحيدة للتفوق فى الكتابة بأية لغة — أجنبية كانت أو قومية — هى الاطلاع الدائم على كتابة بلغاء تلك اللغة وقادة الفكر والبيان فيها ؛ ومحاكاة كتاباتهم بكل وسيلة ممكنة ! »

الطالب — : « وكيف أستطيع محاكاتهم فى كتابتهم ؟ »

المدرس : « أما طريقة المحاكاة فسهلة هينة وهى — :

إذا عثرت على قطعة مختارة لمثل هؤلاء الكتاب الأفذاذ الذين ذكرتهم لك — مما يثير إعجابك — فاقرأها متأنيا فاحصا ، واكتب فى ورقة بيضاء أهم نقطها الجوهرية . ثم اترك القطعة التى قرأتها والورقة التى كتبتها — يوما أو يومين — ثم عد إلى ورقتك التى كتبتها مسترشداً بها فى كتابة الموضوع من جديد — مفرغا قصارى جهدك فى تقليد عبارة الكاتب وأسلوبه .

ومتى انتهيت من ذلك فارجع الى أصل المقال وقارن بينه وبين ما كتبت ، وأصلح كل ما وقعت فيه من خطأ أو إهمال مما يؤدى الى اختلاف فى الأداء لا يتفق مع الدقة والاحكام اللذين رأيتهما فى الأصل .

عوّد نفسك ذلك التمرين مرتين أو ثلاثا فى كل أسبوع ، فإنك قادر على الكتابة — بعد قليل من الزمن — بأسلوب رائع ! »

الطالب : « ولكنى — إن فعلت ذلك — كنت مقلدا ، وقد أجمع المفكرون على أن التقليد شر لا خير فيه ولا فائدة ترجى منه إلا الإملال . ولا شك أن المنقول أقل روعة وبهاء من النموذج ! »

الأستاذ: «لاريب أن الفن قائم على الابتكار وأن التقليد فيه لايكون إلا شراً، لأن كل صورة - مهما كانت جميلة - هى أقل بهاء وروعة من النموذج الذى أخذت عنه ولكن الناشئ الذى يتعلم ليس أمامه إلا طريق واحدة للوصول إلى غرضه وهى أن يجعل همه الأول تقليد أساتيذ الفن الذى يتعلمه.

وهذه هى نفس الطريق التى سلكها «ستيفنسن» حين شرع يتعلم الكتابة - وستيفنسن - كما يعرفه قراء الانجليزية - منقطع النظير بين الكتاب الحديثين، وقلما داناه كاتب من كتاب الانجليز فى جمال أسلوبه ودقة عبارته وروعة بيانه.

وقد كان فى أيام الدرس والتحصيل - وهو فى جامعة «أدنبرج» - يقلد كتابة «ما كولى» شهراً، ويسلك فى تقليده تلك الطريقة التى شرحتها لك، ثم يدع «ما كولى» - بعد ذلك - ويأخذ فى تقليد كتابة «فرود» شهراً آخر وهكذا، ولم يترك كاتباً من المشهورين إلا قلده، حتى «كارليل» وأضرابه.

ولقد أدرك - بهذه الطريقة - التى كان يسميها «طريقة المواظبة على التقليد» كل مايبغيه فى فن الكتابة، وقرر - فى صراحة وجلاء - أن لهذه الطريقة عليه أكبر فضل، وقد عزا إليها كل مافى أسلوبه من قوة ورصانة وميزات باهرة لاتزال موضع إعجاب قارئيه إلى اليوم.

كذلك كان «فيكتور هيجو» يقلد فى أول نشأته «شاتوبريان» الكاتب الفرنسى العظيم، حتى كتب على مقعده فى الفصل - وهو طالب -: «أريد أن أكون «شاتوبريان» آخر!»

وليس التقليد عيباً فى المرحلة الأولى من التعليم فإن لكل طالب أستاذاً يراه الطالب محل إعجابه كما يراه نموذجاً جديراً بالتقليد والمحاكاة. ولقد كان

أبو نواس فى صباه يعجب بوالبة بن الحباب ، كما كان البحترى يعجب بأبى تمام ويقلده فى صغره ، وقلد أبو العلاء المتنبى فى حداثته أيضاً .

فإذا شئت أن تتعرف منى الوسيلة الوحيدة التى تبلغ بها مأربك فى فن الانشاء فليس لى ما أقوله لك إلا هذه الكلمة :

« التقليد ! التقليد ! التقليد ! »

أفهمت الآن ياولدى ؟ عليك بالتقليد وأنا الزعيم لك بأنك واصل الى ماتريد . »

الطالب — وقد بدت على وجهه دلائل الارتباك — : « إذن فما فائدة كل هذه الكتب المؤلفة فى فن الانشاء ؟ وما فائدة الكتاب الذى ألفته أنت فى فن الإنشاء ؟ أأتبع هذا الكتاب أم أتبع البلغاء من الكتاب الممتازين الذين ذكرتهم لى الآن ؟ »

الأستاذ — : « لقد أحسنت ياولدى فى هذا السؤال ويجدر بى أن أصارحك القول ، وأن لا أكتمك شيئاً . فإننى أرى وأنا على يقين مما أراه أنك — إذا استطعت أن تسلك الخطة التى شرحتها لك وأوصيتك باتباعها — ثم ثابرت عليها دائباً ، كان ذلك — بلاريب — أنفع لك من كل ما كتبه المؤلفون من الكتب فى فن الإنشاء الى اليوم .

بل أنا أقرر لك ماهو أغرب من ذلك . فإننى أعتقد أن المعلم — فى المرحلة الأولى التى تبدأ فيها قدرة الطفل على الكتابة — إذا عنى بتمرين طفله على كتابة جملتين اثنتين فى كل يوم ، إحداهما مما يذكره من الدرس الذى طالعه ، والأخرى مما رآه أو عمله فى يومه من الأعمال . أقول لك واثقاً إن المعلم — لو سلك مع الطفل هذه الطريق — لم يلبث الطفل أن يصبح قادراً على الكتابة بطبعه دون تكلف ، وتصبح الكتابة عنده

طبيعية كالكلام ـ سواء بسواء ! ـ ومن ثم لايصبح الانشاء فناً كما يريد الأساتيذ أن يمثلوه ، بل يصبح طبيعة أخرى كطبيعة الأكل والتنفس والجرى ، فيكتب الطالب كما يتكلم ويأكل ويتنفس ويجرى سواء بسواء ! »

* * *

الطالب ـ كل ماتقوله حسن ياسيدى الأستاذ . فما فائدة هذا الكتاب الذى ألفته فى فن الانشاء ؟

الأستاذ ـ أردت بذلك أن أسد الفراغ الذى يشعر به طالب ناشىء مرّ بهذا الدور من التعليم ورأى عقم الطريقة التى يسلكونها معه للوصول الى الدرجة العالية التى ينشدها فى فن الانشاء .

أردت ـ بهذا الكتاب ـ أن أضع للطلاب كتاباً يعلمهم الإنشاء بأسلوب جديد فى التربية ، يخالف ذلك الأسلوب العقيم الذى ألفه مدرسو الإنشاء ومؤلفو الكتب فى هذا الفن .

أردت أن أسلك بالناشىء منهجاً مجديا نافعا . فلم أملأ رأسه بالقواعد النحوية والصرفية والبيانية وما إلى ذلك من الفنون التى لاتجديه فى التفوق فى الإنشاء ولاتغنيه أى غناء !

فإذا أردت أن تتعرف فائدة هذا الكتاب ، فليس لى ماأقوله لك أكثر من أنه كتاب جمعت فيه عدداً كبيراً من التمارين المختلفة لتدريب الطالب على الكتابة ـ أو بعبارة أدنى الى فهمك ـ انى هيأت فى هذا الكتاب المواد التى لاغناء لمن يريد الكتابة عنها . كما تهيأ مواد البناء الأولية لمن يراه الطالب محل لابد من التمرين لمن يريد أن يتعلم هـذا الفن . كما لابد من

وليس

الأحجار والملاط وما إلى ذلك لمن يريد بناء بيت .

لهذا عنيت بالتمرين كل العناية ، وأكثرت منه كل الإكثار !

فليس لمدرس الانشاء بد من أن يدرب تلاميذه على خلق الجمل مرة وتحويرها مرة أخرى . وهذا مافعلته ، وقد عنيت بالإكثار من التمارين على استعمال الكلمات فى مواضعها الحقة وبمعناها الصحيح ، وفى هذا تدريب على تنظيم التفكير عند الناشىء أيضاً

وقد بذلت وسعى فى تعويد الطالب الدقة فى الأداء ، وتدريبه على نثر الشعر ، الى آخر هذه التمارين النافعة ! »

الطالب — : « نثر الشعر ! ماذا تعنيه بهذه الكلمة ياسيدى الأستاذ ؟

إنى بحاجة الى كثير من الإيضاح . فقد كنت — ومازلت — أسمع أن هذا النوع من التمارين قليل الخطر ، إن لم أقل إنه عقيم لافائدة منه بتاتاً ! »

الأستاذ : « هذا رأى خاطىء ، فليست تلك التمارين بمثل هذا الحد الذى يصفونها به من العقم . وليست تخلو من فائدة للطالب ! »

الطالب : « وأية فائدة يجنيها الطالب من مثل هذه المحاولات ؟ »

الأستاذ — : « إنها تعينه على ادخار محصول لغوى وفير ، من المفردات والجمل معاً ؛ ولولاها لتضاءل محصوله واضمحل وربما تلاشى . وهذه التمارين تعين الناشىء على استعمال مافى رأسه من الكلمات واجترارها اجتراراً

واعلم أن المرانة والتطبيق والعمل ، يتوقف عليها وحدها كل شروط الحياة ، ولاسبيل الى تنمية ثروة مهملة ، إلا أن تستعملها . ولن نزيد ماتملكه إلا اذا استعملناه ، وإلا تلاشى تلاشيا !

ولقد قالوا فى أمثالهم : « الحاجة تفتق الحيلة »

وقالوا : « كلما اشتدت الحاجة كان ذلك داعياً للاضطلاع بجلائل الأعمال ! »

الطالب : « ولكن ألا ترى ياسيدى الأستاذ أن من الخطل - إن لم أقل من الحماقة - أن نستبدل شعراً جميلا بنثر ردىء ، وأن نحول نظماً رائعا إلى كلام منثور ركيك ؟ وماذا تقول فيمن يعمد إلى مقطوعة نظمية لمؤلف كبير خبير بدقائق المعانى ومرامى الأسلوب وقوة الصياغة وتخير العبارة ، فيمسخها مسخاً ويشوهها تشويهاً ، ويحيلها الى كلام سخيف مفكك الأسلوب ضعيف المعنى ؟ »

الأستاذ - « الحق معك فى هذه النقطة وحدها ، ولكن فائدة هذا العمل - رغم ذلك - لايستطيع منصف أن يغفلها : »

الطالب - « أية فائدة نجنيها من المسخ والتشويه ؟ »

الأستاذ « إنك - حين تتصدى لحل الشعر - إنما تبرهن لأستاذك - ولنفسك أيضا - أنك قد فهمت معنى القصيدة أو المقطوعة فهما ، واستوعبتها استيعاباً .

هذا إلى أنك تنمى بذلك محصولك اللغوى وتمرن نفسك على استعمال كلمات جديدة فيزيد بذلك محصولك اللغوى أيضاً . »

الطالب « هذا حق ، ولكنى أسمع أن فى هذه الطريقة عيوباً ومآخذ يجب أن يتجنبها الطالب ! »

الأستاذ « لاجرم أن هناك كثيراً من العيوب . فإن لكل طريقة عيوبا ومحاسن . على أن أكبر عيب فى هذه الطريقة يقع فيه الطالب ويجدر به أن يبذل كل مافى وسعه لتلافيه . هو ما يسمونه « الحرفية »

فالحرفية شر يجب تجنبه والفرار منه ، لأنها تسيء إلى صاحبها أبلغ إساءة، ومتى سلكها فى حل الشعر، لم يجئ نثره عادياً معقولا، بل يصبح مشوهاً سخيفاً مفكك الأسلوب ضعيف الأداء . ذلك أن الحرفية تبعد الطالب عن التشبع بروح الأصل وتجعله يعنى بالقشور - دون اللباب - ومن ثم لا نرى إلا جملا ركيكة لا تؤدى معنى واضحاً ، ولا شك أن التزام الحرفية - الذى يلجأ إليه الطالب حاسباً أنه يوصله إلى أبعد غايات الدقة - لا ينتج عنه دائماً إلا ضياع المعنى وتشويه العبارة وفقدان الدقة المنشودة . »

الطالب - : « وكيف نتقى خطر الحرفية »

الأستاذ - : « يجب أن يكون النثر معبراً عن الأصل الشعرى - كما تعبر الترجمة عن روح الأصل - فإذا أردت حل الشعر ، وجب عليك أن تستوعب القطعة وتملأ بها شعاب نفسك ثم تبدأ فى نثرها بما يلائم روحها

فشعر « ملتون » مثلا يجب ألا تنثره إلا فى أسلوب يلائمه ويتناسب مع رصانته وجزالته .

وإذا نثرت شعر « تنيسون » وجب عليك أن تراعى فى ذلك نبل اللغة مع جمال الموسيقية الذى فى الأصل . »

الطالب - : « وكيف أصل الى هذه الغاية ؟ »

الأستاذ - « أول ما يجدر بك أن تفعله للوصول إلى هذه الغاية هو أن تقرأ الأصل قراءة متفهم مستوعب ، لتتشبع بروحه . وأن تقرأه - مرة أو مرتين بصوت عال - قراءة من يحس ويشعر ويتأثر بمعانيه و يتذوق جماله بكل ما فى نفسه من إحساس وشعور وذوق !

فإذا تم لك ذلك وجب عليك أن تحصر - فى ذاكرتك - الفكرة الجوهرية

التي تنتظم القصيدة ـ أو المقطوعة ـ فإذا انتهيت من ذلك وضعته في الأسلوب الذي تجده ماثلا في ذهنك مما يواتيك من بيان ؛ »

الطالب ـ « ولكن ألا ترى بدا من أن نكتب بأسلوب جميل ؟ »

الأستاذ ـ : « لا بد من ذلك يا ولدي . ويجب عليك أن تبذل كل ما أوتيت من قوة وجهد في تحسين الأسلوب وتجميل العبارة . حتى تتناسب مع جمال الأصل . كما يجدر بأسلوبك أن يجمع بين الوضوح والرشاقة والجمال . بحيث يعجب به كل من لم يطلع على الأصل !

وعليك أن تتجنب في نثرك العبارات الشعرية والكلمات والجمل والأساليب التي اختص بها الشعر وحده . فإن للشعر لغة وخصائص كثيرا ما تخالف لغة النثر وخصائصه .

ورب كلمة ـ هي في قافية قصيدة آية من آيات الجمال والموسيقية ـ إذا وضعت في جملة نثرية كانت آية من آيات فساد الذوق وضعف الأسلوب ! »

الطالب ـ « فما هو الغرض الأول الذي نجعله نصب أعيننا . حين نتعلم الإنشاء ؟ وما هي الغاية الحقيقية التي نتطلع إليها من دراسة هذا الفن ؟ »

الأستاذ ـ « يجب أن ترمي إلى أمرين . إلى أمرين فقط . الوضوح وحسن الصياغة ! وهذان الغرضان من اليسير على أي طالب . ذي كفاية متوسط أن يصل إليهما . إذا عني بهما عناية خاصة ومرن نفسه على بلوغ هذه الغاية !

فإذا كنت ممن وهبه الله بلاغة . وقدرة على الافتنان في الأسلوب . والتصرف بفنون القول ، نلت أعلى منزلة في الكتابة . على أنك ـ إذا لم يساعدك طبعك ـ وأردت أن تكون رشيق التعبير رائع البيان . فلن تصل إلى تلك المنزلة مهما بذلت من جهد في الدرس والتحصيل ! »

الطالب — : « ولكن من المؤكد أن فى استطاعة كل إنسان أن يكتب بوضوح وأن يكون أداؤه حسناً ، فقد يظهر أن ذلك طبيعى جداً ؟ »

الأستاذ — : « ليس من السهولة بحيث تظن ياولدى ؛ فليس من الهين أن يكتب الإنسان كتابة واضحة حسنة الأداء .

لقد أصبح عصرنا حافلا بالكتب والصحف والمجلات وأصبح إقبال المتعلمين على القراءة يفوق كل وصف ، وكثيراً ما تزدحم أذهان الشباب بما قرأوه — مما لم يستوعبوه جيداً — فإذا حاول أحدهم أن يؤدى لك فكرة أداها مضطربة مشوشة لا سبيل إلى أن تفهمها لأنه هو نفسه لم يفهمها حق الفهم ! ؛ وليس لهذا من دواء إلا أن يعنى الناشئ بتفهم مايقرأه واستيعابه . حتى لا تزدحم فى ذهنه صور شتى من المعانى مضطربة متناقضة ! والخير للانسان أن يقرأ كتابا واحدا وأن يفهمه حق الفهم ، من أن يقرأ ألف كتاب قراءة عجلى لا تمكنه من استيعاب شئ مما قرأ .

واعلم أن القراءة — كالغذاء — يجب أن يلائم صاحبه وأن لا يزيد عن حاجة معدته ، وإلا أصبح شرا عليه !

على أنى لا أريد أن أختم نصيحتى إليك . دون أن أشير إلى طريق سهلة تصل بها — إذا سلكتها — إلى الدقة . وتكون لك خير مرانة على الكتابة . وهى الترجمة إن كنت تعرف لغة أجنبية . »

الطالب — « كيف تشير على بالترجمة ، وقد سمعت الكثيرين يعيبون هذه الطريقة ويقررون — تقرير المستيقن الجازم — أن الترجمة تضر أكثر مما تنفع . وأن خير الطرق لتعلم لغة هو تعلمها رأسا من غير وساطة الترجمة ! »

الأستاذ — : « لأنصار هذا المذهب كل الحق فيما يقولون ؛ وأنا أدين بهذا

الرأى أيضا . ويخيل إلى أنك لم تفهمه على وجهه الصحيح !

إن الترجمة لا تنفعك ـ بل تضرك ـ إذا حاولت أن تتعلم لغة أجنبية عن طريقها ، لأنك تضطر إلى اصطناع أساليب لغتك التى ألفتها فيما تترجمه . فتفسد بذلك كتابتك !

وعلى العكس من ذلك . إذا أردت أن تترجم من لغة أجنبية إلى لغتك العربية فإنك تكتسب بذلك فوائد جمة . متى ابتعدت عن خطر الترجمة الحرفية!

وإنى أوجز لك فوائد الترجمة فيما يلى :

(١) أنها تطلعك على معان جديدة وطرق فى الأداء جديدة .

(٢) أنها تدربك على البحث عما يؤدى هذه المعانى من العبارات التى تلائمها .

(٣) أنها تعودك الدقة والإحكام فى التعبير .

وحسبك بهذه الفوائد مغريا لك ومنشطاً . ولا تنس أن الترجمة إلى لغتك القومية . تشبه ـ من وجوه كثيرة ـ الطريقة التى اقترحتها عليك من قبل . وهى طريقة حل الشعر . كما أنها تشبه ما طلبته إليك . من صوغ ما تقرأه من كلام البلغاء الممتازين فى لغتك . فى أسلوب يتناسب مع جماله ودقته وحسن أدائه ! »

الطالب ـ : « ألا يتفضل على سيدى الأستاذ بإرشادى إلى قطعة بعينها من كلام البلغاء . أتخذها نموذجا أحتذيه وأنسج على منواله ؟ »

الأستاذ — : « حاول جهدك أن تقلد القطعة التالية مثلا — بعد أن تستوعبها قراءة وفهماً ـ وهى لأشهر كتاب العربية « ابن المقفع » ويجدر بك أن تتبع فى محاكاتها الطريقة التى أسلفت لك شرحها . وإليك القطعة المنثورة : ـ

« زعموا أن ناسكا كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر فى كل يوم

رزق من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقى ، ويجعله فى جرة فيعاقها فى وتد فى ناحية البيت حتى امتلأت : فبينما الناسك ذات يوم ـ مستلقياً على ظهره والعكازة فى يده والجرة معلقة على رأسه ـ تفكر فى غلاء السمن والعسل فقال :

« سأبيع مافى هذه الجرة بدينار وأشترى به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن فى كل خمسة أشهر بطنا ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة إذا ولدت أولادها »

ثم حرر على هذا النحو بسنين . فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز ، فقال :

« أنا أشترى بها مائة من البقر ، بكل أربعة أعنز ثورا أو بقرة ؛ وأشترى أرضا وبذورا . وأستأجر أكرة[1] وأزرع على الثيران وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها . فلا يأتى على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا . فأبنى بيتاً فاخراً وأشترى إماء وعبيداً . وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن . ثم تأتى بغلام سرى نجيب فأختار له أحسن الأسماء . فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه فى ذلك . فإن يقبل منى . وإلا ضربته بهذه العكازة . »

وأشار بيده إلى الجرة فكسرها . فسال ما كان فيها على وجهه !

---

(١) حراثين (جمع أكار)

في العام السادس (١)



كنت في العام الذى ولى صغيرا   غير أنى أقرأ الآن الكتابا
وأجيد العد لا أخطئ فيه   وكذا أكتب مايملى صوابا

***

كنت لا أجلس في الغالب إلا   ضاحك السن على ركبة أمى
كنت في خامس أعوامى فلما   صرت في السادس زاد الآن علمى

***

أذهب اليوم إلى مدرستى   حافظاً درسى في كل نهار
في يسارى جعبتى شاهدة   أننى صرت كبيرا ذا اعتبار

***

حينما ينطق أستاذى أصغى ،   واعياً ما قال ، لا مفرطاً
وهو مسرور بجدي ، إذ أراه   دائماً يبسم لى مغتبطاً !

---

(١) من كتاب « محفوظات الأطفال » وهذه المقطوعة مترجمة عن الفرنسية

جحيم دانتى (١)

وقصة « الكوميديا الالهية »

لايزال « جحيم دانتى » معدودا أكبر قصة ذات حوادث رائعة فى الدنيا ، ولكن قليلا من الناس قدقرأه رغم ذلك . ولئن كان كثير من شعره صعب الفهم غيرمحبب إلىالقارئ العصرى أن يستمر فى قراءته ويشارك دانتى فى رحلته الطويلة حيث جاس خلال الجحيم ، فهو — مع ذلك — خيال رائع التورية والكناية لايتخلف إذا قيس خياله القوى الى خيال شكسبير وملتن الذى اشتهرا به فى أشعارهما .

وظاهر الكوميديا الالهية وصف للجنة والنار والمطهر . وباطنها تصور حال الأرواح بعد الموت ، مورّية بذلك ومكنّية عن حاجة الانسان إلى قبس روحانى ومرشد يكون له هاديا .

وقبل أن نبدأ السير مع دانتى فى طريقه ونجوس معه أنحاء الجحيم وأرجاءها ، يجدر بنا أن نذكر أن « جحيم دانتى » ظل ماثلا — فى أذهان من قرأوه — مشرقا بالحياة رائع الحقيقة واضح الصور بيّن التقاسيم شأن أمثاله من الأسفار الخالدة : « كقصة روبنصن كروزو » و « رحلات جلفر » . كذلك تتمثل مناظر الجحيم الرائعة صورا مكتملة . وتظل خالدة فى النفس ماثلة فى الذهن ، باقية بقاء المناظر الآخذة بالنفس التى يراها الانسان فلا ينساها ماعاش . إذا نسى كل شىء سواها .

ولقد رسم لنا « دانتى » جحيمه على صورة هاوية عميقة هائلة . تشبه

---

(١) مقال ملخص عن الانجليزية

مخروطا مقلوبا يلتقى بالأرض فى منتصفها ثم ينقسم فى جانبيه عدة أقسام — طبقات بعضها فوق بعض — تضيق سعة بالطبع كلما هبط الإنسان من درك إلى درك. وكلما ازدادت شناعة الجرم سفل مكان الخاطئ فيها !

مدينة الويل

يبدأ الكتاب بذكر « دانتى » كيف ضل طريقه فى غابة مظلمة موحشة. وكيف التقى بفرجيل الذى وعده بزيارة الجحيم والاطلاع على ما فيها من نكال. وكيف سار على أثر فرجيل حتى بلغا باب الجحيم. حيث قرأا عليه :

« أيها الداخل الجحيم ستلقى كل يأس هنا وتنسى الرجاء »

ثم دخلا من الباب معا فرأيا مكتوبا عليه :

« سترى. زائرى ! مدائن ويل سترى . زائرى العذاب المخلد
سترى الأشقياء ماذا يعانو ن من الويل والنكال السرمد
قد أعد الإله نارى لعاص لم يطعه. وكان بالأمس يجحد
أيها الزائرون عندى لكم يأ س . يخيب الرجاء منه ويفقد »

ولا يكاد الداخل يعدو الباب حتى يلقاه سهل فسيح قاتم الأعماق. يسمى ردهة الجحيم. حيث تطيف به أرواح الأنانيين والكسالى والمزهوّين تلسبها النحل والزنابير الكبيرة. وهى هائمة تجرى أبداً خلف علم خفاق

هنا تنهدات وانتحابات. وتأوهات عالية. صاعدة فى أجواز الفضاء الموحش الذى لا نجم فيه. حتى ابكيتُ حين دخلت. آلام وفزع من كل جهة وبكل لسان وصرخات مزعجة منبعثة من الألم. وصيحات غضب وأصوات مختنقة مبحوحة صادرة من أعماق القلوب. وأيد ملوّحة تعبر عما

أصاب أصحابها من ويل وثبور . وظلام شامل يخيم على جميع الأرجاء . وكأنما امتلأ الفضاء برمال نارية محرقة سدت جميع الأنحاء !

ثم اجتازا ذلك السهل ووصلا الى نهر « اشيرون » نهر الأحزان حيث رأيا جموعا زاخرة مجتمعة حول المركب الذى يستقله الذاهبون الى الضفة الأخرى . وعلى القارب شيخ شرس ذو عينين كأنهما تجلتان من لهب وهو يسير بهم القارب . ويذيقهم من ألوان العذاب والنكال مالاقبل لإنسان بوصفه ، ويصيح فيهم قائلا : ـ « الويل لك أيتها الأرواح الخبيثة لا أمل اليوم ولا رجاء . ولن تروا أيها المجرمون تلك السماء التى كنتم ترونها فى الدار الأولى . لقدجئت لأنقلكم الى الشاطىء الآخر حيث تسود الظلمة الأبدية . لتعيشوا هنالك فى الزمهرير والسعير المتلظى »

درك الوثنيين

ثم غرق « دانتى » فى غيبوبة من الذهول ـ لما تولاه من الذعر والرعب ـ فلم يوقظه إلا دوى رعد قاصف . وما كاد ينتبه منه حتى رأى أولئك المعذبين قد وصلوا الى الشاطىء الآخر من النهر . وثم وجد أرواح كبار رجال الوثنية . الذين عاشوا عيش الخيرين وأعوزهم أن يصطبغوا بالصبغة المسيحية — إذ لم يعمدوا — فرحب « هومر » و « هوراس » و « أوفيد » بدانتى ترحيب أفراد الأسرة الواحدة بفرد منهم .

ولما ذهب دانتى الى الطبقة الثانية من الجحيم ـ أو الدرك الثانى ـ وجد فيها « مينوس » قاضى النار . وهو مخلوق عظيم الجسم . على صورة إنسان له وجه كلب ؛ وثم وجد عذاب آثمى الحب تذروهم ريح عاتية فتقذف بهم كما تقذف بالطير فى أجواز الفضاء

ورأيا — فيما رأياه — «سميراميس» و «كليوباطرة» ، كما شاهدا — على الخصوص — «فرانشسكا راميني» ومحبها «باولو» اللذين كتب لحادثتهما الخلود : تلك الحادثة التي قصتها «فرانشسكا» على دانتي ، فأبانت له فيها كيف باغتها زوجها مع عشيقها فقتلهما معاً .

ورأى دانتي — في الدرك الأسفل من النار — جماعة من ذوي البطنة والنهم منغمسين في الوحل ينصب عليهم سيل هتون من الثلج والبرد والماء القذر . ورأى «تشوبروس» أحد الزبانية ذا الصورة الكلبية الهائلة يعوي ويزمجر عليهم وعيناه تقدحان شرراً ، وأنيابه الحادة تقطع أجسامهم وتمزقها إرباً إرباً بعنف وقسوة .

مدينة الشيطان

وفي أول الدرك الرابع رأى دانتي فيه «باوتوس» إله الثروة يحرس الدرك الذي جُمّع فيه المسرفون والبخلاء

(وهنا وصف دانتي عذاب هؤلاء وصفاً رائعاً لا يحتمل المقام ذكره)

ولما دخل الشاعران المدينه وجدا أمامهما سهلاً رحيباً فسيح الأرجاء فيه أجداث مكشوفة : كل جدث منها ممتلىء لهباً ، وفي وسطه أرواح الملاحدة المعذبة وفراشها نار حامية . ووجد من بين هؤلاء روح «فريناتا» المعجب المدل بنفسه .

* * *

ورأى دانتي في الدرك السابع من الجحيم نهراً من الدم قد أُغرق فيه العتاة والجبابرة وأهل الظلم ، ورأى الزبانية تقمعهم بمقامع من نار وترميهم بسهام مهلكة .

وهكذا ظل دانتي يصف طبقات الجحيم ويذكر أنه قد رأى الطبقة الثانية منها وقد قسمت إلى عشرة أقسام جمع فيها أهل الرياء والمخادعون ومدعو النبوة وذوو خطيئات التدليس والنفاق

* * *

وبعد وصف مسهب رائع لما يقاسونه من النكال ينتقل دانتي إلى الدرك الأخير حيث يرى الخاطىء الأكبر « إبليس » وهو يقاسى أشد أنواع العذاب . تهب عليه ريح من الزمهرير ، لو هب منها قليل على بحر لأصبح جليداً .

وبعد أن يبدع «دانتي» فى وصف مايلقاه إبليس من النكال ينتقل إلى المطهر حيث تقوده حبيبته « بياتريس » ، فيرى النجوم الألاقة التى حرم رؤيتها طول ذلك الوقت :

نظرات
فى تاريخ الاسلام (١)

« وأشترط على نفسى أن لا أتعرض لذكر
ما أعتمده ، فيما أجده مخالفا لما أعتقده
فان التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد ! »
« فخر الدين الرازى »

تمهيد

(هذه فصول مختارة من كتاب العلامة المستشرق « دوزى » آثرنا نقلها إلى العربية لتبيان وجهة تفكير عالم أوربي كبير ، وهى — وإن خالفت آراءنا أحيانا في بعض مناحيها — جديرة أن تقرأ بعناية فائقة . فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والاهمال .
وإذا كان العلامة «فخر الدين الرازي» يقول في مقدمته لشرح « الاشارات » لابن سينا : « إن التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد » ، فما أجدرنا أن نقول بدورنا : « والترجمة أيضا غير النقد »
لهذا اقتصرنا على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق — إلا ما يقتضيه المقام من توضيح لما أعتقدنا أن أكثر القراء فى حاجة إليه — وإلى القارىء الكريم ترجمة كلامه :)

ديانة العرب فى الجاهلية

كان كل شىء سائرا فى طريقه المعتادة فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى سواء فى الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الفارسية.

ولاجرم كانت هاتان المملكتان فى نزاع دائم سببه الرغبة والطمع فى تلك آسيا الغربية . وكانتا — فى ظاهرهما — مزدهرتين . تجبى لهما الضرائب والخراج فتمتلىء الخزائن بالمال وتتضخم ثروة الحكام . حتى أصبح الترف

(١) صحف مختارة من كتاب العلامة دوزى .

والأبهة — اللذان انغمس فيهما سكان العواصم — مضرب الأمثال.

على أن كل ذلك لم يكن إلا مظهراً كاذباً فقد كان يسرى فى كيان هاتين المملكتين داء كمين. وظل السوس ينخر فى عظامهما دائباً على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجور مهلكين. هذا إلى ماحدث من الفواجع التى نجمت من تلك الأسرات وما لعبته من الأدوار المفجعة التى كانت — على الحقيقة — سلسلة متصلة الحلقات. من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء.

وثم رأينا شعباً يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التى لا يكاد يعرفها أحد. شعباً جديداً بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة. بعد أن ظل نهباً مقسماً. تناوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة. ها قد رأيناه يتحد ويتجمع شمله الشتيت المرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذى تملك نفسه حب الحرية وساعدته على النجاح صفاته النبيلة. فقد كان متقشفاً فى طعامه خشوشناً فى لباسه نبيلا فى أخلاقه. كما كان طروباً سريع البديهة حاضر النكتة. ولقد كان شريف النفس أريحيا — فإذا استثرته مرة — فهو قاس غضوب شرس لا يثنى عن أخذ ثأره ولا يرده عن انتقامه شىء.

ذلكم هو الشعب الذى قلب — في لحظة واحدة — إمبراطورية الفرس التى ظل السوس ينخر فى عظامها قروناً عدة. وانتزع من خلفاء قسطنطين أجمل ضواحيهم. ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه. وشرع يهدد — بعد ذلك — بقية أوربا. ذلك بينما كان فى الوقت نفسه يوالى فتوحه وانتصاره فى الجانب الآخر من المعمورة حتى وصلت

جيوشه الظافرة الى الحلايا.

لم يكن ذلك الشعب فاتحا فحسب -- كغيره من الشعوب الأخرى — بل كان داعيا إلى دين جديد ومبشرا به أيضا .

كان داعيا إلى دين جديدفقام يناوئ الثنوية[1] الفارسية والمسيحية التى أفسدتها الخرافات والبدع ، حاملا إلى الناس توحيدا خالصا . لم يلبث أن دان به الملايين من الناس حتى بلغ عددهم فى أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها .

***

ذلك هو الدين الذى أخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفى تاريخه العام . ولعل أول مايعرض لنا هو هذا السؤال: « مم نشأ ؟ وكيف تفرع من الديانة التى سبقته ثم نما حتى وصل إلى ماوصل اليه ؟ »

فكيف نجيب على هذا السؤال الذى يجدر بنا الإجابة عليه قبل كل شىء ؟ الحق أننى لم أكد أعرض لهذا حتى وقعت فى حيرة لامثيل لها ، فقد اعترضتنى — حتى فى هذه الخطوة الأولى — صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع . وإليك البيان :

**

إننى — على إجلالى وتقديرى لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام ، وعلى إعجابى بفطنتهم

---

(١) الثنوية دين المجوس الذين أثبتوا — كما يقول الشهرستانى — أصلين اثنين مؤثرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما النور والثاني الظلمة ، وبالفارسية « يزدان » و « إهرمن » وهذا رأي من يدينون بالثنوية والمانوية ، وقد أشار المتنبي الى ذلك فى قوله من قصيدة مدح بها سيف الدولة :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب »

واجتهادهم - أقرر ولا أرى بدا من المصارحة أن هذه البحوث الطريفة لاتكفيني قط ، لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل .

لذلك رأيتني مضطرا الى إعادة البحث — من جديد — سالكا طريقا أخرى مخالفة لما نهجه غيري من الباحثين إلى اليوم ، وقد وصلت إلى نتيجة أنا أول المدهوشين لها ، وليس في وسعي أن أسردها في بضع صفحات ؛ إلا أنها - في جوهرها وأساسها - مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطرها وأهميتها . ولما كانت نتائج بحوثي مناقضة - على طول الخط - كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها ؛ والعلم يقضي على الإنسان ألا يلقي للناس قضايا مسلمة لايدعمها برهان ولاتقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية .

«والدعاوى - مالم يقيموا عليها بينات - أصحابها أدعياء !»

ولما كانت المصادر الأصلية التي أعنيها هي مصادر أجنبية بالنسبة لقارئ هذا السفر[1] رأيتني مضطراً الى تفصيل ذلك الرأي في سفر مستقل آخر[2] ولكن ماذا نصنع الآن في هذا الفصل ؟

***

أما أن نجتزئ ببعض الآراء التي وصلتنا ، مبدلين فيها رغبة في أن نوائم بينها وبين آرائنا الخاصة فهذا محال . لأن منهجين متباينين من مناهج البحث لاسبيل الى التقائهما والتوفيق بينهما . هذا فضلا عن عقم هذه الطريقة التي لاغناء فيها . فليس ثم أية فائدة من تعرف جزء من الحقيقة .

---

(١) يعني الاوربيين (٢) ارجع الى كتابه « الاسرائيليون في مكة »

لذلك أعملت الفكر فلم أجد إلا مخرجا واحداً من هذا المأزق ، هو أن أتبع الفكرة المقررة مقتصراً على سردها وذكر ماوصل اليه الباحثون من النتائج فى هذا الصدد . لاسيما « سبرنجر » أقرب الباحثين وأوفاهم درسا واستيعابا للتاريخ الاسلامى وترجمة النبى .

على أنى جدير أن أقرر — من الآن — بأسلوب صريح لايحتمل لبسا ولا تأويلا أنى إن استطعت بهذه الطريقة أن أرفع عن عاتق عبء المسئولية والمؤاخذة بما أقرره فى هذا الفصل من وصف الحال الدينية التى كان عليها العرب فى القرن السادس الميلادى ، فلن يكون ذلك شأنى فيما أقرره فى بقية الفصول .

دفعتنى هذه الاعتبارات السابقة ، كما دفعنى غيرها من الأسباب التى لايصعب على القارئ فهمها إلى الاقتصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى مافى قدرتى من الإيجاز الذى التزمته فى تبيان ديانة العرب الأولى ونشأتها فى بلادهم . فلم أحد عن هذا الشرط قيد أنملة .

ديانة العرب الاولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى — هو الله تعالى — ويعتقدون أن له ذاتا كذواتهم وأنه محيط بالعالم وما يحويه من كائنات — هو بارئها — وإن اختلفت حظوظها من الطاعة والعصيان . وكانوا يدينون بأنه خالق السموات والأرض[1]

(١) كان العرب يعتقدون بوجود الله ويعتقدون أن شؤون الكون كلها بيده كما ترى فى الكتاب الكريم فى قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وقوله فى آية أخرى : « قل لمن الارض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل : أفلا تذكرون ، قل من رب السموات ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل : أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، فأنى تسحرون ؟ »

وأنه الذات المنزهة التي لاحد لحكمتها ، ولا يمارون في أنه مدبر العالم وأنه هو الذي يرسل عليهم المطر من السماء [١]

كانوا يعتقدون هذا ، ويعتقدون أيضا أن ليس له كهان ولا هياكل . كتلك التي خصوا بها أوثانهم .

العرب والجن

فإذا تركنا ذلك الى سواه رأيناهم يعظمون الجن ويمجدونهم ، وقد دفعتهم الى ذلك صحاريهم وجبالهم التي كثيرا مايضلون فيها أسابيع كاملة فيتمثلون رؤية هذه العوالم الغريبة . ويقوى في نفوسهم هذه التصورات ما يكابدونه فيها من ألم الجوع والعطش وما يحتملونه من شمس الصحراء المحرقة وهوائها اللافح وسوافيها المهلكة ، هذا الى ما يعانونه من تقلبات الجو الفجائية ، حتى ليصل بهم الروع الى حد أن يتخيلوا أنهم يسمعون أصوات الجن ويبصرون ذواتهم في أشكال عدة وعلى صور شتى ؛ منها السخيف ومنها المعجب [٢] وكانوا يعتقدون بأن أجسامهم تشغل جزءا من الفضاء — كما تشغله أجسامنا — وانهم ينتشرون . ولكنهم يختلفون عنا في تكوينهم لأن أجسامهم مخلوقة من النار أو الهواء [٣]

---

(١) قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . قل أفلا تتقون ؟ »

(٢) قال أبو العلاء على لسان جني ، في رسالة الغفران : —

فتارة أنا صل في نكارته ... وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للانس حولا أو ذوي عور ... ولم نكن قط لاحولا ولا عورا

(٣) بعض الأساطير عن الجن

افتن رواة العرب وشعراء العرب في رواية الاساطير الرائعة عن الجن ، ولعل

ومن ثم لاتراهاالعينالإنسانية إلاشذوذا

أجمل ماقرأناه فى ذلك هو تلك القصة البديعة التي تخيلها أبو العلاء في رسالة الغفران بين ابن القارح وشيخ من أدباء شيوخ الجن ، وفى هذه القصة يرى القارىء حوارا ممتعا لانغالى إذا قلنا إنه منقطع النظير في العربية كلها . ومن أجمل مانختاره من تلك القصة قول الجنى — وهو يقص على بن القارح بعض ماحدث له فىالدار الأولى — :

« وكنت آلف من أتراب قرطبة خودا ، وبالصينأخرى بنت« يغبورا»
أزور تلك وهذى غير مكترث في ليلة قبل أن أستوضح النورا
ولا أمر بوحشى ولابشر إلا وغادرته ولهان مذعورا »

الى أن يقول :

«وأحضر الشرب أعروهم بآبدة يزجون عودا ومزمارا وطنبورا
فلا أفارقهم حتى يكون لهم فعل يظل به إبليس مسرورا
وأصرف العدل ختلا عن أمانته حتى يخون وحتى يشهد الزورا»

إلى آخر القصيدة .

ومما ذكره ذلك الجنى لابن القارح قوله :

« ولسنا مثلكم يابني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة لأنكم من حمأ مسنون وخلقنا من مارج من نار »

وقوله: « وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض . وإنما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قل مايعدوها القائلون ، وإن لنا لالاف أوزان ماسمع بها الانس »

وقوله :« ولابد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الانسية ولنا بعد ذلك لسان لايعرفه الأنيس . »

وقد قص الجني علىابنالقارح — فى قصيدة أخرى — شيئا كثيراًمما ينسبهالناس الي الجن ، فمن ذلك قوله :

« ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس
تقول : « لاتقنع بتطليقها وأقبل نصيحاً لميكنبالدسيس»
حتى إذا صارت الى غيره عاد من الوجد بجد تعيس
نذكره منها — وقد زوجت — ثغرا كدر فى مدام غريس

وفى هذه القصيدة يقول — :

وفى قدرتهم أن يأتوا كثيراً من ضروب الشر والخير

ونقترى جن « سليمان » كى نطلق منها كل غاو حبيس
صير فى قارورة رصصت فلم تغادر منه غير النسيس

يعنى بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبي الله « سليمان » فى قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلا إلى الفرار ، فلم يبق منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق.

وقد أشرنا - فى رسالة الغفران - إلى ذلك إشارة موجزة لا بأس من إثباتها هنا لفائدة القراء :

أساطير الجن وسليمان النبي

شاعت أساطير « سليمان » والجن ، وانتشرت - منذ أقدم أزمنة التاريخ - فنسبوا إليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة . وعزوا إلى خاتمه - المشهور بما عليه من النقش - معجزات لا تحصى ، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران بما يحمله فى الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل

وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور أنضجها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبي » كان يهيمن على الجان ويتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع إنفاذه الا جني بعينه يكون مشهورا بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فاذا لبى دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش - الذى على خاتمه - فأحرقه تواً ، أو سجنه فى قارورة مرصصة أو قمقم من النحاس ، وربما سجنه فى عامود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه .

وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الأساطير - بين العامة والخاصة - شيء كثير . وافتن الناس في رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة . ولهذه الاساطير مصادر عدة - نخص بالذكر منها - عدا روايات وأقاصيص رواة العرب - مصدرين رئيسين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير ألف ليلة وليلة »

و « أسطورة سيف بن ذى يزن »

ففي « ألف ليلة وليلة » ترى :

ومن كانوا كذلك فقد وجب عليهم أن يتحببوا إليهم ويمجدوهم ويقدسوهم

« حكاية الصياد والجني »

وموضوعها أن صيادا عائلا طاعنا فى السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات

فخرج فى صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت فى الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك .

فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حمارا ميتا فحزن ، ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية

فلما جذبها وجدها ثقيلة - كما وجدها في المرة الاولى - فظل يعالجها حتى استطاع إخراجها، فوجد فيها زيرا كبيراً مملوءا رملا وطينا فزاد حزنه ، ثم أخرج مافيها ولما ألقاها للمرة الثالثة وجذبها وجد بها شقافة وقوارير، فعجب من سوء بخته ونكد طالعه .

وقبل أن يلقي الشبكة - للمرة الرابعة والأخيرة - توسل الى الله أن ييسر له ، ثم سمي باسمه وألقى شبكته وصبر إلى أن استقرت فاذا بها أثقل منها فى المرات السابقة

فبذل أشد الجهد فى إخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد فوجد بها قمقما من نحاس أصفر مسدودا بالرصاص ومطبوعا بخاتم سليمان النبي فتبدل حزنه سرورا

وقال فى نفسه . «سأبيع هذا القمقم فى سوق النحاس لأنه يساوى عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لابد من فتحه لأعلم مايحتويه »

وأخرج مدية كانت معه فعالج بها الرصاص حتى فكه ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل حتى رأى الصياد أمامه مارداً هائلا مروعا من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب بلباله ، ولم يعده إلى رشده إلا قول الجني له :

« العفو يانبي الله سليمان ، التوبة التوبة ! آمنت بك ، وأطعتك ولم أعد أخالف لك قولا أو أعصى لك أمرا ، فلا تقتلني فاني تائب نادم على مافرط مني من العصيان ! »

فعاود الصياد الرمق وقال له : «أين سليمان النبي أيها الجنى ؟ لقد مات منذ عدة قرون ، فما قصتك ؟وما سبب حبسك فى هذا القمقم ؟ » .

فلما علم الجنى بموت سليمان النبي التفت الى الصياد قائلا : «سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك! » فقال له الصياد : « أهـذا جزاء من أحسن اليك وأخرجك من سجنك ؟» فقال له الجني : « لقد كنت من الجن المارقين وقدعصيت سليمان بن داود ـ واسمى صخر الجني ـ فارسـل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى اليه ذليلا ، فلما وقفت بين يدي سليمان النبي أمرنى بالدخول فى طاعته فأبيت ، فحبسنى فى هذا القمقم ، وختم على بالرصاص وطبعه بخاتمـه المنقوش عليـه (الاسم الأعظم) وأمر الجن فألقونى فى وسط



« صورة الصياد والجنى والقمقم »

البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى : كل من خلصنى أغنيته الى الأبد ، ولما مرت مائة عام ولم يخلصني أحد قلت : « كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثاني فتحت له كنوز الأرض » فلم يخلصنى أحد ومرت على أربعمائة أخرى فقلت : «كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات» فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى : « كل من خلصنى قتلته وتركت له اختيار ميتته » فاي ميتة تختار أن تموتها الآن ؟

اعتقادهم أن لكل جنى موطنا خاصا به .

فارتمى الصياد على قدميه متوسلا إليه أن يعفو عنه ، ولكنه وجد منه الاصرار على قتله .

فلجا الى الحيلة — بعد أن يئس من استعطافه — فقال للجنى : « ولكن لى سؤالا أرجو أن تجيبني عليه قبل أن تهلكني ، وأن تصدقنى فى الاجابة عنه » فقال له الجنى : « وماهو ؟ » فقال الصياد . « قل لي بحق الاسم الاعظم المنقوش على خاتم نبي الله سليمان كيف كنت فى هذا القمقم الضيق — وهو لا يسع يدك ولا رجلك ؟ » فلما سمع الجني هذا القسم اضطرب ، ولكنه لم يلبث أن قال له : « ألا تصدق أنى كنت فيه ؟ » فأجابه الصياد « كلا ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعينى؟ » فانتفض العفريت وصار دخانا فى الجو ، ثم اجتمع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله — فأسرع الصياد وسد فم القمقم بالسدادة التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصياد توسل اليه أن يفك أسره — ودار بينهما حوار طويل ممتع يجده القارئ منصلا فى الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد انتهى ذلك الحوار بأن أقسم له الجنى أن ينفعه إذا أطلقه ، وقد برللصياد بقسمه

* * *

أما أسطورة « سيف بن ذى يزن » فنعدها — على عامية أفكارها وفساد خيالها واضطرابه فى عدة مواضع منها — أغنى المصادر التى عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهها من وصف الجان و بيان كفاياتهم وأقدارهم وهيمنة السحرة عليهم وأثر الطلاسم فيهم و إظهار الفروق التى بين طوائفهم ونحلهم المختلفة الخ الخ وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها فازدحمت بها ازدحاما أفردها من بين الأساطير العربية ، ولسنا نعرف فى كل ماقرأناه من القصص العامية — وقد قرأنا كل ماطبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها فى هـذه الميزة غناء وخصبا .

فليس من بد لمن أراد أن يكون فكرة واسعة عن أساطير السحرة والجان والأرصاد والطلاسم أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بالعناية

ومن بين أساطير تلك القصة ماترويه لنا أسطورة « الرهق الاسود » — وقد ذكرت فى موضعين منها — أولهما بمناسبة سفر « سيف بن ذى يزن » الي كنوز « النبي سليمان » وثانيهما بمناسبة حفر « شلالات النيل »

فمثلت لنا ذلك « الرهق الأسود » ماردا عنيدا تخاف الجن كلها سطوته و بأسه

. . . . فهذا فى حجر وذلك فى نصب

ولا تكاد تؤثر فيه الارصاد والطلاسم ، وقد بلغ من عتوه أنه عصى * النبي سليمان * واستخف به و بسلطانه .

فنى ذات يوم كلف « سليمان » — تلبية لرغبة زوجه « بلقيس » — أعوان الجان بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به فأظهروا له عجزهم عن القيام به وذكروا له قدرة « الرهق الاسود » — دون غيره من الجان — على إتمامه

فكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده ، فبعث اليه برسالة تركها له أحد الجان عند رأسه — وهو نائم — خوفا من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « إذا لم تحضر إلى بعثت اليك الوهم ! »

فذهب الى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو ؟ فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه — التى اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتنان فيها — ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذى أرغمه عليه إرغاما .

و بينما هو قائم بعمله الشاق — مرت به « بلقيس » مصادفة فهام بحبها ، ولما رأى « سليمان النبي » طلب اليه أن يزوجه منها ووعده بالرضوخ لأوامره كلها — إن فعل — فلما علم أنه يعني زوجه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذى على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير « آصف » فاقترح الوزير على « سليمان » أن يسجنه فى عامود من الرخام ليشقى بالعذاب طول حياته ، فسجنه فى عامود طويل احكم سداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوسا حتى أنقذه « سيف بن ذي يزن » الى آخر تلك الأسطورة الطويلة التي أوجزناها أشد ايجاز وفصلتها قصة « سيف بن ذى يزن » « فى الجزء الثامن ص ٤٥ و ٤٦ وفى الجزء الحادى عشر من ص ٤٤ الى آخر الجزء ومن أول الجزء الثانى عشر الي ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة في تلك الأساطير أنها تكاد تنتهي جميعا باظهار ميل أولئك الجن العصاة الى الاساءة الى من يحسنون اليهم باطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر فى نفوسهم

* * *

وقد أشار المتنبي الى ما اشتهر به « سليمان النبي » من معرفة لغات الجن وقدرته علي تفهم ألسنتهم المختلفة ، في نونيته التي مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان فقال :

وثالث فى شجرة [١] وكانت تجمع قبيلة ـ أوعدة قبائل أحيانا ـ على تمجيد جنى بعينه ، وتكل العناية به الى أسرة بعينها منوط بها أمر رعايته وتلبية رغباته ـ وكانت هذه الفئة تقوم بحراسته وتعظيم شأنه ، سواء فى الحجر أو الشجرة أوالصورة التى تمثله . كما تؤدى له حقه من المراسيم الكهنوتية والطقوس الدينية التى تقيمها فى محرابه وربما سمع لذلك النصب صوت ـ كما يحدث ذلك فى كثير من الاحيان ـ ومن الواضح أن الكهنة القائمين بحراسة الوثن

ملاعب جنة ؟ لوسار فيها « سليمان » اسار بترجمان

وأبدع النابغة فى الاشارة الى ما اشتهر عن « سليمان » من إذلال الجن و إخضاعهم لأوامره ، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان .

« ولا أرى فاعلا فى الخير يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا « سليمان » إذ قال الاله له . « قم للبرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن ـ إنى قد أذنت لهم يبنون « تدمر » با لصفاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك ـ وادلله على الرشد
ومن عصاك ، فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد »

ونختم هذا الفصل بقول الاعشى ـ وهو يمثل منحى آخر من اعتقاد العرب فى ذلك ـ :

ولو كان شىء خالدا ومعمرا لكان سليمان البرى من الدهر
براه إلهى ، فاصطفاه عباده وملكه مابين ثريا إلى مصر
وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر

(١) ومن الأشجار التى كان يعظمها العرب ، فى الجاهلية شجرة « ذات أنواط » وفيها يقول بعض الشعراء :

« انا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا اليه ذات أنواط »

وفى هذه الشجرة يقول أبو العلاء فى لزومياته

« والحظ يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ولم تباين ـ على علاتها ـ الشجرا »

وفى هذين البيتين أيضا إشارة إلى ماذكره « دوزى » من عبادة العرب للحجر .

قد مرنوا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتكلم - وكان لكل منها صوت خاص به يميزه عن غيره - ، وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التى يعزونها إلى أوثانهم

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنمها وتشيد بذكره وتفرده بأقصى ما تستطيع من حب ، لأنها ترى فيه نوعا من الملكية ، وكان الكهان ينضحون عنه ، ولا ينون فى طلب القرابين لذلك النصب ، وإن كانوا - على الحقيقة - يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغانم لهم باسم الله تعالى.

هذا ما نستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن وأقوال المفسرين على وجه الإجمال . على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا فى درس ترجمة حياة النبى يعزون ذلك إلى قبيلة « خولان » وحدها . وهى التى كانت تقطن اليمن فى ناحية منه تعرف باسمها

وكان من عادتهم ، حين تقدم القرابين إلى الآلهة - وهى من الإبل أو الفصال [1] - أن يقسموها قسمين : أحدهما وقف على الله وهذا من نصيب المعوزين وأبناء السبيل الذى يحلون ضيوفا على أهل القبيلة ، والآخر وقف على النصب ، وهو من نصيب الكهنة وحدهم .

فإذا وقع فى القسم الأول بطريق المصادفة بعض النفائس ، استأثروا به وجعلوه من نصيب الوثن ، ووضعوا مكانه النصيب الأدنى لله [2]

---

(١) الجمال الصغيرة ، قال الشاعر

لا أمتع العوذ بالفصال ، ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

(٢) قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا « هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا » فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون »

ولكن ما علاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله ؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله[1] وأن منزلتها منه كمثل الفروع من الأصل تماما. فهى تحكم الناس كما يحكم حاكم الأقليم بعد أن يخوله مليكه سلطة الحكم ، وثم كانوا يرون فى تلك الأرباب وسائط بين الناس وبين الله[2]

مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة فى أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، فى واد رملى شديد الضيق ؛ حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة - أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة - وتكتنفه جبال جد عارية يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة.

فى هذه المدينة المحراب الذى يفخر به كل من يملكه ويقع فى حوزته . ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن[3] ، وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وإن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات . وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها

---

(١) ومما جاء فى القرآن الكريم قوله « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » وقوله :
« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون. »

(٢) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الاصنام لذاتها - كما يتوهم بعض الناس - وقد ذكر عبد الله بن عباس فى تفسير قوله تعالى : « وقالوا لاتذرون آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » أن هذه الاسماء التى أطلقوها على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين ، ماتوا فقالت عشائرهم : « لو أنا صورناهم ليكون فى ذلك تذكير لنا وتنشيط على العبادة وحسن الاقتداء بهم ، فصوروهم حتى إذا تطاول عليهم الأمد عبدوهم » « المترجم »

(٣) سميت كذلك لأنها ترى من بعيد على شكل مكعب منتظم الاضلاع « دوزى »

الصقل، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخللها الملاط، وقد غطيت بريطة[١] أو بقطعة من القماش؛ أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل، وأما مساحتها فتبلغ مائتى قدم.

وكان «هبل»[٢] اسم الصنم الرئيسى الكبير بين أصنامها، منذ النصف الأول من القرن الثالث، وهو تمثال عقيق[٣]، جابه من الخارج بعض الرؤساء[٤]، وكان «هُبَل» فى ذلك العهد بالقبيلة قريش.

أما الكعبة نفسها فلم تكن ملكا للقرشيين، بل كانت ـ على الحقيقة ـ ملكا مشاعا لأكثر القبائل التى تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة، وثم كان للكعبة صبغة عالمية عندهم.

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذى تعبده فى ذلك المحراب (الكعبة) حتى بلغ عدد الأرباب التى بها ثلثمائة وستين ربا، وكان التسامح الدينى سائداً وقد وصل بهم الى أعظم حدوده، فقد كنت ترى فى الكعبة ـ زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام ـ صورة إبراهيم الخليل وصورة الملائكة، وصورة العذراء مع طفلها عيسى.

* * *

(١) «ملاءة»

(٢) قال ابن الكلبي: «كان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها هبل» «المترجم»

(٣) روى ابن الكلبي «أنه كان من عقيق أحمر، على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب» «المترجم»

(٤) قالوا: وكان أول من نصبه «خزيمة بن مدركة» وكان يقال له: «هبل خزيمة» «المترجم»

الحجر الاسود

على أنهم كانوا لايقدسون شيئاً، كمايقدسون «الحجرالأسود» وهو الحجر الذى يزعم المسلمون؛ أنه كان فى أول أمره أبيض، ثم اسودّ من توالى الحريق الذى حدث فى الكعبة، وقد لعب هذا الحجر فيما بعد فى قابل الإسلام — دورا خطيراً فى التاريخ الإسلامى ولازال يعده المسلمون — حتى أيامناهذه — حجراً مقدساً، وسنذكر فى بعض الفصول التالية بعض أقاصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر.

وقد وصفه لنا بعض السائحين الأوربيين الذين شاهدوه، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركانى تلمع فى أنحائه نقط بللورية، وتبدو فى بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذى يطلقون عليه اسم «فيلسبار» لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قاتمة، وتارة أسمر يميل إلى السواد.

وقد تعاورته ظروف مختلفة، فكسر أكثر من مرة حتى غدا فى هذه الأيام مؤلفا من اثنتى عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض، والكثيرون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء.

***

أما احترامهم الكعبة فقد بلغ بهم حد التقديس [1] وزاد إجلالهم

---

(١) روي ابن الكلبي فى كتابه الأصنام: «أنه لما سكن إسماعيل بن إبراهيم (ص) مكة، وولد له بها أولاد كثيرون حتي ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، وضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا فى الارض التماس المعاش»

قال «وكان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للكعبة وصيانة وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم، بالكعبة، تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون، على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار» «المترجم»

لها فقدسوا ماجاورها من البقاع ـ التى خلعت عليها الكعبة مسحة القداسة ـ وثم أصبح مايكتنفها ـ إلى بُعدعدة فراسخ ـ حراما لايجوز لكائن من كان أن يفتك بسواه فيها ، أو يصطاد من حيوانها ، احتراماً لها .

و يؤم الكعبة فى كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء ، لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها !

عبادة الأصنام(١)

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول فى القرن السادس من الميلاد ، ودب فيها الفساد وتغير جوهرها ، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام — التى يمجها العقل — تدين بها طائفة من المبطلين .

قال أحد معاصرى محمد(٢) (ص) ـ :

« كنا ـ إذا عثرنا على حجر جميل ـ عبدناه ، فإذا عز علينا أن نجده ، أنشأناه من الرمل إنشاء ، ثم سقيناه لبن ناقة درور مدة من الزمن ، ومتى تم لنا ذلك عبدناه ، ثم لانزال نفعل ذلك مادمنا فى ذلك المكان ! »

* * *

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت ـ على العكس من ذلك ـ

---

(١) قالوا : « إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو عمر بن لحي ، وإنه أول من غير دين اسماعيل ونصب الاوثان ، وقد جاء فى كتاب الأصنام : أن السبب في ذلك أنه مرض مرضا شديداً ، فقيل له : إن البلقاء من الشام « حمة » إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال : « ماهذه ؟ » فقالوا : « نستسقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو » فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . » « المترجم »

(٢) هو أبو رجاء العطاردى تجد ترجمته في كتاب ابن قتيبة ص ١١٩ وفى مسند الدارمى ص ٣٦٤ « دوزي »

على جانب عظيم من الرقي والحضارة . فلم يكن عندهم عقيدة فى أرباب هى من صنع أيديهم . من الحجارة أوالخشب .

ولقد كان الناس ـ فى ظاهر أمرهم ـ يمجدون تلك الأرباب ويحجون إلى محرابها ويحتفون بمواسمها السنوية ويذبحون القرابين فى هياكلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التى يعبدونها ، سواء أكانت من الحجر أم من الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما حزبهم أمر ليلتمسوا منها البركات ويتكشفوا بوساطتها مستقبل أمرهم الغامض .

على أن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر . أما فيما عدا ذلك فقد كانوا لايترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها ، أو إذا جرؤت على إذاعة شيء يكرهونه ويخشون إذاعته مما اقترفوه من الدنايا .

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قربانا له إذا تكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر [1] حتى يستبدل النعجة ـ وهى قيمة عنده ـ بغزال لايكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده ، يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعجة والغزال [2]

---

(١) هذا هو حال أغلب الناس ـ على اختلاف أديانهم وأزمانهم ـ وليس أبلغ فى أداء هذا المعنى من قوله تعالى : « وإذا مس الانسان الضر ، دعانا لجنبه ، أوقاعداً ، أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ! »

وفى ذلك يقول ابن دريد فى مقصورته الرائعة ـ :

نحن ـ ولا كفران لله ـ كما قد قيل للسائق - أخلى فارتعى
إذا أحس نبأة ريع ، وإن تطامنت عنه اطمأن ولها

(٢) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها وصوفها ولحمها ، وما أجمل قول أحد العرب يهدد زوجه متهكما ـ :

«غضبت على لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف
ولئن غضبت لأشربن بنعجة كوماء مالئة الاناء سحوف »

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم مالم توافق رغباتهم وتعبر عما يقصدون اليه من التفاؤل بماهم قادمون عليه من الامور يؤيد ذلك أن أعرابيا اعتزم أن يثأر لأبيه ممن قتله ؛ فأتى « ذا الخلصة [١] » وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض — ليستشيره فيما هو قادم عليه ، وبدأ يقترع — على عادة العرب فى ذلك — فرأى فى السهم الأول أمراً بالمضى فى طريقه ، وفى الثانى نهيا عن ذلك ، وفى الثالث أمراً بالانتظار والتريث . فلم ترضه هذه النتيجة وأعاد الكرة مرة بعد أخرى ، فكانت النتيجة واحدة فى المرات الثلاث ، وثم غضب وألقى بالسهام فى وجه الصنم وقال له : « مصصت بظر أمك لو كان أبوك قتل ماعوقتنى ! » [٢]

كذلك كانوا يغضبون لأتفه الأسباب ، وكلما تعارضت أوامرها مع

---

(١) كان ذو الخلصة — فيما يقول ابن الكلبى — مروه بيضاء ، منقوشا عليها كهيئة التاج ، وكانت « بتباله » — بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكه — وكان سدنتها بنو أمامة من « باهلة بن أعصر » وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم « وبجيلة » و « أزد الشراه » ومن قاربهم من بطون العرب من « هوازن » ومن كان ببلادهم من العرب بتباله قال وكانت العرب جميعا تعظمه » « المترجم »

(٢) قالوا : إن امرأ القيس بن حجر ، لما أقبل يريد الغارة على بنى أسد مر بذى الخلصة — وكانت له ثلاثه أقدح « الآمر والناهى والمتربص » — فاستقسم عنده ثلاث مرات فخرج الناهى ، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال هذه الجملة ، وتروى — فى رواية أخرى — بأشنع من ذلك .

قالوا : فكان امرؤ القيس أول من أخفره ، ثم غزا بنى أسد فظفر بهم !

وفى رواية أخرى أن رجلا كان أبوه قد قتل ، فأراد الطلب بثأره فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال :

« لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثلي ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا »

رغباتهم ولم تعبر عما يودون سماعه من الكلام . انهالوا عليها بالسباب والتحقير

وأقبل رجل من بنى ملكان [1] على « سعد » صنم قبيلته المعبود ، ـ وهو صنم فى الصحراء ـ وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه يريد التبرك به ، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العتائر [2] ـ حسب عادتهم ـ نفرت الابل وولت هاربة . فغضب صاحبها وتناول حجرا فرمى به وقال : « لابارك الله فيك إلها أنفرت على إبلى » ، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

« أتينا إلى « سعد » ليجمع شملنا ... فشتتنا « سعد » فلانحن من « سعد »

وهل « سعد » الاصخرة بتنوفة ... من الأرض لايدعى لغى ولارشد ! »

***

وكان بنو حنيفة أنفسهم أقل الناس احتراما لآلهتهم . إذ كانوا يأكلونها . ونحن جديرون أن نقرر عذرهم فى ذلك . فقد كانوا يصنعون آلهتهم من نوع — بعينه — من العجوة ومن اللبن والزبد فلما وقعوا فى قحط ومجاعة أكلوها .

***

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد فى تلك الأرباب اعتقادا

(١) قال بن الكلبي ـ : « وكان لمالك وملكان ابني كنانة ، بساحل جدة وتلك الناحية ، صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم باءبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت منه ـ وكان يهراق عليه الدماء ـ فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجرا فرماه به وقال : « لابارك الله فيك إلهـا أنفرت على إبلى » ثم خرج فى طلبهـا وانصرف عنه وهو يقول (الابيات)

(٢) هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التى يذبحونها عنـد أصنامهم

جديا . فقد كان أكبر شيء يحترمونه هو الله تعالى . على أن الله لم يكن له عندهم أيضا عقيدة قوية راسخة فى قرارة نفوسهم ، لأنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئاً كثيراً . إذ لم يكن له كهان يدعون الناس اليه ويرغبونهم فى عبادته وطاعته . ويذيعون إرادته ويوضحون لهم ماقدره من خير وشر .

عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة . بل كانوا شديدى الاختلاف . فنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ويدين باليوم الآخر ولا يقف عند حد الاعتقاد فى بعث الانسان بل يدين ببعث الحيوان أيضا . ومن ثم كان يدفن راحلته الى جانبه أو يتركها تموت على قبره ، ليركبها يوم القيامة فلا يتكبد عناء السير على قدميه

على أن سوادهم كان يستهزئ بفكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا يدينون فى كل مكان برأى القائل :

حياة ، ثم موت ، ثم حشر　　　حديث خرافة ياأم عمرو

***

وليس فى هذا موضوع للعجب ، فان هذه الفكرة ـ فكرة البعث ـ المحببة الى نفوس الآريين ؛ شديدة الغرابة عند الساميين ! وآية ذلك أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم [1] إن لم نقل فى أوائل

---

(١) يعرف تشريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جلاء بابل !

فقد تولى بختنصر في عام (٦٠٦ ق . م .) وأجلى اليهود عن بيت المقدس وضربه وأخذ آنيته الثمينة وقد مكث مخرباً نحو مائة عام وشرد اليهود كل مشرد وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وبلاد مادي

التاريخ الميلادى ، على أن جماعة الصدوقيين نفسها ـ وهى كبيرة العدد ـ قد رفضت فكرة البعث ولم تقبلها قط [١]

وفى عام (٢١ ب م) جاءطيطوس فنكب اليهود مرة أخرى وهدم بيت المقدس وشتت شملهم وحرم عليهم الاقامة في فلسطين وقد كتب « يوسيفوس » المؤرخ كتابه عن اليهود وما حدث لهم فى تلك الموقعة « المترجم »

(١) الصدوقيون

فرقة من اليهود ظهرت فى وقت العهد الجديد ، وهى تنسب ـ فى رأى بعض المؤرخين ـ إلى صدقيا وهو من أسرة ارستقراطية من أحبار « بيت المقدس» فى زمن سليمان عليه السلام ، وفى رأى آخرين أنهم منسوبون الى الكلمة العبرية التي معناها « الحق » وهى قريبة الحروف من الكلمة العربية . وأهم مميزات الصدوقيين هى : انهم كانوا حزب الارستقراطية

وأنهم كانوا لا يعترفون بغير التوراة المكتوبة ويرفضون كل ماعداها مما زيد عليها من الاحاديث الشفوية المروية عن موسى ـ عليه السلام ـ كما كانوا يرفضون كل ماأضيف اليها من التفاسير والشروح ، التى أدخلها فيها النساخ . ولهذا رفض الصدوقيون الايمان بأهم الأسس التى بنيت عليها الديانة اليهودية فلم يؤمنوا بالبعث ولم يقبلوا فكرة الخلود ولا فكرة الجزاء فى الدار الآخرة ، وكانوا ـ الي ذلك ـ ينكرون الملائكة ويجحدون الأرواح ويقررون ـ تقرير الجازم المستيقن ـ أن الانسان مخير ـ بأوسع ماتحويه هذه الكلمة من معان ـ وأنه متمتع بحرية الارادة فى كل مايفعله من خير أوشر وأن سعادته وشقاوته ـ على هذا ـ ثمرة غرسه ونتاج عمله .

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين كما يتبادر الى الذهن من أقوالهم ، وأن هذا الوهم سببه عدم تحري الدقة فى فهم عباراتهم التى التبس على الكثيرين فهمها ، وإنما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل في أعمال الانسان ، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يتعرف المناسبة التى قيلت فيها والقرينة التى اقترنت بها .

ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الايمان وقوة العقيدة اللتان امتاز بهما خصومهم الفريسيون الذين كانوا يعقدون آمالهم على الدار الآخرة وما يتوقعونه فيها من الجزاء . فلم يحفلوا بالاعتبارات الدنيوية ، على أن الانصاف يقضى علينا أن

كذلك لم يلق محمد (ص) مقاومة جديةمن العرب إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة ، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها ، ومازال البدوى ـ إلى

تقرر أن ذلك لم يكن إلا فى ظاهر معتقداتهم ، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادىء واتخذوها وسيلة الى المداهنة والرياء ، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا ـ على سبيل المجاز — صفة لكل من ينافق أو يعنى بظاهر اللفظ و يستغنى بالقشور عن اللباب و يفضل المصطلحات والمظاهر على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها.

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوبا بالقضاء على الصدوقيين وقد ورد ذكرهم فى التلمود ، ولكن عبارة التلمود غامضة لا يسهل اجتلاؤها لمن يريد تعرف الحقيقة

وقد قسم ابن حزم — فى كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق وهى:

(١) السامرية : وهم يقولون إن مدينة القدس هى نابلس — وهى من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلا ـ ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ، ولهم توراة غير التى بأيدى سائر اليهود ، و يبطلون كل نبوة كانت فى بنى اسرائيل بعد موسى عليه السلام و بعد يوشع ـ عليه السلام ـ فيكذبون بنبوة شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليشع واليـاس وعاموص وحبقوق و زكريا وأرميا وغيرهم ، ولا يقرون بالبعث البتة ، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها .

(٢) الصدوقية : و ينسبون الى رجل يقال له «صدوق» وهم يقولون من بين سائر اليهود إن العزير هو ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وكانوا بجهة اليمن .

(٣) والعنانية — وهم أصحاب عانان الداودى اليهودي وتسميهم اليـهود العراس والمس ، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وماجاء في كتب الأنبياء ويتبرأون من قول الاحبار و يكذبونهم ، وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام ، وهم من الاندلس بطليطلة وطليبرة

(٤) والربانية ـ وهم الاشعنية ـ : وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود

(٥) والعيسوية وهم أصحاب أبي عيسى الاصبهاني ـ رجل من اليهود كان بأصبهان ـ و بلغنى أن اسمه كان «محمد بن عيسى» وهم يقولون بنبوة عيسى بن مريم ومحمد (ص) و يقولون إن عيسى بعثه الله ـ عز وجل ـ الى بنى اسرائيل ـ على ماجاء فى الانجيل ـ و إنه أحد أنبياء بني اسرائيل .

أيامنا هذه ـ لايعنيه أمر البعث ولا يكترث له .[1]

المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية لاترتكز على أساس متين، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر — غير دينهم هذا — فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلا . وهذا كلام صحيح ولكن إلى حدما . فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه فى جهتين . انتشرت فى بلاد الحبشة ـ جنوبا ـ وفى سوريا ـ شمالا ـ حيث لقيت شيئاً من القبول . وقد انتصرت كذلك فى مدينة نجران فى وقت مبكر ،

ويقولون إن محمداً (ص) نبي أرسله الله تعالي بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام والى سائر العرب كما كان أيوب نبياً فى بني عيص ، وكما كان بلعام نبياً في بنى مواب ، باقرار من جميع فرق اليهود « المترجم »

(١) قال أبو العلاء في رسالة الغفران :

« و بعض العلماء يقول : « إن سادات قريش كانوا زنادقة » وماأجدرهم بذلك وفي ذلك يقول شاعرهم :

« ألمت بالتحية أم بكر ... فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوى ـ طوى بدر ـ ... من الاحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لاتكري ... على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخى أبيه وكان قرماً ... من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عني ... بأنى تارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زايل منكبيه ... فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا « ابن كبشة » أن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام ؟
أتترك أن ترد الموت عني ... وتحييني إذا بليت عظامى؟ »

ولايدعى مثل هذه الدعاوى الا من يستبسل وراءها للحمام ، ولا يأسف له عند إلمام . ا . ه » « المترجم »

ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية وأصبح علم النصرانية خفاقا على كثير من الأديرة والكنائس كما تنصر عرب سوريا .

على أن هذا النجاح كله لم يكن ـ فى أى مكان تقريباً ـ إلا مظهراً من المظاهر لا حقيقة من الحقائق .

أما فى أواسط بلاد العرب وفى قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربى القح وأرومته . فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحى . ولم تكن لترى ثم إلا أثراً ضعيفاً له ـ إن لم نقل ـ معدوماً .

وكانت المسيحية فى ذلك الزمن ـ على وجه عام ـ بما تحويه من معجزات وبما فيها من عقيدة التثليث وما يتصل بذلك من رب مصلوب ـ قليلة الجاذبية بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى . وآية ذلك ماتراه واضحاً فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة ـ حوالى عام ٥١٣ من الميلاد ـ وإن المنذر ليصغى إلى مايقولون بانتباه إذ دخل عليه أحد قواده فأسر اليه بضع كلمات ؛ ولم يكد ينتهى منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق ، فتقدم اليه أحد القساوسة يسأله متأدباً متلطفاً عما أشجاه ؛ فأجابه الملك :

« يا له من خبر سيء ! لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتا عليه ! »

فقال القسيس ـ : « هذا محال أيها الأمير ، وقد غشك من أخبرك بذلك ، فان الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ! »

فأجابه الملك ـ : « أحق ما تقول ؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت؟»

* * *

أماحظ اليهوديه في اجتذاب العرب إليها فهو أكثر من حظ المسيحية، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الامبراطور أدريان الذى ثاروا عليه فألحق بهم الأذى وشتت شملهم، فوجدوا في بلاد العرب ملجأ لهم، وبثوا دعايتهم فيها فدان باليهودية قبائل عدد من سكان الجزيرة العربية، ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهودون الذين أخلصوا لليهودية حقاً. وقد صارت اليهودية نفسها ـ في زمن ما ـ دين اليمن الرسمى.

على أنها ضعفت — على مرور الزمن — وقل إقبال العرب عليها لأن اليهودية لا تلائم إلا شعباً مختاراً، أما أن تكون دينا عاماً للناس قاطبة فلا!

ذلك أنها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس. وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح الى المجد!

وليس من أصالة الرأى أن نقول إن سواد العرب كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر، فان العربى ـ ذلك البدوى الحر كما سنراه فى كثير من المناسبات التى ستتيحها لنا الفرص أثناء دراسته ـ ليس متدينا بطبعه، كما أن كل محاولة بذلت فى سبيل جعله كذلك كان نصيبها الفشل التام.

فالعربى رجل عملى مادى لا يعنى بغير الحقائق حتى فى شعره، فهو لا يسبح فى الخيال والوهم ولا يميل الى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية التى يعتمد الانسان فى استيعابها على التخيل أكثر من اعتماده على التعقل.

* * *

إن ديانة العرب التى ألفوها لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم بل كانت ضعيفة الأثر قليلة الخطر، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال،

فاذا كان من الحق علينا أن نعترف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب ، فمن الحق علينا أن نقرر أيضاً أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافياً للقضاء عليها .

والحق أن أحداً لم يكن مضطراً الى العقيدة ، فقدكان البدو لا يبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التي يعبدونها ، ولا يترددون فى إلحاق الأذى والضرر بها بقلوب جد مغتبطة ، بيد أن القضاء — بعد كل هذه الاعتبارات — على عبادة كان يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل ، كان يثير فى نفوسهم كبرياءهم القوى ، أنفة من أن يتركوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار .

وجماع القول أن الديانة كانت فى نظر العربى القديم — كما هى فى نظر البدو فى أيامنا هذه — أمراً لا خطر له ، وآية ذلك أن شعراء الجاهلية لا نكاد نراهم يذكرون ديناً أو عقيدة فى أشعارهم ، ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — إذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة — إلا عبارات مقتضبة لا تكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة .

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة ولم يشغلوا أذهانهم بشىء من مسائل ماوراء الطبيعة ، وكان مؤمنوهم يتابعونهم فى ذلك الشعور ويصدرون عنه .

ومع كل هذه الاعتبارات ، فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ — شأن كل قاعدة — فان وجود جماعات شتى من متألهى العرب الذين يدينون بوحدانية الله وإن اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم — لتدين بعضهم باليهودية أو المسيحية — كان أمرا له خطره عند العرب وله أثره فى نفوسهم ، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتئون يبثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

الحنيفية

ومن ثم رأينا فى أواخر القرن السادس الميلادى لبعض الشعراء دلائل وآثاراً لايمان عميق بوحدانية الله ، ورأينا منهم شعوراً يقظاً بالتبعة المترتبة على ماتصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة ـ التى ترى هذا الرأى ـ هى طائفة الحنفاء [1] وقد كانوا فى شتى الانحاء لاتربطهم أية آصرة ولاتضمهم

---

(١) يذهب الأستاذ (سبرنجر) الى أن كلمة حنيف معناها فى الأصل ملحد أو كافر . وعندى أن فى هـذا التفسير إسرافا ومغالاة لايقبلها باحث ، وليس يتسع المقام لاظهار حقيقة الحنيفية والحنفاء التى سأبينها فى بعض الفصول الاخيرة من هذا الكتاب فلأكتف الآن باحالة القارىء على ماكتبته فى أوائل هذا الفصل » « دوزى »

الحنيفية

اختلف الناس في تفسير هذه الكلمة واضطرب الشراح فى معانيهـا اضطرابا شديداً . بلغت مسافة الخلاف فيه من النقيض الى النقيض ، ولهم العذر فى ذلك فقد تطورت معانى هذه الـكلمة ـ بمرور الزمن ـ فـكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيهما أكثر المفسرين ؛ وقد ذكر صاحب لسان العرب وغيره معاني مختلفة لهذه الـكلمة لاتربطها صلة ، وليس هنا مجال التوسع فى سرد ماقالوه وكتبوه فى ذلك ، فلنجتزىء بشرح معناها الذى نفهمه بايجاز، وهو فهم يلائم بين تلك الآراء كلها :

كلمة الحنيف أصل معناها المائل عن الطريق المعبد السوي الذى ألفه سواد الناس إلى طريق آخر ، وهذا هو مافعله إبراهيم . عليه السلام ـ فقد خالف ماكان عليه قومه من الشرك والوثنية ومال عن سنتهم الي طريق التوحيد فأطلق عليه قومه اسم الحنيف ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه في حنيفيته ، ولـكن مذهب إبراهيم وشرعته دخلهما كثير من الضلالات والأوهام والبدع ، ومن ثم تباين أتباعه فى نحلهم وعقائدهم فوجد منهم المؤمن الحق والمشرك والوثنى ، ولـكن كلا منهم احتفظ لنفسه باسم الحنيفية وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء . فلما جاء الاسلام وجد لفظة الحنيفية فى حاجة إلى تحديد فلم يكتف بوصف ابراهيم ـ عليه السلام ـ بالحنيفية بل احترس فقال عنه إنه كان حنيفا مسلماً .

ولعل خير مانختم به هذه الـكلمة هو قول الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسير

مذهب بعينه : كما تفعل الصابئة المنتسبون إلى إبراهيم الذين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضا !

وكان لهاتين الطائفتين ـ من الحنفاء ـ رأى واحد فى رفض اليهودية والمسيحية معاً والاعتراف بدين إبراهيم : وإبراهيم هذا ـ الذى عرفوه من اليهود والنصارى ـ هو الأصل الذى ينسبون إليه ، فهو والد جدهم إسماعيل وهو الذى بنى الكعبة فى مكة .

وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة المحجة سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العمليين ـ وهى فى جوهرها ـ صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة. ولم يكن ينقصها ـ لبلوغ هذه الغاية ـ إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة .

الآية : «قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وإليك ما قال :

قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج إن الحنيفية هى ما كان عليه العرب من الشرك واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى ـ في زمن الجاهلية ـ « إن فعلت هذا أكون حنيفاً » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة . وقد ناظرت بعض علماء الافرنج في هذا فلم نجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصرانى ، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ولا دليل في كلمة النصراني العربى على أن الكلمة تدل ـ لغة ـ على الشرك ، وإنما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا ، وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء و ينتسبون الي إبراهيم و يزعمون أنهم على دينه، وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضاً . والسبب فى هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة : ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها : فنسوا بعضها بالمرة ، وخرجوا ببعض آخر عن أصله و وصفه كالحج .

ونفى الشرك عن ابراهيم ـ فى آخر الآية ـ احتراس من وهم الواهمين وتكذيب لدعوى المدعين » ا . ه .   « المترجم »

وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزله من السماء ، أو تفهم على أنها كذلك .

***

وهذا هو العمل العظيم الذى أخذ محمد (ص) على عاتقه القيام به ليتمم نقص الحنيفية . ولكن هذا العمل — على ما فيه من صعوبة — قد ضوعفت مصاعبه لأن العرب لم يكونوا فى غير حاجة الى الدين فحسب ، بل كانوا – إلى ذلك – ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهرة العبادة ومراسمها ، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعميات التى تتصل بما وراء الطبيعة

ولابد من إقناع جازم ويقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات .

« الشرائع » (1)

كم من شرائع أبلى الدهر جِدَّتَها　　وأصبحت – بعد حين – طَيَّ أرماس

لكل جيل جديد ما يلائمه　　من الشرائع والأخلاق والناس

---

(١) مترجمة عن الانجليزية

بعد وفاة النبي (١)

مات النبي ولم يترك ولداً له ، ولم يعين خليفة يخلفه ، فكانت الساعة غاية في الحرج ، وأصبح كيان الاسلام نفسه مهدداً نهب الحوادث والظروف ، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها ، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخاصين ، وكأنما أصابتهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع ، وكان الناس قسمين . قسما يحسبه خالداً لا يموت ، وقسما لا يتوقع موته بهذه السرعة بل يؤمل له حياة طويلة وعمراً مديدا ، وكان « عمر » — خاصة — ممن يؤمل هذا الأمل .

وبعد أن مات النبي وأسلم آخر أنفاسه بزمن يسير . دخل « عمر » مخدع « عائشة » فرفع الغطاء — الذى كانت جثة النبي مسجاة به — وتأمل محيا سيده ملياً — وهو فى نومته الأبدية — فرأى كل شيء هادئا . ونظر إلى ما حوله فرأى سكونا طبيعيا ، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع ، وصاح — :

« كلا لم يمت النبي بل هو فى غيبوبة ! »

وكان « المغيرة » حاضرا فحاول عبثا أن يرشده الى خطئه ، فقد صرخ فيه عمر — :

« كلا بل تكذب ، إن رسول الله لم يمت ولكن خبث طوينك وفساد نفسك الشريرة قد أدخلا فى روعك هذا الوهم الخاطئ ، ولن يموت النبي قبل أن يقضى على المنافقين ويبيد أهل الشرك . »

ثم ذهب « عمر » — من توه — إلى المسجد فصاح فيمن تجمهر من الناس — :

« لقد زعم الزاعمون ، وأرجف المرجفون أن محمدا قد مات ، وبئس ما يتقولون ، ألا إن محمدا لم يمت ، وإنما ذهب للقاء ربه كما فعل موسى إذ غاب

---

(١) فصل آخر مختار من كتاب « نظرات فى تاريخ الاسلام » للعلامه « دوزى »

عن قومه أربعين يوما ثم رجع الى أصحابه - بعد أن يئسوا من عودته - ووالله ليعودن النبي كذلك ثم ليعاقبن كل من اجترأ على هذا القول ! »

ولم يكد يسمع الحاضرون قوله حتى أمنوا عليه . ولا غرو فى ذلك فقد كانوا - إلى زمن يسير جدا - يرون محمدا فى نفس المكان الذى يخطبهم فيه « عمر » فلم يكن أحب إليهم من تصديق مايقوله « عمر »

وجاء « أبو بكر » فى هذه اللحظة فاخترق المسجد . وأصغى هنيهة قصيرة إلى كلام « عمر » المتأجج عاطفة وحماسة . ثم أسرع إلى مخدع « عائشة » ووقف أمام جثة النبي أيضا فرفع الغطاء عنها وقبّل وجه صاحبه - وهو مستغرق فى نومته الأبدية - ثم صاح قائلا : « طبت حيا وميتا » ورفع رأس النبي بتؤدة وأناة ، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذى طالما تملى به من قبل ، ثم قال - :

« نعم لقدمت ، فوا أسفا عليك أيها الصديق المحبوب ! بأبى أنت وأمى فقد قاسيت من غمرات الحمام ماقاسيت وتجرعت من غصص الموت ماتجرعت . وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذه الكأس مرة أخرى ! »

ثم وضع رأس النبي برفق على وسادته - وقبل رفيقه مرة أخرى ، ثم سجاه بغطائه ورجع - أدراجه - إلى المسجد فوجد « عمر » لايزال يتأجج حماسة وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت . فصاح فيه - :

« حسبك ياعمر ، هدىء من ثائرتك واجلس حيث أنت ! »

فلم يصغ إليه عمر وطفق يخطب الناس ، فولى أبو بكر وجهه شطر الناس . فأقبلوا عليه وتركوا عمر ، فقال لهم أبو بكر - :

أماقال تعالى - فى محكم آياته - لنبيه : « إنك ميت وإنهم ميتون ؟ » أما

قال تعالى فى آية أخرى - بعد موقعة أحد - : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ »

ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت !

***

وكأنما كان الناس فى حلم فأفاقوا منه بعد ما سمعوه من قول أبى بكر . فقد ذهل الناس من فداحة الخطب عن هذه الآيات القرآنية حتى إذا ذكرهم بها «أبو بكر» الرزين أيقنوا جميعا أنهم لن يروا النبى بعد !

انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لابد من حلها . وهى أن محمدا قد مات ولم يعين من يخلفه فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم . ولكن من الذى يعين هذا الامير ؟

أيعينه كل المسلمين ؟ هذا حسن ، فهل من سبيل إلى تحقيقه ؟

لقد كان الوقت عصيبا ، وكان من السهل أن يرى الانسان أمامه أزمة رهيبة وشيكة ، وجمهرة من القبائل لن تلبث أن ترتد عن الإسلام ؟

إذن يتعين أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التى لها الصدارة والسلطان — بين قبائل العرب قاطبة — وثم اجتمع الأنصار «أهل المدينة» الذين عز بهم الاسلام وانتصر ، فمن يختارون ؟

لا مجال للتردد والحيرة . فأمامهم الفارس النبيل « سعد بن عبادة » رئيس الخزرج . وقد كان من الطبيعى المألوف أن يختاروه - ولم يكن حينئذ تم شفاؤه من مرض خطير كان قد ألم به - فحملوه مدثرا مدوجا إلى جمهور

المدنيين ـ وكان ضعيفاً من أثر المرض . فلم يستطع إبلاغهم صوته ، فقام أحد أصحابه يردد مايقول .

وقدذكر « سعدبن عبادة » أصحابه بأنهم أول من دخل الإسلام من القبائل وأن نصرته لم تتم إلا بهم بعد ، وأنهم لذلك جديرون بالزعامة على العرب قاطبة ! »

فقابلوا كلامه بالاستحسان والتحبيذ،وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة ، ونادوا به ـ فى الحال ـ خليفة لرسول الله ، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض المهاجرين هذا الرأى وعدم رضائهم عنه ، فأجابهم أصحابهم :

« لاعلينا من ذلك ، سنقول لهم حينئذ : « لقد اخترنا لنا أميرا . فاختاروا لكم أميراً وافترقوا عنا فلن نذعن ـ بحال ما ـ لغير أميرنا الذى اخترناه ! »

ولم يكد يبلغ « أبابكر » هذا النبأ حتى أقبل عليهم بأقصى مافى قدرته من سرعة ـ ومعه عمر وأبو عبيدة ـ وما كادوا يصلون حتى انبرى عمر للكلام ، فمنعه أبو بكر ـ وله كل الحق فيما فعل ـ خشية من تحمسه واندفاعه ، وقال له ـ : « تريث حتى أتكلم ثم قل ماشئت بعدى ! »

* * *

وبدأ أبو بكر يخطب الناس ـ بكل تواضع ـ فاعترف للمدنيين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام ، ثم أظهر لهم ـ إلى هذا ـ جدارة المهاجرين بالخلافة لقرابتهم من الرسول وكونهم من أسرته ، ثم لأنهم أول من دان بالإسلام ، وقد لقوا فى سبيله ألواناً من العسف وضروباً من النكال ، واحتملوا ذلك كله صابرين !

ثم قال — : « فأنتم تلوننا فى هذه المرتبة ، فليكن الأمير منا والوزراء منكم » فأجابوه — : « بل منا أمير ومنكم أمير ! »

فصاح عمر — : « كلا ، ومحال أن نولى أميرين . ولن تعترف العرب بمن تختارون . فليس نبيهم من قبيلتكم. ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريبا للنبي . ومن رفض ذلك أرغمناه على قبوله إرغاما . »

وحمى وطيس الكلام . وكاد اللجاج ينقلب خصومة ؛ لو لم يقل لهم « أبو عبيدة » — :

« لقد كنتم أول ناشر للاسلام وأول معين للنبي . فلاتكونوا الآن أول ساع فى التفرقة وتشتيت الوحدة الاسلامية ؟ »

وهنا قام « بشير » — قريب « سعد » ومنافسه — فقرر ما للمهاجرين المكيين من الحقوق فى أعناق المسلمين ، فأثر كلامه فى نفوس فئة من الخزرج ، ولكن الأثر لم يبلغ أشده إلا فى نفوس القبيلة المدنية الأخرى ، وهى قبيلة « الأوس » بسبب ما كان بينها و بين قبيلة « الخزرج » من نفور قديم جلعهم لا يرتاحون إلى سعد ، ولا يرضون به أميراً عليهم ؛ وكانوا — منذ لحظة — يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة ، فلما سمعوا كلام أبى عبيدة ثبتوا على رأيهم وظاهروا المهاجرين على الأنصار ؟

وبذلك سنحت فرصة ملائمة ، فأسرع أبو بكر إلى انتهازها وأمسك بيده — عمر وأباعبيدة — داعيا المدنيين الى اختيار واحدمنهما لمبايعته بالخلافة ، فصاحا — فى نفس واحد — :

« بل أنت خير منا ، فامدد يدك نبايعك ونقسم لك على الخضوع والطاعة » وامتدت بين يديهما يد ثالثة الى يد أبى بكر ، وهى يد « بشير » الذى

أسرع بمبايعتــه معهما ؛ ثم نهج الأوس منهجه وأقبــل المسلمون يبايعونه أفواجا ، واشتد الزحام وعلت صيحات الفرح فاختلطت بأصوات الدهشة وأراد حباب الخزرجي أن يناوئ الدعوة فصرخ مهددا بالحرب واستل سيفه فانتزعه « عمر » من يده .

ورأى « سعد » اماله في الخلافة تتبدد هباء . وليت الأمر وقف عند هذا الحد فقد أصبح «سعد» نفسه فى خطر حين تكأكأت عليه الجموع فكادت تسحقه — وهو فى محفتــه التى كان محمولا عليها — وعبثاً حاول أصحابه أن يقنعوا جمهرة المسلمين بوجوب احترامه : فإن «عمر» نفسه لم يتورع عن إهانته ووصفه بأقبح النعوت ـ على الرغم من أنه خصم أعزل جليل القدر ـ وقد تداركه أبو بكر فصد هذه الجموع عنه وأنقذه من أذاهم وشرهم .

* * *

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة — خليفة النبى — وسط هذه الفوضى الشاملة — كما اعترف بهذه الحقيقة «عمر» نفسه على ملأ من الناس فى المسجد المدنى فيما بعد . وقد كسب المكيون بهذا الفوز أمرين ـ :

« زعامة العرب، وحسن اختيار الخليفة»

فقد ولوا أمورهم رجلا كان أخاص صديق لنبيهم : ولو ترك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول فقد لا يختــار سواه . ذلك أنه جمــع ـ إلى حبه الرسول ـ متانة الايمان وقوة اليقــين وصدق العزيمة فى إعزاز الإسلام ونصرته ، وبهذه الصفات نجح أبو بكر فى التغلب على المصاعب والعقبات التى كانت تكتنفه .

وفى الحق أن الوقت كان عصيباً ، وكانت الظروف غاية فى الحرج ،

فقد كان موت النبي ـ الذى كانت تترقبه العرب منـذ زمن طويل بفارغ الصبر ـ مؤذناً بالثورة فى كل مكان ، ولقد كنت ترى الثائرين ـ فى حيثما ذهبت — رافعين علم الثورة والتمرد ، وقـد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم .

وكان لا يمر يوم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين ، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها .

فـكيف يقاومهم « أبوبكر » وليس لديه جيش يحاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي — برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم ـ : « لن أخالف ما أمر به النبي و لو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين ولابد لى من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم باديا . على أنه ـ على الحقيقة ـ خطر أقل مما تدل عليه ظواهره ، فإن قوة الخصم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدة ورجال بل بما عنده من قوة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها باذلا فى سبيلها النفس والنفيس .

فما هى الغاية التى يسعى إليها الثائرون ؟ وأى حافز يدفعهم إلى اضطرام هذه الحرب ؟

أهو إيمـان وثيق متوشج فى أعماق قلوبهم كإيمانهم القـديم الذى كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك فى انتصارهم الحاسم !

ولـكن شيئا من ذلك لم يكن ، فإنهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم

القديم ويؤيدوه ؛ بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوى الذى يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الاتيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذى يخلق البطولة والأبطال ، فقد كان رؤساء القبائل المتمردة أنفسهم شاعرين كل الشعور بضعف قوتهم المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد اليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخيل إليهم أن محمداً لم ينجح إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمرا واحداً — هو سر نجاحه فى بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمنا بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذى يعوزهم وبغيره لا يتم نجاح .

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء — على ما أريق فيهما من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون فى غزواتهم التى عز بها الإسلام — ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتمثل فيها الانسان — عن غير قصد — كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية التى مثلها النبى وأصحابه مهزلة وعبثا !

ألا ترى الى مسيلمة لذى مثل دور النبى فى اليمامة ؟

ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقى التاعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة فى زجاجة ضيقة الفوهة؟ ألا ترى اليه ينشىء قرآنا سخيفا يقلد به محمدا ، ثم يرخص لأتباعه فى شرب الخمور أنى شاءوا . ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

***

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت فى « بلاد النهرين »

وجاءت تبث الدعوة انفسها — على رأس جيش عظيم — فماذا يصنع مسيامة ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة — وقد فعل — فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاها إلى محادثته ، وطال بينهما الحوار [1]

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها فى « مسيلمة » فقالت لهم — :

« لقد رأيته نبيا حقا فتزوجت منه ! »

فسألها التميميون — : « وهل أهدى إلينا شيئا من مهر الزواج ؟ »

فقالت : «لا» فقالوا لها — :

« عار علينا أن نُزَوج نبيتنا بلامهر ! ولن نقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك — وكان مسيلمة خائفا متحصنا — فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له :

« عد إلى قومك فأخبرهم أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد رفع عن التميميين — من الصلوات الخمس — صلاتى الصبح والعشاء »

ولقد فرح التميميون بذلك وساروا عليه حتى بعد أن عادوا إلى الإسلام من جديد .

* * *

ومن ثم ترى أن هؤلاء التائبين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبى بكر وثيق الإيمان قوى الإرادة صاب

---

(١) لهذه المحادثة التى أقنع بها مسيلمة سجاحا بنبوته قصة طريفة يعرفها أكثر القراء ، ولا حاجة لذكرها فى هذا المقام .

العزيمة لا يعرف هوادة فى إرغام أنوفهم — ولا رحمة !

ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل — أو ضمن حيادهم على الأقل — فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد، وقال لهم [1] :

« إن الإسلام قانون واحد لا يتجزأ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الإصرار الحازم وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سببا فى منحه قوة أكبر مما نتصور .

* * *

ولم يكد ينتهى من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يهاجمه « طليحة » الذى كان بطلا من قبل، وقد جاء يدعى النبوة كغيره ثم يجبن عن دخول المعركة فيرقب الحرب — وهو بعيد عن الميدان — مدثرا فى عباءته كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة، وقد ترقب ذلك زمنا طويلا ثم وقعت المعجزة — إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام — وحينئذ صاح فى جنده : « احتذوا حذوى إن استطعتم . »

---

(١) قال له عمر — أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا . « لا إله إلا الله » فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ! »

فقال له أبو بكر — ألم يقل: « إلا بحقها؟ » وهذه الزكاة من حقها، والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة وقد جمع الله بينهما، والله لو منعونى عقال بعير — كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — لقاتلتهم عليه » « المترجم »

ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمعن فى فراره .

***

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون معركة مروّعة هائلة ؛ وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت فيما بعد بين المسلمين والفرس ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب « حرب الردة » شُنَعاً لم يعرفها الإسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به . لأن الردة جزاؤها القتل . لاهوادة فى ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله - :

« عليك بإبادة الكفرة بالحديد والنار . ولا تأخذنك فيهم رحمة قط »

* * *

ولقد انهزم أصحاب مسيلمة - وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل - ومزقهم المسلمون شر ممزق ، وغرقت بلاد العرب كلها فى الدماء !

ولكن الاسلام قد خرج من تلك المعارك - الناشبة فى كل مكان - مؤيدا منصوراً . ودان به العرب بعد ذلك . - طوعا أو كرها - فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامى ؛ إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن ، فاعتراف الخائف الذى يعرف قوة هذا الدين العظيمة التى لا تجدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار أبى بكر حتى وجه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر

الأمور وحدها جرأة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل .

وإنما سار أبو بكر فى هذا على خطة النبى التى كان يتبعها ، وهى أن يشغل العرب عن التفكير فى خضوعهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم .

***

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ونحن - إذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون اليهم بسبب - لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا - حتى بعد مضى قرن من الهجرة - لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحنين .

***

ولما انتصر العرب على الفرس فى موقعة القادسية (٦٣٥ م) وأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد ، فكتب الخليفة « عمر » - أمير المؤمنين حينئذ — يأمر القائد بتوزيع باقى الغنائم على من يحفظ

أوفر قسط من القرآن .

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز ، فسأل «عمر ابن معديكرب» النبيل عما يحفظه من القرآن فأجابه :

« لاشيء لأنى دنت بالإسلام فى بلاد اليمن ثم صرفتنى الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به »[1]

فالتفت القائد إلى « بشر بن طائف » يسأله فكان جوابه — :

« ليس حظى من ذلك بأوفر من حظ عمرو : « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد كان هذا هو كل مايحفظه من القرآن !

* * *

زد على ذلك : أن الاسلام — وإن لم يلق معارضة قوية أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة — فإن سراة مكة وطبقة الارستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذى أحرزوه ، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذى أراد الموحدون أن يبسطوا ظله عليهم .

ولقد كانت تقوم المنازعات والشغب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لاعلاقة لها بمبدأ أو عقيدة . وهى — فى حقيقتها وجوهرها — غير ذلك ، فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكأة يبرر بها غايته من الشغب .

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان — ثالث الخلفاء — حين تولى الخلافة بعد

---

(١) وفى هذا يقول عمرو بن معد يكرب :

« نعطى السوية فى طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير ! »

« المترجم »

وفاة« عمر» (٦٤٤م) وكانت سن «عثمان» حينئذ سبعين عاماً . وكان حليما لين العريكة ، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بنى أمية ، أى أنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا «محمداً» العداء عشرين عاماً ثم أسلموا فكان فى إسلامهم مجال واسع للظنون والحذر ، ولقد نالوا بفضل « عثمان » أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل المسلمين خليفتهم الشيخ المسن « عثمان »

ثم ولى الخلافة بعده « على » ابن عم «محمد » ولكن لم يتم الاعتراف به فى كل مكان . فقد هبت سوريا متحمسة إلى امتشاق الحسام - وعلى رأسها واليها «معاوية بن أبى سفيان» - وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام ، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم ، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم ، فقد أشعلوا نيران الحرب - من جديد - فى زمن «يزيد الأول » ابن معاوية الذى ولى الخلافة من بعده . ولقد قام «الحسين » وهو الابن الاصغر لعلى يطالب بالخلافة ، ولكنه صرع هو وفئته القليلة التى كانت تناصره فى موقعة كربلاء [1]

ومن ثم قام « عبد الله بن الزبير » - وهو ابن صحابى من صحابة الرسول - إلى مكة رافعاً علم الثورة ، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة . ولا يلتفت اليه استصغاراً لشأنه . ذلك أنه لما يغادر مكة إلى غيرها من البلدان فلم ير له الخليفة خطرا يستحق أن يناوئه من أجله . ورأى أن من الحزامة أن يتركه

---

(١) وفي ذلك يقول الكميت :

يحلئن من ماء الفرات وظله حسينا ولم يشهر عليهم منصل
كأن حسينا والبهاليل حوله لأسيافهم مايختلي المتبقل !

« المترجم »

وشأنه ، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل - بلا حاجة - فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء فى بقاع كانت . حتى فى زمن الوثنية - حرماً مقدساً لا يمسه أحد بسوء .

ولكن لكل شىء حدا . فقد صبر يزيد حتى عيل صبره ، فلما لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب إلى عبد الله بن الزبير - المرة الأخيرة - أن يبايعه . فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم أنه لن يقبل من هذا الثائر طاعة حتى يؤتى به بين يديه مكبلا بالأغلال . ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه - وكان طيب السريرة - ففكر فى وسيلة يبر بها فى قسمه - دون أن يمس كبرياء « عبد الله » - ثم استقر على أن يرسل اليه غلا من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها - إذا شاء - وبعث إليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة . فساروا من مقر ملكه « دمشق » حتى بلغوا « مكة » ولكن «عبدالله» رفض - بطبعه - أن يقبل تلك الهدايا . وعبثاً حاول الرسل أن يتوصلوا إلى إقناعه وإنزاله عن رأيه . فقد أصر « عبد الله » على عناده لأنه كان يعتقد أن كائناً من كان لن يفكر - بحال ما - أن يلجأ إلى العنف والشدة معه - وهو فى تلك البقاع المقدسة - وكان هذا سر طمأنينته ، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل .

على أن « عبد الله » لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته . فقد سبقه إلى ذلك ثوار « المدينة » . وكانت روح الشر مهيمنة عليهم فى ذلك الحين . فقد وقعت بينهم وبين الوالى - حينئذ - خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضى . وأراد الوالى إزالة أسباب الخلاف - وكان

ابن أخت الخليفة يزيد ـ فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة ، فلما ذهبوا ، قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة فى أن يستميلهم إليه ، ولكن يزيد كان ـ رغم أدبه ونبله ـ غير مشبع بروح احترام الدين الذى كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم فبدرت منه آراء ـ عن غير قصد ـ صدمت بعض أصول الدين التى يقدسها أهل المدينة ، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بالخليفة ويذمونه عند مواطنيهم متأثرين بعامل الغضب ، وقالوا لهم ـ :

« إنه يشرب الخمر و يعزف على الأوتار ويصرف نهاره بين كلاب الصيد — وقد كان «محمد» يمقت ذلك أشد المقت — فإذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق » يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع فلما كبر أدناهم من مجلسه .

* * *

وزادوا على ذلك أنه لا يصلى قط وأنه جاحد ، وعزوا إليه — فوق هذه التهم التى بنوها على أساس واه أو متين ـ تهماً أخرى لا أساس لها ولا وجود ، وإن كان ذكرها مما يثير فى نفس خصومه من أهل المدينة حفائظ وأحقادا بعيدة الأثر .

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلصق بكل أموى .

ومن ثم انقلب المسجد مسرحاً عجيبا تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباع يزيد واجتمع أهل المدينة قاطبة ـ وهم صاخبون ـ فشرع كل واحد منهم يتجرد من شىء من ملابسه فيلقى به صائحا ـ :

« إنى أخلع يزيد كما أخلع قبائى هذا »

أو « عمامتى »

أو « نعلى »

ثم طردوا كل من فى المدينة من الأمويين ووقفوا عن تعيين خليفة جديد لهم ، فقد كان القرشيون الذين فى المدينة لايحبون أن يعترفوا بأهلها ، كما كان أهلها كذلك لايحبون أن يعترفوا بهم .

فقر رأيهم على أن يتريثوا فى تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد !

واستحوز عليهم عداء جنونى ـ لايحدوه رشد ـ فلم يتبصروا عواقب هـذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحـدة أمام جيوش الامبراطورية الاسلامية العظيمة كلها .

ولقد حاول عبثاً أحد المدنيين ـ وكان قد عاش فى بلاط الخليفة ثم أوفده سيده إلى المدينة ـ أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه ولكن الغضب أعماهم فأصبحوا لايعيرون الناصحين التفاتا ولايصيخون إلى أية موعظة تقدم اليهم بحسن نية .

* * *

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة فأرسل إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى « مسلم » وكان « مسلم » أقرب إلى الوثنية منه إلى الاسلام ـ فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها ، فاذا أبوا أن يخضعوا ـ بعد ذلك ـ هاجمهم ودمر مدينتهم تدميرا فى ثلاثة أيام أخرى ، ثم أخذ على من فيها المواثيق بأنهم عبيد يزيد وأمرهم أن يقسموا على ذلك فاذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته .

ولم يكد يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أنفة من الخضوع

وأعدوا عدتهم للقاء العدو . وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين – وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٣ . م – وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة . وكان أهل المدينة متحمسين يذكى فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون وأن أعداءهم — من جيش سوريا – هم عند الله كالوثنيين سواء — وكانوا على يقين من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وباؤا بغضب من الله ؛ أما هم فإنهم سالكون – بلا شك – مسالك الشهداء والأبرار .

وبقى مصير الحرب معلقاً فى كف الأقدار زمناً طويلا حتى كشفت الخيانة عنه، فقد ارتشت أسرة من المدنيين ففتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيش العدو . فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم – فجأة – صيحات النصر من أفواه السوريين ، فضاع كل أمل لديهم فى الفوز والغلبة، وأصبحت المدينة فى قبضة العدو ، وصار كل هجوم عبثا ومستحيلا ، على أن جمهرتهم لم تفكر فى الخطر المحدق بها فهجم أهل المدينة على أعدائهم فرادى وباعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به !

وكان من بين القتلى سبعمائة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة . ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبى قد حارب – بعد أن نصروه فى حرب بدر على المكيين – حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم .

ودخل « المدينة » فرسان سوريا فلما لم يجدوا مكانا يربطون فيه خيلهم ربطوها فى مسجد المدينة – بين جدث النبى وكرسيه – أى فى نفس المكان الذى طالما سماه النبى نفسه جنة : « من جنان الفردوس »

* * *

ثم نهبوا المدينـة فى ثلاثة أيام وسبوْا كل من فيها من نساء وأطفال ؛ ولم ينج أحد ممن بقى من أهلها ـ وقد فر أكثرهم ـ إلا بعد أن أقسم أن يكون عبداً من عبيد يزيد . وهكذا أقسموا جميعا على أن يكون الخليفة «يزيد» سيدهم ومولاهم وأن يكون فى حل من التصرف فيهم بما شاء ، من عتق أو بيع . كما أقسموا أن يكون له الحق فى كل ما تملك أيمانهم من نساء وأولاد وأرواح .

ولما رأى أبناء مؤسسى الإسلام أنهم مضطهدون معذبون وأن بنى أمية قد أرهقوهم إرهاقا . لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا المهاجرة . فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش أفريقيا . ثم انضم أغلبهم ـ فيما بعد ـ إلى جيش العرب فى إسبانيا .

وكان « مسلم » مكلفا أيضا باخضاع مكة . ولكن الموت عاقه عن تحقيق إربته . فأخذ « الحصين » ـ وهو أحد رجال جيشه ـ على عاتقه أن يحقق ذلك . فتولى قيادة الجيش وبدأ يحاصر مكة ويقذف الكعبة بالحجارة والصخور حتى حطم عمدها وقواعدها . ثم نجح أخيرا فى إحراقها جملة ، ولقى الحجر الأسود فى هذه المرة أول نكبة حاقت به لأنه لم يطق مقاومة النار فتحطم أربعة أجزاء .

على أن مكة لم يتم إخضاعها . فقد حال دون ذلك موت يزيد وما أعقبه من الفوضى التى اضطرت الجيش الى رفع الحصار والرجوع بالجيش تواً إلى سوريا . وبهذا استعاد « عبدالله بن الزبير » قوته واستتب له أمر الخلافة فى «مكة» وخارجها أيضا .

ولكن الأمويين مالبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة « عبدالملك » ، وخضعت البلاد كلها له، ولم تبق الامكة وحدها ثائرة وفيها « عبدالله بن الزبير » فلما رأى « عبد الملك » ذلك وجه إليها جيشا بقيادة الحجاج ، فذهب الى تلك البقاع المقدسة ، وحاصر المدينة وطفق يرمى الكعبة بالصخور والحجارة ليدكها دكا، وبينما كان يقذفها بالنار ـ ذات يوم ـ هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثنى عشر جنديا ؛ فرأى الجيش فى ذلك عقابا من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس . فأحجم رجال الحجاج وكفوا عن ذلك .

***

فاغتاظ الحجاج وخلع بعض ملابسه وتقدم إلى المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه ، ثم حرك حباله بعد ذلك وهو يقول ـ : « لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ماحدث هو مافهمتموه . ألا إنى لخبير بطبيعة هذه البلاد ففيها ولدت وقد رأيت لهذه العاصفة أشباها لاتحصى ! »

***

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر ، ثم أخذت المدينة بعد أن مات «عبدالله بن الزبير» سنة ٩٦٢ م .

هل يشبهك ابنك؟[1]

لماذا تختلف عن إخوتك وأخواتك فى السمات والشبه؟ وماهو السر فى أن يولد أحد الاخوة أسود العينين والآخر أزرقهما، ولمَ تولد إحدى البنات شقراء الشعر، على حين تولد أختها فاحمته؟

كيف ينشأ أحدنا نحيف القوام بطبعه، على حين نرى الآخر بدين الجسم قويه؟ ولِمَ يولد أحدنا طويلا والآخر قصيرا؟ ولم يكون أحدنا عرضة لأمراض بعينها، وتكون فى الآخر مناعة طبيعية تحميه منها دون أخيه؟ لم يولد هذا فنيا ذا مواهب وكفايات فى الفنون. ويولد ذاك مفطوراً على حب الهندسة أو الميكانيكا، أو ينشأ ميالا الى الرياضة مثلا؟

وكيف يسهل على أحد الأولاد جمع الثروة ويكون النجاح دائما حليفه، حينما يخفق إخوته فى ذلك إخفاقا تاما، لم هذا كله؟ وكيف يتأتى ظهور كثير من العبقريين والنوابغ فى بيئات حقيرة خاملة؟ وجماع القول - كيف يختلف كل حى فى هذا الوجود عن كل حى آخر؟

* * *

هذه أسئلة عويصة، قد بدأ يجيب عليها علماء البيولوجيا والطبيعة - فى هذا العصر - وقد وفقوا الى حلها فى السنين الأخيرة، بعد أن نقضوا الفكرة القائلة بأن الناس يولدون جميعاً سواسية فى المواهب والكفايات، فقد اهتدى العلماء الى كثير من الحقائق الطريفة فى توريث المواهب العقلية والمزايا الجثمانية، وطريقة انتقالها من الأعقاب الى الذرارى. وعلاقة ذلك بمستقبل الناس وحظوظهم، وبعد أن طبقوا قوانين الوراثة الحديثة، ووفقوا الى حصرها

---

(١) ملخصة عن الانجليزية

وضبطها ، أصبحوا قادرين على توليد وتنشئة كثير من ضروب النباتات وأنواع الحيوان، بأحسن مما كانت ، وأكسبوها مزايا لم تكن في سابقتها ، وهم يؤملون الآن أن يفلحوا في تطبيق هذه القوانين لتنشئة مواليد وأطفال خير من أسلافهم وآبائهم .

* * *

منذ بداية القرن الحالي بدأت هذه الاكتشافات الجديدة - التي وصل اليها الباحثون في قوانين الوراثة وأساليب انتقالها - تغير من طرق البحث وتكشف للناس حقائق عظيمة الخطر .

ومن غرائب الأمور أن أول اكتشافها لم يكن في معامل التجاريب والمباحث الكيميائية - كما قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة - بل كان ذلك في حديقة دير !

* * *

عد بخيالك أيها القارئ نيفا وستين عاما ، وتمثل دير « كونجن كلوستر » القديم . في مدينة « برون » من أعمال النمسا . ثم أطلق العنان لخيالك متمثلا صلوات الصبح تتلى في ذلك الدير ، فيسرع راهب فاضل - كرس حياته للعلم ووهب نفسه للبحث والتمحيص - إلى التعمق في الدرس والاكباب على الفحص ، وقد انبعث من عينيه النفاذتين بريق أخاذ . ثم تمثله في حديقة ذلك الدير التي غرس فيها شتى صنوف النبات ومختلف أنواعه وفصائله . فاذا جاس خلالها ، لم يند عنه نبات واحد منها ، ولم يفته معرفة أي نوع مما غرس فيها وأصله وتاريخه ، وهو يمر فيها - المرة بعد الأخرى - فلا يغفل في كل مرة عن التحديق في هذه النباتات وإدمان النظر اليها ، إدمان فاحص مدقق ينعم

بصره فى أوراقها وجذوعها وزهراتها، ويتملى بها كما يتملى الانسان بأصدقائه وأحبابه: مستعيداً ـ لدى رؤيتها ـ ذكرياته وملاحظاته عليها.

ذلك هو العلامة القس «مندل» ـ رجل الدين والعلم معا ـ وهذه الحديقة هى معمله ومكان تجاربه العلمية. وقد دأب فيها ـ يوما بعد يوم. وعاما بعد عام ـ فاحصاً مدققاً البحث منعما النظر. فى نتاج الحبة من الحبة، وأثر تزاوج الانواع بعضها ببعض: وما يكسبه ذلك من مميزات الوراثة وخصائصها، وما يكسبه كل محصول جديد من قوى جديدة بفضل هذا الازدواج وكلما أخرج نباتاً حديثاً أكب على دراسته وتفهم ميزته بأناة وصبر عجيبين لا يعتورهما ملل ولا يخامرهما فتور: حتى وصل إلى قوانين ثابتة معززة بالعلم. مؤيدة بالعمل. وظفر بنظام جوهرى ثابت تخضع له الوراثة ويسير عليه قانونها.

* * *

وفى عام (١٨٦٥ م.) وقف الاستاذ «جريجور مندل» فى جمعية «التاريخ الطبيعى» بمدينة «برون» وأعلن المرة الاولى نتائج اكتشافه الجديد. ولكن هذه الآراء الثائرة لم تقابل بما كانت جديرة به من الاهتمام. وسرعان ما انسدل عليها ستار الخمول والنسيان: فلم يفت ذلك فى عضد هذا العالم: بل تلقى الصدمة بثبات الفيلسوف. وقال لأحد أصحابه مبتسما: «لم يحن زمنى بعد!»

* * *

ولئن مات هذا النابغة ـ ولم يمتد به زمنه لرؤية اسمه ذائعاً ومبادئه منتشرة ـ فقد تحققت نبوءته. وكتب لاسمه الخلود بعد موته!

ولقد مضى على دفنه خمسة وثلاثون عاما. كان يغمره الخمول والنسيان فى أثنائها: حتى إذا بدأ فجر هذا الجيل انبعثت آراؤه من مرقدها: وذاعت

حتى أصبحت اليوم من الآراء العلمية المقررة ؛ وقد عززتها تجاريب العلماء واختبارات الباحثين ، فلم تزدد – على التمحيص – إلا قوة ، وكان لها أكبر الفضل فى إنتاج أنواع جديدة صالحة من البذور والخضروات والأزهار ، كان لها أعظم الأثر فى تحسين أنواع الماشية وكرائم الجياد .

نشأة مندل

إن نشأة مندل وحياته الحافلة ، ليسا إلا مثالا صالحا لبيان ظاهرة من ظواهر الطبيعة العجيبة التى تخرج العبقريات الفذة والعقول الجبارة من البيئات المنحطة والأوساط الفقيرة ، فقد ولد « مندل » فقيراً ، فحال ذلك بينه وبين التعلم ، ووقف فقر ذلك الفلاح النمسوى ، عقبة كأداء فى طريقه ، لكن أخته ضحت فى سبيل تعليمه بمهر زواجها الضئيل ، فبعثت به إلى المدرسة ، ولما بلغت سنه الحادية والعشرين دخل الدير ، حيث بدأ يدرس طبائع النبات – إرضاء لغريزته وهوادفى بادىء الأمر – ثم عين مدرساً للتاريخ الطبيعى فى مدرسة « برون » الصناعية فنجح فى مهمته نجاحا لفت اليه أنظار رؤسائه فأعانوه وشجعوه على مواصلة دراساته وبحوثه فى جامعة « فينا » ولم يمر عامان حتى أتم دروسه بها ، وعاد إلى الدير حيث أجرى فى حديقته تجاريبه التى تعد – بحق – غزوا جديداً فى عالم العلم .

وكان قد ذاع اسم العلامة « داروين » وعرف خطره وأهمية مباحثه العلمية التى أدهشت رجال العلم واللاهوت فى كتابه « أصل الأنواع » وهو الذى وضع فيه أساس نظرية « النشوء » ولئن اعتمد داروين فى استنباط نظريته على ماشاهده من التخالف والتباين بين الكائنات الحية ؛ من نبات وحيوان ، إلا أنه اعترف بعجزه – اعترافا صريحاً – عن توضيح أسباب هذه

الاختلافات وتبيان الأسباب التى تجعل الفرع يغاير أصله. ولعل هذا وحده كان السبب الأول الذى دفع عالمنا « مندل » إلى البحث عن هـذا السر، وتوجيه جهوده إلى حله وفك معمياته!

ومهما يكن من أمر. فقد انقطع « مندل » لدرس مسائل الوراثة، وتفهم الأسباب والعلل التى نشأ منها تخالف الأفراد وتغايرهم! ولكن وميضا من الوحى، أوقبسامن الالهام، أنار له الطريق التى يسلكها للوصول الى ذلك التباين العظيم فى توريث أخلاق الناس وصفاتهم ومواهبهم

كيف استنبط مندل طريقته؟

أما الطريقة التى سلكها « مندل » فى استنباط قانونه، فهى سهلة واضحة يسهل منها تفهم الوسائل التى قادته إلى تلك النتائج الباهرة. فقد اختار بعض نباتات «البسلة» - بادىء ذى بدء - ورأى أن بعض عيدانها طويل والآخر قصير، وأن لبعضها أوراقا خشنة، على حين رأى أوراق البعض الآخر ناعمة، وشاهد أوراقا صفراء وأخرى خضراء. ثم أكب على درسها وفحصها إكبابا

وبدأ يغرس بذور بعض عيدانها الطويلة وعيدانها القصيرة. وكان يبلغ ارتفاع الأولى عدة أقدام ولا يزيد ارتفاع الثانية عن بضع بوصات. فلما نمت تلك العيدان وتم نماؤها، لقح بذور الأولى ببذور الثانية، مزاوجا بين كل بذرة من بذور العيدان الطويلة وأخرى من بذور العيدان القصيرة. ثم أخذ تلك الحبوب الجديدة فبذرها فى العام التالى، فكانت النتيجة على غير مايتوقعها القارىء، ولم يخرج النبات مزيجا من العيدان الطويلة والقصيرة، بل كانت سوقه كلها طويلة. فلما غرس حبوبها - بعد ذلك - غرساً عاديا وصل الى نتيجة أخرى لاتقل غرابة عن سابقتها، فقد ظهر الغراس

الجديد مزيجا من العيدان الطويلة والقصيرة . ولكن بنسبة مطردة هي نسبة ثلاثة عيدان طويلة إلى واحد قصير .

نتيجة هذه التجاريب

ومن ذلك استخلص « مندل » أن خصائص القصر قد انعدمت بالازدواج في النتاج الاول . وأن الطول ـ لهذا السبب ـ يطغى على القصر . وأن للأول صفات مؤثرة كما أن الثاني صفات متأثرة، فسمى الاولى صفات « قاهرة » والثانيـة صفات « مقهورة » أو إن شئت فسم أولاها « مخضعة » والثانية « خاضعة »

ثم استمر يزرعها كرة بعد أخرى . فإذا رأى ، رأى أن بذور العيدان القصـيرة لا تنتج إلا عيدانا قصيرة فقط . وأن ذراتها لا تكون إلا قصيرة دائمـا . أو بعبارة أخرى : أن ذات الصفات الخاضعة تظل ذرياتها على ما هي عليه وأن واحداً من كل ثلاثة عيدان طويلة يحتفظ في ذريته بميزة الطول .

قصير أصيل ---- الازدواج ---- طويل أصيل
النسل الاول ---- طويل مخلط
النسل الثاني
النسل الثالث

شكل هندسي يتبين منه القارئ قوانين الوراثة التي تكشفها « منـدل » في تجاريبه التي أجراها بعيدان « البسلة » بعد ازدواج بين طويلها وقصيرها . ومن هذا الشكل يتبين القارئ نتيجة الازدواج واضحة جلية

بينما يبقى الاثنان الآخران محتفظين بالنسبة السابقة في الذريات المتعاقبة بنسبة ثلاثة عيدان طويلة إلى عود قصير .

فلما طبق هذا القانون على نباتات أخرى وجده صحيحا . وظل يزيد في أشباه هذه التجاريب بطرق شتى . حتى توصل الى نظريته في الوراثة .

خاتمة ـ أهمية قانون مندل

ولقانون « مندل » خطر عظيم إذ هو أول من كشف للناس إمكان الانتفاع بميزات بعض الأنواع ـ من نبات وحيوان ـ ونقلها الى غيرها . والتوصل بذلك الى تحسين النوع . ولهذا خطره وأهميته الحيوية فى تربية الماشية والجياد وغيرها ومساعدة الفلاح على تحسين إنتاجه الزراعى أيضا .

على أن نفعه لايقف عند هذا الحد . بل يتعداه إلى تمكين الناس من استيعاب طبيعة الاشياء بوضوح وجلاء . وتفهم دقائق هذه المادة الضئيلة و نظم تركيبها وتأليفها . وسر ميزاتها وطريقة توريثها وانتقالها إلى ذراريها .

* * *

ولقد كان « مندل » متدينا . قائما بواجبات دينه بغيرة لاتقل عن غيرته العلمية التى دفعته إلى البحث . وقد رفعه رفقاؤه إلى رئاسة الدير فأبلى بلاء الصابرين ولم تفتر له عزيمة فى مكافحة السلطات الحكومية ودفع ظلمها .

واقد لقى فى كل خطوة من خطواته مثبطات ومؤيسات فما وهن عزمه ولا نكص أمامها . وغمره الخمول وجهل الناس به . فلم يتزعزع يقينه الثابت وإيمانه الراسخ لافى علمه ولافى دينه

والحق أن حياة هذا الرجل هى خير رد على أولئك القائلين إن العلم والدين لايتفقان . فقد ظل ـ بملاحظته الدائبة وبصره النافذ ـ يقرأ سفر الطبيعة الخالد مستوحيا منه قوانينها . وثم وجد مايزيد إيمانه بخالق الكون ومبدعه !

واقد قال : « إن زمنى سيجىء بعد قليل ! »

وقد جاء زمنه وصحت نبوءته !

آخرة العالم [1]

كيف تكون .... !

زحل — أشرف الكواكب دارا — من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ — من حدثان الدهـ ـر — مطف ، وان علت فى اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشـ ـمل — حتى تعد فى الافراد

(أبو العلاء)

ستنتهى آخرة هذا العالم الأرضى الذى نسكنه بانفجار عظيم هائل ! وليس لهذه الخاتمة من سبب إلا قدم عمره وتطاول أمده ، [2] وعالمنا الارضى شبيه بساكنيه فكما أن الانسان يتغضن وجهه وتتجعد بشرته ، وتبدو على أساريره خطوط الزمن واضحة جلية للناظرين . كذلك نرى الأرض كلما تقادم عمرها تصدع ظاهرها وبدت على سطوحها شقوق تذكرنا بما يبدو على أسارير الوجوه من أثر الشيخوخة [3]

وكلما كرت الأدهار ، وتقادم العالم الأرضى إتسعت هـذه الشقوق

---

(١) نشرت بمجلة الاخاء ، ملخصة عن الانجليزية وهى نبوءة عالم فلكي — كبير بعد دراسة طويلة — وقد شرح فيها بايجازا الأسباب التي تعمل دائبة على تقويض عالمنا الارضى وغيره من العوالم الاخرى التى بادت — أوتبيد — فى غابر الزمن وقابله .

فاذا لم يشأ القارئ تصديقها كحقيقة علمية فليقرأها على أنها خيال ممتع رغم مافيه من تنبؤات مروعة مفجعة .

(٢) فى مثل هذا المعنى يقول أبو العلاء

تطاول عمر الدهر حتى كأنما نجوم الليالي شيب هذى الغياهب

(٣) وصف ابو العلاء الدهر بالشيخوخة أيضا فقال :-

إن خرف الدهر ، فهو شيخ أحق بالهتر والزمانه

وعظمت حتى يصبح كل شق منها هاوية عظيمة ، ومتى بلغت غاية اتساعها تفكك عالمنا وتناثرت أجزاؤه فى الفضاء وأصبح فى خبر كان !

وستصحب هذه الخاتمة فرقعة هائلة وانفجار مروع لاقبل لأحد بوصف هوله وروعه ، ثم يعقبه تبدد الكرة الأرضية وصيرورتها قطعاً لا يحصيها العد ، تسبح فى أجواز الفضاء اللانهائى !

ثم ماذا ؟

ثم يسير العالم الأكبر سيرته الأولى غير حافل بما حدث ، وتظل المجموعة الشمسية غير متأثرة بهذا الحادث الهائل كأن شيئاً غريباً لم يحدث

ولكن العالم سيشهد قبل هذه الخاتمة مصرع القمر . وسيجتمع الناس مسرعين الى قلل الجبال وكل مرتفع من الارض ليشاهدوا هذا القمر الذى أدركه الفناء ـ واسلمته شيخوخته الى الوهن والضعف ـ . وثم يرونه هاويا بددا فى أجواز الفضاء الى حيث لا رجعة له ولا عود وسيكون انفجار شبيها بانفجار قنبلة عظيمة ، ثم تبطل جاذبيته ـ بعد فنائه ـ ولا نعود نرى مداً ولا جزراً ؛ وتصبح الليالى دائما وأبداً حالكة الظلام . ليس فيها من النور إلا بصيص ضئيل منبعث من النجوم لا يكاد يغنى سناه شيئاً :

سيذكرنى قومى ـ إذا جد جدهم   وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

وإذ ذاك ينقطع عن الشعراء مصدر من مصادر الوحى والالهام . ويغيض ينبوع فياض من ينابيع الشاعرية السامية . ولا يعود القمر إلا ذكرى تاريخية . وأثراً يتحدث به الناس وأعقابهم ويروون مصرعه . كما تروى الأخبار والأحاديث !

ثم تمر عصور أخرى وتجىء أمم متعاقبة كثيرة لا تعد . يشهد

الناس بعدها منظرا آخر لا يقل روعة عن سابقه . ذلك هو مصرع المريخ، بنفس الطريقة التى أسلفناها فى ذكر القمر ، ثم يذهب المريخ شذر مذر فى فى أجواز الفضاء اللانهائى

ثم تمر عصور وأجيال عدة الى أن يحين موعد فناء العالم الأرضى ، وتمر ملايين أخرى من السنين ثم يحين مصرع الشمس بنفس الطريقة ، وعلى هذا الأسلوب . وكذلك ، يصير كل شىء الى فناء . (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)

هذه هى خلاصة النظرية الغريبة التى تقدم بها الدكتور « ونسمور التر » حديثا الى الناس . والدكتور من كبار رجال العلم وأساطين الفلك . وهو رئيس الجمعية الفلكية بجامعة « كانساس » وهذه النظرية وليدة دراسة عميقة واسعة استمرت خمسة عشر عاما قضاها الدكتور باحثا مدققا . بين أختبارات فلكية وتجاريب علمية . وأستعانات بكل معدات البحث العلمى والفلكى الحديثة ! فقد رأى من دراسة الكواكب الصغيرة والنجيمات والنيازك أن صغرها يدعو لقصر أعمارها وتبديدها فى الفضاء متى حانت ساعتها ، ورأى أن السبب فى إبادتها هو - بعينه - السبب فى إبادة ماهو أكبر منها . بعد أن يمضى عليها عمر أكبر من تلك يتناسب مع عظم حجمها ، وإنما أيقن بصحة نتائجه لانه رأى هذه وتلك جميعا من عنصر واحد . ورأى أثر الزمن ومرور الأجيال وتعاقب الدهور عليها ينتج نفس الأثر الذى أسلفنا ذكره . فيبدو واضحا فى صغار الكواكب والاجرام السماوية ، ويقل ظهوره كلما عظم الكوكب !

" الكوكب المفقود "

وقد شاهد أجراما تهوى متساقطة قطعا عدة مختلفة الاحجام، بعضها لايزيد على حجم الكرة فى حين يبلغ الآخر سعة مدينة بأسرها!

ويعلل الدكتور هذه النيازك والشهب الساقطة التى نراها هاوية من السماء، بأنها بقايا عالم بائد ربما كانت فناؤه منذ ملايين من السنين . أى قبل أن يخلق الأنسان الاول بعصور وأجيال لاتحصى ! والدكتور يقرر أن هذه الشهب دليل لاسبيل الي الشك فى صحته وصحته على وجود أمثاله

فقد لفت نظر هذا العالم الكبير واسترعى انتباهه . مارآه بين كوكبى المريخ وعطارد من الفراغ الهائل . الذى هو أشبه بهوة عميقة . أوقل - إن شئت - إنه فراغ غير طبيعى لاتبرره قوانين الفلك ولاتجيزه نظم المجموعة الشمسية . وهذا الفراغ قد كان بلاشك مشغولا بكوكب . فلما زال منه بقى مكانه فارغا ، وأصبح هذا الفراغ دليلا عليه : ويعزز هذا مايراه الفلكيون من تلك النجيمات العديدة التى تحيط بهالة الشمس وتدور حول نقطة بعينها فى هذا الفراغ . مما يدل دلالة صريحة على أن كوكبا كان يحتل هذه البقعة التى كانت تلك النجيمات تدور حوله ، فلما أختفى ظلت تلك على حالها من الدوران دالة على ذلك الكوكب البائد الذى أدركه البوار فى هذا المكان على أن ثمت كثيراً من البقايا والأجسام تزيدنا وجودها أقتناعا بما أسلفناه من القول : وقد اكتشف الدكتور " التر " كثيراً من هذه القطع النجمية - كما أكتشف الباحثون نحو " ١٢٠٠ " قطعة منها - فاستدل الدكتور بعد فحص دقيق أن ذلك الكوكب المفقود قد كان أكبر من عطارد وأصغر من المريخ بكثير

ماسبب انفجار الكوكب ؟

ولكن ما الذى سبب له الدمار وأدى به إلى هذه النتيجة ؟

يعلل الدكتور سبب حدوث ذلك بأن العوامل التى انتهت بهذا الكوكب هى بنفسها العوامل الهدامة الدائبة على إبادة كل فرد من أفراد هذه المجموعة الشمسية!

لاجرم أن الانسان يعلم أن كل جسم — مهما بلغت صلابته — تمدده الحرارة وتقبضه البرودة . وقد كانت الارض ـ كما كانت الكواكب الأخرى ـ ناراً متأججة ثم بردت تلك الكتل النارية الحامية على مر العصور والأزمان فانقبضت شيئاً فشيئاً بسبب ما اعتورها من البرودة ! وبدهى أن السطح يبرد أسرع من الجزء الداخلى ، ومن هذا تنقبض تلك القشرة الباردة المتقاصة أنقباضاً شديداً على الجزء الداخلى من الأرض وينجم من هذا الأنقباض الشديد ضغط شديد فى الداخل وكلما زاد عمر الأرض — أو الكوكب — زاد حجم السطح البارد ومن ثم زاد ضغط سطحه على أوسطه حتى يبلغ الضغط أقصاه!

ولو أن مادة السطح الصلب مادة مرنة — كالمطاط مثلا — لتمددت وامتطت فساعد ذلك على مطاوعة الجزء الداخلى وتلافى الضغط عليه ، ولكن الأمر على عكس ذلك وهذا هو السبب فى تشقق السطح ولا يزال الزمن يكر فيقدم عمر الكوكب و يبرد سطحه فيضغط على وسطه فيتشقق ثم تزداد تلك الشقوق على توالى الدهور حتى تصبح هوّات عميقة ثم تزداد هذه الهوات اتساعاً وعمقاً حتى تصل الى الأعماق وهنا يتصدع الكوكب ويتحطم كله الى الابد !

كيف انفجر الكوكب ؟

وقد هدتنا التجاريب الفلكية والدراسات الدقيقة للافلاك والكواكب الى الطريقة التى انفجر بها ذلك الكوكب البائد فقد بدأ تحطمه بانقسامه الى أربعة أقسام كبيرة ثم اعتور كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة مااعتور الكوكب الاصلى من قبل ومر بكل تلك الادوار التى أسلفناها وحدث لها ماحدث لابيها الاول من الدمار وربما كان تحطيمها على نفس الطريقة السابقة !

قال الدكتور « ألتر » :

« ولو أن الناس عاشوا قبل مصرع هذا الكوكب . وشاهدوا انفجاره فى ذلك الوقت لما سمعوا له فرقعة ولا أحسوا صوتا . ذلك أن الصوت يحمله الهواء ؛ وليس فى ذلك الفضاء هواء يحمل صوت انفجاره إلينا ، وكل مايشاهده الناس من هذا الانفجار الهائل ضوء لامع منه . ومن الممكن جداً أن تصبح أجزاء هذا الكوكب « نجيمات » صغيرة فى أجواز الفضاء

ومما يجدر ذكره أن فرقعة ذلك الكوكب لم تحدث تغيراً فى سير الكواكب الأخرى ولا فى العلاقة التى بين كل منها والآخر . فان الجاذبية التى كانت فى الكوكب البائد هى - على عظمها - غاية فى الحقارة والضؤولة بالقياس الى المجموعة الشمسية

وإذ كان هذا الكوكب بعيداً عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال بعد الارض عنها وكان يصل اليه من حرارتها مقدار يعدل ثمن مايصل الينا ، فان أكبر الشك أن مظاهر الحياة لم يكن لها وجود فيه ، على أنها لو وجدت لما بقى لها أقل أثر بعد تحطمه وانفجاره

آخرة القمر

ثم يقول الدكتور « ألتر » :

وسيكون القمر ثانى كوكب يدركه الفناء — بعد ذلك الكوكب الذى أسلفنا ذكره — فى المجموعة الشمسية

والقمر - بالرغم من أنه ليس أقدم من أمه « الارض » - سيلاقى حتفه قبلها . والسبب فى ذلك أنه أصغر منها حجما . وهو لهذا أسرع منها الى البرودة . سرعة تتناسب مع صغر حجمه عنها

قال الدكتور : وإن الانسان ليستطيع الآن أن يشاهد من خلال «التليسكوب» فجوات واسعة بادية على سطح القمر

آخرة المريخ ...

أما انفجار المريخ فسيسبق انفجار الأرض ؛ وإنما كانت آخرة هذا الكوكب قبل آخرة عالمنا الأرضى . لبعده عن الشمس وماينشأ على هذا البعد من قلة النصيب الذى يناله من حرارتها . وليست هذه القنوات البادية على سطح المريخ - كما يظن الدكتور - إلا شقوقا وصدوعا عظيمة حدثت فوق سطحه وفق هذه النظرية المقررة ؟

آخرة العالم الأرضى ...

أما الأرض فلا خوف عليها . ولن تبيد قبل أن تمر عليها ملايين من السنين . قال الدكتور : « وإن سطح الارض - كما نراه الآن — على أحسن مايرام . وحرارتها الداخلية بالغة من الاتقاد والشدة أوفى الغايات وأكفاها بالصون من أن تباد مدة عصور طويلة وآباد عديدة . وليست الزلازل فى رأيى علامة منذرة بقرب فناء الأرض . فهى صدوع محلية بسيطة

لاخطر لها . وليس كذلك ما نرويه من انصداع الارض فان تلك التى تحدث عنها هى انشقاقات متغلغلة فى أعماق الارض وكم من تصدعات يصل عمقها ألف ميل لا يكون وجودها محتوما وما زما إبادة هذا الكوكب ، وغاية ماتدل عليه أمثال هذه الشروخ أن تكون نذيراً من نذر الرعب ان تحدث فى زمنهم من الناس . على أنها — فى حقيقة أمرها — ليست إلا رسالة تنبىء الناس بما يتهدد الارض من بوار بعد ملايين قليلة من السنين !

آخرة الشمس

قال الدكتور :

«ولن تشذ الشمس أيضا عن هذه القاعدة . فسيلحقها العدم وتجرى عليها أحكامه — كما جرت على سواها يوما ما وإن تأخر ذلك ترليونات من الأعوام ولنعلم أن الشمس تفقد من حرارتها فى كل ثانية من الثوانى (٤٠٠٠٠٠٠) أربعة ملايين طنا من كتلتها النارية بسبب مايشع من حرارتها فى الفضاء وهذا القدر الذى تفقده — بالغا مابلغ من العظم الهائل فى نظرنا — ليس شيئا مذكورا إذا قسناه إلى حجم الشمس الذى لا يتأثر تأثيراً يذكر بما يفقده من الحرارة — عن طريق الإشعاع — فى مليون من السنين »

دراسة الاجرام الفلكية الصغيرة

وقد تكبد الباحثون ألوانا من العناء والتعب فى دراسة هذه القطع المتناثرة وفحص هذه الاجرام الصغيرة والنيازك التى يتعسر بل يتعذر رؤيتها بالعين المجردة نظراً لبعدها وصغر أحجامها . ومن هنا يعلم القارىء مقدار مابذله الدكتور « ألتر » من الجهد العلمى فى تتبع سيرها ودرس نظمها .

حتى وصل إلى هذه النتائج الحديثة التى أفاد بها علماء الفلك ووسع بها دائرة معارفهم ، ولقد كان العلماء حتى أوائل القرن الماضى ـ التاسع عشر ـ لا يعرفون شيئاً عن عالم هذه الأجرام الصغيرة — «النجيمات» — ولا يدرون بوجودها ، وأول ما اكتشف منها هو «نجيم سيرس» فى سنة ١٨٠١ بفضل العلامة الفلكى «كبلر» وهو — على أنه أكبر هذه الفصيلة ـ لا تكاد تراه العين المجردة ، إذ يبدو للناظرين فى مثل دقة رأس الدبوس إذا نظرت من بعد ميل ! أما قطر هذا « النجيم » فيبلغ ٨٤٠ ميلا أى أقل من المسافة التى بين « نيويورك » «وكليفلاند » وتقدر زنته بنسبة واحد إلى ثمانية آلاف من ثقل الأرض

وقد ذكروا « نجيمات »أخرى أصغر من هذه . اكتشفوها حديثا، لانحسبها تعنى القراء كثيراً . ومما ذكروه «نجيم ايروس» الذى يبلغ قطره خمسة عشر ميلا وهو يقترب من الأرض أكثر من أى جرم آخر ، وأحدث اقتراب له كان على بعد (١٣،٨٤٠،٠٠٠) ميلا . أى أكبر بقليل من نصف المسافة لى كوكب « فينيس» وهو مع ذلك القرب يبعد عن الارض بمسافة يحتاج قطعها ثلاث سنوات بسرعة خمسمائة ميل فى الساعة وقد زار هذا الكوكب عالمنا الارضى فى عام (١٨٠٤) عقب أن تكشفه العلماء . وزارها مرة أخرى فى عام (١٩٠١) . وحينذاك توفر العلماء الفلكيون على درسه ومراقبته بدقة وانتباه وسيزورنا مرة ثالثة فيما بين عامى (١٩٣٠ — ١٩٣١) فلا يزيد بعده عن الارض أكثر من (١٦،٢٠٠،٠٠٠) ميلا أى نحو سدس المسافة الى الشمس

ولم يقتنع العلماء الآن بهذه الدراسات . فتألفت منهم جماعة من أساطين الفلكيين وشرعوا فى إعداد معدات أدق وأجدى من تلك لاستيعاب الاحجام الفلكية وقياس المسافات بغاية الدقة والضبط ، ومن هذه الأجرام

التى يدرسونها الآن ماوصل قطره إلى ثلاثة أميال ، أمامايقل جرمه عن هذا القدر فمن المحال رؤينه حتى بأدق أنواع التلسكوب ، وإن كان من المحقق أن فى الفضاء عدداً كبيراً من هذه الفصيلة الصغيرة وإن لم نره ولـكن حب العلم لايقف عن حد ، وقد قيل « منهومان لايشبعان ، طالب علم وطالب مال » لذلك لم يقف العلماء عند هذا القدر ـ وهو عظيم ـ فشرعت جامعة «كانساس» تعد « تلسكوباً » حـديثاً يصنع تحت إرشاد « الدكتور التر » سيتم عمله آخر هذا العام ، خصيصاً بدرس الأجرام الصغيرة

« كلمة ختامية »

والآن يسائل القارىء نفسه : «وماذا تكون حال الناس ؟ وكيف يكون شعورهم إزاء هذه النكبة المتوقع حدوثها ؟ وكيف يتلقون هذا الفناء المحقق ؟ » وهذا سؤال طبيعى ، يجيب عنه الدكتور « ألتر » بغاية البساطة فيقول :

من المحتمل أن تنقضى كل آثار الحياة من الارض قبل انفجارها بزمن طويل ، ولوجاز أن تكون ثم حياة — رغم ذلك البرد القاسى الذى لايحتمل ـ فلن يكون لها بعد انفجار أمنا الارض بقاء !

وإنه ليحلو لنا أن نسبح قليلا فى العالم الخيالى ، إزاء هذه الخاتمة المروعة ، فنتمثل علماء ذلك العصر قد فكروا دائبين — بعد أن شاهدوا مصرع المريخ ـ فى تلافى هذه الخاتمة إذا ألمت بالأرض وأعدوا المعدات لها وربما أوغلنا فى عالم الخيال ؛ وسرنا فيه مرحلة أخرى فتمثلنا المهندسين ـ إذ ذاك ـ وقد اهتدوا إلى آلات واختراعات غريبة ينقلون بها سكان هـذا العالم ـ قبيل انفجاره ـ إلى عالم آخر من العوالم الفلكية تصلح للحياة فأقاموا فيه ، واستغنوا بذلك عن العالم الأرضى . . .

صور جديدة من الأدب العربي[1]

مناظرة الكسائى وسيبويه

مسألة العقرب والزنبور

«وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم * لولا التنافس فى الدنيا لما أضما
والغبن فى العلم أشجى محنة علمت * وأبرح الناس شجوا عالم هضما»
«حازم القرطاجنى»

***

كان من أثر المناظرة التى قامت بين «الهمذانى» و«الخوارزمى[2]» أن «الخوارزمى» مات بعد قليل من الزمن ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة. وكان من أثر المناظرة التى قامت بين «الكسائى» و «سيبويه» أن «سيبويه» مات كمدا وهو فى ريعان شبابه وجن نشاطه ـ كما يقولون ـ ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة. وليست الطرق التى لجأ إليها «الكسائى» بأقل قسوة من تلك الطرق التى سلكها «الهمذانى» للتغلب على «الخوارزمى» والانتصار عليه.

***

ولقد قلنا فى المناظرة السابقة إن «الهمذانى» قد أعد عدته وهيأ لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه وزج به فى مجلس كله خصومة ولدد. ونقول فى هذه المناظرة إن «الكسائى» لم يقصر فى إعداد كل الوسائل لهدم «سيبويه» ولم يتعفف عن شىء فى سبيل الانتصار عليه.[3] وإذا كان «الهمذانى»

---

(١) مقال مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان وقد نشر تباعا فى مجلة المقتطف.
(٢) راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٢٩ ص (٥٥) (٣) قالوا: «وقد أرشى الكسائى العرب ـ وكانوا جماعة من المسترزقة الذين كان يعولهم ـ على ترجيح جانبه»

قد لجأ إلى تملق شهود المناظرة لينصروه على «الخوارزمى» واشترى ذممهم بهذه الحيلة فان الكسائى قد لجأ أيضا إلى نفوذه وجاهه وماله واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على «سيبويه»

ولئن شكونا فى المناظرة السابقة قلة المصادر التى نرجع اليها فى تحقيقها ولم نجد غير رواية «الهمذانى» نفسه - وهى رواية خصم عن خصمه - فان ما نشكوه فى هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها وتباين رواياتها وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه .

على أن هذه الروايات - رغم اضطراب بعضها واختلافه فى التفاصيل - متفقة فى الأساس والجوهر . فهى - من أية ناحية رأيت وبأية رواية أخذت - تدل على أن سيبويه قد ظُلم وأن الحق كان فى جانبه

فقد أجمع علماء النحو واللغة - فى زمن سيبويه وبعد زمنه - على أن الصواب ماقال وأن الكسائى كان فى الجانب الخاطىء . ولم يشذّ عن هذا الاجماع إلا شيعة الكسائى والطامعون فى ماله أو جاهه والمحسوبون عليه وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية

وليست هذه المناظرة على الحقيقة - إن صح أن نسميها مناظرة - إلا نضالا بين مذهبين وحربا بين مدرستين . مدرسة الكوفيين ومدرسة البصريين أساتيذهم ، ممثلتين فى شخصى الكسائى زعيم علماء النحو فى الكوفة وشيخ مدينة السلام . وسيبويه زعيم علماء النحو فى البصرة وتلميذ الخليل ابن احمد بن سيد أهل الأدب - كما كانوا يلقبونه - وقد لعبت الأهواء من سياسة وغيرها فى تغليب رأى الكسائى على رأى سيبويه (١)

(١) كان العباسيون يقربون منهم الكوفيين لأنهم نصروهم فى دعوتهم وكان لهذا

***

على أن فضل سيبويه ذائع ـ رغم انتصار الكسائى عليه ـ وكتابه الذى ألفه فى النحو لم تبل جدته إلى اليوم ولايزال كتاب نحو وأدب معاً وأسلوبه فى أعلى طبقات البلاغة ، وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ! » تعظيما لشأنه، وكان الزجاج [١] يقول : « إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة»

وقال الجرمى [٢] : « أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه » [٣]

وقال المازنى : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى »

***

وقد كتب سيبويه هذا الكتاب الخالد فى الوقت الذى كان فيه الكسائى منصرفاً إلى المناصب والاتصال بالخليفة والدعاية لنفسه بأنه العالم الفذ الذى استنفذ خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب وأن هذا زيادة على ماحفظه ، إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التى لايعنى بها المنصرفون إلى العلم حقا والتى هى أشبه بالاعلانات التجارية ، وهذا أسلوب فذ فى الدعاية لجأ إليه الكسائى ـ فى جملة مالجأ ـ للوصول الى الشهرة .

وإذا رأينا علماء اللغة وأئمة النحو يحترمون «سيبويه» ويقرون مذهبه،

الاعتبار أكبر الاثر فى اتصالهم بالخلفاء .

(١) أبو اسحق الزجاج (٢) أبو عمر الجرمى

(٣) يريد بذلك أنه تعلم منه النظر وطريقة البحث الدقيق

رأيناهم ـ على العكس من ذلك ـ ينفرون من مذهب الكسائى ويرون فيه إفساداً للغة وإضاعة للنحو

قال بن درستويه : « كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لايجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا يقيس عليه حتى أفسد بذلك النحو »

وقال الأصمعى : « أخذ الكسائى اللغة عن أعراب من الحطمة ينزلون بقُطر بُل ، فلما ناظر سيبويه استشهد بلغتهم عليه » .

وقال محمد اليزيدى :

« كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل فى نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائى وأصحابه ... يرقون فى النحو إلى أسفل »

وقال الزجاج : « أى إنصاف فى الرجوع الى أعراب وفدوا لحاجتهم ، وسيبويه رجل غريب وأخصامه أهل البلد والدولة ؟ وإنما الحكم العارف بالصحيح وغيره ؛ وقد لا يعرف الأعرابى إلا لغته الشاذة » الى آخر هذه الآراء.

وقد أشار «المعرى» إلى تحامل الكسائى على سيبويه فى رسالة الغفران ـ وألمع إلى بعض المناظرات التى قامت فى ذلك العصر ـ الحافل بالمناقشات والمناظرات بين علمائه ـ فقال فى معرض الكلام على تناسى الحسائك والأحقاد فى الجنة بين ألداء الخصوم :

« فصدر أحمد بن يحيى [1] هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد [2] فصارا يتصافيان ويتوافيان

---

(١) ثعلب (٢) المبرد

وأبو بشر عمرو بن عثمان « سيبويه » قد رحضت سويداء قلبه من الضغن على « على بن حمزة الكسائى » وأصحابه لما فعلوا به فى مجلس البرامكة

وأبو عبيدة صافى الطوية لعبد الملك بن قريب [١] ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » [٢]

كيف كانت المناظرة

لم يكد يرد سيبويه إلى العراق حتى شعر الكسائى أن مركزه العلمى فى خطر وأن منافساً جديداً يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة .

قالوا : « وشق أمره على الكسائى فأتى يحيي وجعفر بن برمك وقال: « أنا وليكما وصاحبكما ، وهذا الرجل إنما قدم الى العراق ليذهب محلى » .

قالا : « فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما »

وهكذا دبرت المؤامرة فى بيت البرامكة لهدم سيبويه ؛ فلما حان الموعد حضر سيبويه وحده، وجاء الكسائى ومعه الفراء والأحمر وغيرهما من أصحابه ، فسأله الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبه عنها حتى قال له : « أخطأت» وسأله عن ثانية فأجابه فقال له « أخطأت »

ثم سأله عن ثالثة وقال له — : « أخطأت »

فقال له سيبويه — : « هذا سوء أدب منك »

فقال الفراء لصاحبه — : « يظهر أن فى هذا الرجل عجلة وحدة »

وسأله الأحمر عن عـدة مسائل فكان يخطئه فى كل جواب يفوه به .

قالوا — :«فلم ير سيبويه إلا أن يكف عن مناقشتهما.»

---

(١) الأصمعى (٢) ارجع الى رسالة الغفران (جـ ١ ص ٦١)

وهنا يقول له الكسائى ـ ولعلك تلمح فى جملته معنى التحقير والاستصغار :ـ

« يابصرى كيف تقول :

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى ، أو فاذا هو إياها ؟ »

قال ـ : « أقول فاذا هو هى » .

فأقبل عليه الجمع فقالوا « أخطأت ولحنت »

وفى هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك : «هذا موضع مشكل حتى يحكم بينكم ! » فيقول الكسائى :

« هؤلاء الأعراب على الباب »

قالوا : «فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه »

فقال لهم الكسائى : كيف تقولون : « قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا الزنبور إياها بعينها »

فقالت طائفة ـ : « فاذا الزنبور هى »

وقالت أخرى ـ : « فاذا الزنبور إياها بعينها »

فقال الكسائى : ـ « هذا خلاف ماتقول يابصرى ! »

***

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبويه ـ وهو الغريب المستوحش ـ فيقول له مايشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائى وشيعته :

« قد تسمع أيها الرجل ! »

فلا يكاد يسمع سيبويه هذه الجملة حتى يستكين ، ويسرع الكسائى إلى

يحيى فيقول له حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت وأن الغلبة قد تمت له:

« أصلح الله الوزير ؛ لقد وفد عليك من بلده مؤملا فان رأيت ألا ترده خائباً ؟ »

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم .

* * *

وكأنما ألف الكسائى أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التى يسعى إلى الانفراد بها عند الخليفة ، ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التى سببها له .

على أن الكسائى طالما اشترى بالمال ألسناً وذمماً !

ألا ترى إلى الأخفش يذهب إلى الكسائى غاضباً — بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معهُ — فيسأل الكسائى وهو بين تلاميذه ويخطئه فى كل جواب يقوله ، فيهمُّ تلاميذ الكسائى بضربهِ فيمنعهم من ذلك ـ خوفاً من ذيوع أمره — ويقبل عليهِ فيعانقهُ متحبباً اليهِ ويعهد إليه بتعليم أولاده ويرشوه بالمال فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه ؟

ولقد كان من بين تلاميذ الكسائى من هو أعلم منهُ وأجدر بالزعامة ـ كالفراء مثلاً ـ وما كان مثل الفراء ليقبل أن يكون تلميذاً للكسائى لولا طمعهُ فى جاهه وماله وأمله فى أن يتصل بالخليفة ـ بفضل صحبته لهُ ـ وقد تم له ما أراد بعد ذلك .

* * *

وربما استشهد لنا أحد الأدباء الناقدين بقول الفراء نفسه للتدليل على فضل الكسائى :

قال لى رجل : « ما اختلافك إلى الكسائى وأنت مثله فى النحو ؟ » فأعجبتنى نفسى فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء ، فكأنى كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر

فإن أمثال هذه المدائح يجب أن تفهم على وجهها الصحيح ؛ فهى نوع من تملق ذوى النفوذ طمعاً فى جاههم وتقرباً اليهم !

ألا ترى إلى ابن الرومى نفسه — وهو الشاعر الفحل — يلجئه العوز والفاقة ونكد الدنيا إلى امتداح بيت سخيف لابن المعتز ، حين سألوه : « لِمَ لَمْ تشبه مثل تشبيه ابن المعتز فى قوله :

وبدا الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر »

فتظاهر لهم بإكبار معنى هذا البيت التافه وإعجابه بما فيه من تشبيه متكلف وعجزه عن محاكاته — تملقاً لقائله — لرفعته وسمو منزلته ؟

ولقد سئل الفراء نفسه عن الكسائى بعد موته فقال :

« مات الكسائى وهو لا يحسن حد نعم وبئس وأن المفتوحة [1] »

ولا نظننا متحاملين على الكسائى حين نثبت هنا ما يرويه بعض المؤرخين عنه من أنه كان متهتكاً فاجراً ، ونحن نروى ذلك بشىء من التحفظ فلا نصححه ولا ننفيه، فلعله من دسائس البصريين، على أننا لا نستبعده ، فليس اتصاله بالخليفة وتعهده أبناءه بالتربية مما يعصمه من اقتراف الدنايا والآثام ولو سراً .

وقد تعلم الكسائى — وهو كبير — وانصرف سيبويه الى العلم منذ حداثة

---

(١) ومن العجيب أن أحدهم قال فى الفراء نفسه — بعد موته — : « مات الفراء وفي نفسه شيء من حتى » وإن كان الفرق بين العبارتين واضحا

نشأته وأعجب الخليل بن أحمد بذكائه وكان يرحب به[١] وقد شهد له أكبر علماء النحو بالتفوق والفضل ؛ وقد استعان بكتابه خصومه أنفسهم، فقرأ الكسائى على الأخفش كتاب سيبويه رأ أعطاه سبعين ديناراً ــ أجراً على ذلك ــ وقد وجد بعضه تحت وسادة الفراء التى كان يجلس عليها ، كما قال النحاس .

راى النحاة فى هذه المسألة

قالوا : « وأما سؤال الكسائى فجوابه ما قال سيبويه وهو « فإذا هو هى » هذا هو وجه الكلام مثل : « فاذا هى بيضاء » ، « فاذا هى حية » وأما « فإذا هو إياها » ــ إن ثبت ــ فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء ، ولا يعتدُّ به ، كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل ، وسيبويه وأصحابهُ لا يلتفتون لمثل ذلك وإن تكلم به بعض العرب . »

***

وقد لخص «حازم القرطاجنى[٢]» هذه المناظرة فى منظومته الجميلة فى النحو التى يقول فيها ــ :

والعرب قد تحذف الأخبار بعد «إذا» ... إذا عنت فجأة الأمر الذى دهما
وربما نصبوا بالحال بعد «إذا» ... وربما رفعوا من بعدها رُبَّما
فإن توالى ضميران اكتسى بهما ... وجه الحقيقة من إشكاله غمما
لذاك أعيت ــ على الأفهام ــ مسئلة ... أهدت الى سيبويه الحتف والغمما
« قد كانت العقرب العوجاء أحسبها ... قدما أشد من الزنبور وقع حما »
وفى الجواب عليها هل «إذا هو هى» ... أوهل « إذا هو إياها» قد اختصما

---

(١) كان الخليل يقول له : « أهلا بزائر لا يمل مجلسه » ولم يكن يقولها لغيره

(٢) هو الامام الاديب «أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني الانصاري»

وخطأ ابن زياد [١] وابن صخرة [٢] في ما قال فيها أبا بشر [٣] وقد ظلما »

الى أن يقول :

« وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم لولا التنافس في الدنيا لما أضما
والغبن ـ في العلم ـ أشجى محنة علمت وأبرح الناس شجوا عالم هضما »

* * *

وقد حدث لأبي عثمان المازني ماحدث لسيبويه ، قال :

« دخلت بغداد فألقيت علىَّ مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم . »

قالوا : « وهكذا اتفق لسيبويه »

وجماع القول أن سيبويه هزم رغم فضله وعلمه وكونه في جانب الحق ، ولم يكن له بد من السكوت والرضى بالهزيمة في هذا المجلس الحاشد .

* * *

ومثّل لنفسك أيها القارئ مجلساً حافلاً بأعيان الدولة وقادة الرأى فيها ، يجمع مثلاً على أن « لم » تنصب ولاتجزم وأنت وحدك تقول « إنها تجزم ولاتنصب ، وإن العرب لا تعرف غير ذلك » وهم لايسمعون لك قولاً ، فأية حجة تستطيع أن تدلى بها في مثل هذا المجلس المتحامل الذى ينكر عليك مالاسبيل الى إنكاره ؟

كذلك كان موقف سيبويه ، يقرر قاعدة أجمع علماء النحو على أن خلافها شاذ لايؤخذ به ، فلا يقبل منه قول .

ولقد كان في لسان سيبويه حبسة ـ كما يقولون ـ ولكنها لم تكن السر في

---

(١) الفراء (٢) الكسائي (٣) سيبويه

هزيمته[1] فهو لم يقصر فى الكلام . ولم يكن ذلك المجلس المتحامل عليه فى حاجة إلى خطيب لسن ، بل كان فى حاجة إلى آذان واعية وقلوب لم يفسدها الهوى والغرض .

وهكذا تمت الهزيمة ، فذهب « سيبويه » الى فارس ، ولم تطل مدته بعد ذلك .

قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسهُ فى حَجْز أخيهِ فبكى أخوهُ لمَّا رآهُ — لِمَا بهِ — فقطرت من دمعهِ قطرة على وجههِ ، فرفع سيبويه رأسهُ اليهِ فرآهُ يبكى فقال — :

« أُخيَّين كنا ، فرّق الدهر بيننا
إلى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا ؟ »

ولقد قضى سيبويه جل حياته فى الدرس على خير أساتيذ عصره لاسيما الخليل ويونس ، ومات بعد أن ألف كتابهُ الخالد وإن كان لم يُدَرِّسْهُ . وختمت حياة هذا العالم الجليل دون أن يجنى ثمر جهاده . رحمة الله عليهِ وعلى شيخيهِ الجليلين الخليل ويونس !

« تولى سيبويه ، وجاش سيب — من الأيام فاختل الخليل[2]
ويونس أوحشت منهُ المغانى — وغير مصابهِ النبأ الجليل
أتت علل المنون ، فما بكاهم — من اللفظ الصحيح ولا العليل
ولو أن الكلام يحس شيئاً — لكان لهُ وراءهم أليل »

---

(١) فقد ناظر سيبويه بعض العلماء ولم تمنعه حبسة لسانه عن الانتصار عليه ، قال عمرو بن مرزوق : رأيت سيبويه والاصمعى يتناظران ويقول يونس ابن حبيب — : « الحق مع سيبويه وقد غلب ذا — يعني الاصمعى — بلسانه »

(٢) الشعر لأبي العلاء .

فى بلاد العمالقة [1]

قصر العملاق

ولاح لنا قصر كبير — على مسافة بعيدة من الجزيرة — فقصدنا إليه . حتى بلغناه ، فوجدناه قلعة شاهقة محكمة البناء ، فتعاونا جميعا على فتح بابه الكبير ، ثم دخلنا فِناءه ، فوجدنا فيه كومة من العظام البشرية . فهالنا ذلك المنظر ، وامتلأت قلوبنا منه رعبا . ولم ينطق أحد منا بكلمة واحدة لشدة مالحقنامن الذعر وبقينا خائفين طول النهار ، حتى -- إذا غربت الشمس -- سمعنا صرير الباب الخارجى وهو يقفل ، ورأينا عملاقا هائلا يدخل علينا وهو — فى مثل طول النخلة — أسود الوجه ، له عين واحدة يكاد يتطاير منها الشرر ، وأنياب طويلة حادة مروّعة !

فى حضرة العملاق

ولم نكد نراه حتى تملكنا الرعب واستولى علينا الهلع والفزع وصرنا كالموتى وهو ينظر الينا نظرات مخيفة ، ثم اقترب منى وأمسك بى — وأنا كالعصفور فى يده — فرآنى نحيلا هزيل الجسم ، فتركنى — وأخذ غيرى فرآه نحيفا فلم يعجبه أيضا



(١) فصل مختار من الجزء الاول من كتاب : «قصص للأطفال» بقلم المؤلف.

كيف شوى الربان

ونظر إلى الربان فرآه سمينا فأعجبه ، فامسك به ولوى رقبته بيده ، ثم جاء بسفود طويل فأنفذه فيه ، وأوقد نارا حامية وضعه عليها ومازال يقلبه



حتى شواه فأكل لحمه ورمى عظامه على الأرض ، ثم نام فسمعنا له شخيرا له عاليا .

ولما أصبح الصباح خرج العملاق من القصر وتركنا ، فخرجنا الى الجزيرة يائسين ، وتمنينا لو كنا غرقنا فى البحر ولم نقع فى قبضة هذا الغول المخيف حتى لا يكون نصيبنا هذه الميتة الشنعاء التى لم تكن لتخطر لنا على بال.

وبحثنا طول النهار عن مكان نختبىء فيه فلم نظفر بطائل ، فعدنا إلى القصر خائفين . وجاء العملاق ـ بعد قليل ـ فشوى أحدنا كما شوى بالأمس ربان السفينة وأكله ونام الى الصباح . ثم خرج إلى حيث لا ندرى وخرجنا هائمين فى الجزيرة ، وقد أشار علينا بعض رفاقنا أن نلقى بأنفسنا فى البحر حتى ننجو من هذه الميتة المروعة وأشار آخرون أن نحتال لقتله

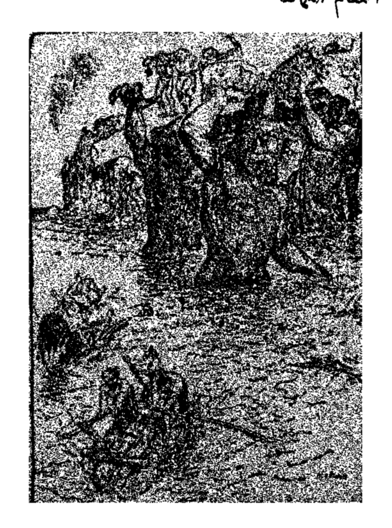
فلك النجاة

فأشرت عليهم أن يهيئوا فلكا من خشب الأشجار، فاذا لم ننجح فى قتل العملاق هربنا من الجزيرة فى تلك الفلك، ففرحوا جميعا بهذا الرأى، وشرعنا فى العمل بجد ونشاط حتى - إذا تمت الفلك - وضعنا فيها ما نحتاجه من الزاد وربطناها الى شاطىء البحر.

تنفيذ المؤامرة

وعدنا إلى القصر، فجاء العملاق ففعل بثالث منا ما فعله بسابقيه ثم نام - كعادته - وعلا شخيره، فوضعنا سفودين فى النار حتى احمرا، ثم أدخلناهما - معا - بقوة فى عينه وهو نائم، فصرخ صرخة هائلة - من شدة الألم - وقام هائجا يبحث عنا - بعد أن عميت عينه - فلم يهتد الى أحد، فسار الى الباب ففتحه، وخرج كالمجنون؛ ففرحنا بذلك وحسبنا أننا أصبحنا بمأمن من شره!

انتقام العمالقه



ولكن فرحنا لم يطل، فقد جاء إلينا - بعد قليل - جماعة من العمالقة يغايرونه فى الشكل ولا يقلون عنه وحشية وفظاظة،

فهربنا منهم مسرعين إلى الفلك التى صنعناها.

فلما رأونا فى البحر أخذوا يرجموننا بحجارة كبيرة فقتلوا رفاقى ولم ينج معى منهم إلا اثنان.

الفرار من جزيرة العمالقة

وبعد أن نجونا من شر أولئك العمالقة أصبحنا تحت رحمة الأمواج الهائجة طول نهارنا وليلتنا حتى إذا ـ أصبح الصباح ـ قذفتنا الأمواج إلى شاطىء جزيرة كبيرة، ففرحنا بذلك وأكلنا من فاكهتها الطيبة وشربنا من مائها العذب، ثم جلسنا على شاطىء البحر فرحين بالنجاة من أرض العمالقة.

فى فم أفعى

ولما جاء الليل نمنا فوق شجرة عالية واستيقظنا فزعين فرأينا حية هائلة قد التقمت واحدا من رفيقىّ، فسمعنا عظامه تتكسر فى جوفها ـ وهى تبتلعه فاشتد خوفنا وهالنا الأمر، وقلنا:



«لاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم! كلما نجونا من مصيبة وقعنافيما هو شر منها»

ولما أصبح الصباح أكلنا وشربنا حتى إذا جاءالليل صعدنا إلى شجرة أخرى فنمت بأعلاها ونام رفيقى قريبا منى وبعد قليل جاءت الحية فالتقمت رفيقى كما التقمت صاحبه بالأمس؟

كيف نجوت من الافعي

فمكثت طول الليل خائفا حتى إذا أصبح الصباح هممت أن ألقى

بنفسى فى البحر ، فمنعنى من ذلك حب الحياة فتجلدت ، ولما اقترب الليل أحضرت ألواحا من الخشب وشددت جسمى اليها شدا وثيقاً ، وجاءت الحية كعادتها تحاول أن تبتلعنى كما - ابتلعت رفيقى - فحالت الألواح المشدودة حولى دون ذلك ، وظلت طول الليل تحاول أن تجد منفذاً الىّ - من خلال الألواح - دون أن تظفر بطائل ، فلما بدا الصباح عادت من حيث أتت فحللت رباطى وخرجت من بين الخشب وأنا أحمد الله على السلامة .

الأمل بعد اليأس

وجلست على شاطىء البحر يائساً مهموماً أفكر فيما حل بى من المصائب ، فلمحت مركباً كبيراً - على مسافة بعيدة - فلم أزل أصرخ وأصيح مشيراً بيدى مرة وملوحا بعمامتى مرة أخرى ، حتى فطن إلى بعض من بالمركب ، فاقتربوا من الجزيرة ورسوا على شاطئها . فسلمت عليهم فردوا على السلام ، وفرحت بلقائهم فرحا عظيما ، وحملونى معهم وسألونى عن أمرى : فقصصت عليهم كل ماحدث لى فعجبوا من ذلك أشد العجب وأطعمونى وسقونى وأكرمونى أحسن إكرام .

ربان السفينة

ولم يزل المركب سائراً بنا حتى بلغنا بلدا كبيرا ، فقالى الربان :

« إن عندى بضاعة لرجل اسمه « السندباد البحرى » كان معنا ثم نسيناه فى جزيرة مررنا بها .

فتأملت الربان فعرفته ، وأخبرته أنى أنا « السندباد البحرى » فلم يصدقنى - أول الأمر - واجتمع التجار حولى وكان من بينهم التاجر الذى تعلقت بذبيحته فى رحلتى السابقة التى قصصتها عليكم فلم يكد ينعم النظر فىّ حتى

عرفني وقص عليهم ماحدث لى معه ، فحدق الربان النظر فيّ فعرفني وحقق صدق قولى ، فعانقنى فرحا مسرورا .

فى بغداد

ومازلنا ننتقل من بلد إلى بلد ومن جزيرة ـ وتجارتنا رابحة ـ حتى وصلنا إلى البصرة ثم سافرت منها الى بغداد ومعي أموال لاتحصى ، وأقبل على أهلى وأصحابى يهنئوننى برجوعى سالما وقد فرحوا بي فرحا لايوصف .

مفتاح القراءة (١)



كم من حديث مُعْجِبٍ شائق   تتلوه أمى أو أبى من كتاب
هــذا عجيب ، فمتى أغتــدى   مثلهما أقرأ بين الصحاب

---

(١) من كتاب « محفوظات الأطفال للمؤلف »

* * *

كم ذا أجيل العين فى صفحة		منقبا لايعتريني فتور
وأنثنى من غير جدوى وما		فهمت شيئاً بين تلك السطور!

* * *

لكن أمى إذ رأت حيرتى		قالت: إذا مارمت هذا المرام
فهاك مفتاحا لأسراره		هاك كتابا فيه سر الكلام

فيه حروف الهجاء

* * *

تبدأ بالأحرف فيه، ولا		تلبث حتى تقرأ المفردات
وتقرأ الأسطر من بعدها		فيصبح الصعب من الهينات

* * *

وبعد جد واجتهاد ترى		أنك تتلو ـ مثلنا ـ فى الكتاب
تقرأ مايشجيك من قصة		ومن حديث معجب مستطاب

فى أى وقت تشاء!

رسالة الغفران

(١) لماذا كتبها أبو العلاء

كان أبو الفرج الزهرجى ـ كاتب « نصر الدولة » ـ قد كتب الى أبى العلاء رسالة استودعها ابن القارح [١] وسأله أن يوصلها الى أبي العلاء.

قال ابن القارح [٢] :

« فسرق عديلى رحلا ـ الرسالة فيه ـ فكتبت هذه الرسالة [٣] أشكو أمورى وما لقيت فى سفرى من أُقَيْوام يدعون العلم والأدب »

وقد ملأ ابن القارح رسالته بشكوى الناس والطعن على الزنادقة والملحدين وجره ذلك الى الاستطراد الى مناسبات شتى . فلما قرأ « أبو العلاء » رسالة ابن القارح ، بعث اليه برسالة الغفران . رداً على رسالته وقد سلك فيها منهجا عجيبا لم يسلكه ـ فيما نعلم ـ كاتب قبله ، فبدأها بالثناء على ابن القارح والاعجاب بغيرته الدينية ، ثم قال :

« وفى قدرة ربنا — جلت عظمته — أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، ولعله ـ سبحانه ـ قد نصب لسطورها المنجية من اللهب ، معاريج [٤] من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض

---

(١) هو على بن منصور بن القارح وتجد ترجمته فى الجزء الاول من رسالة الغفران ص « ٢٥ »

(٢) ارجع إلى رسالة ابن القارح المنشورة في الجزء الثالث من رسالة الغفران.

(٣) أى رسالة ابن القارح التي بعث بها الى أبى العلاء وهي رسالة طويلة تحوي أخبار الكثير من العلماء ولأدباء وأساطين الفكر العربي ، هذا الى ما اكتظت به من عبارات المدح والاطراء التي صاغها فى شكر أبي العلاء

(٤) جمع معراج ـ وهو السلم أو المصعد

الرا كدة من السماء . بدليل الآية : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها »

وفى تلك السطور كلم كثير . كله عند البارئ — تقدس — أثير

وقد غرس لمولاى الشيخ الجليل إن شاء الله — بذلك الثناء — شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ مابين المشرق إلى المغرب بظل غاط [1] ، والولدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود ، يقولون ـ والله القادر على كل شيء عزيزـ « نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى ابن منصور [2] ، نخبأ له إلى نفخ الصور » وتجرى فى أصول ذلك الشجر أنهار تختلج [3] من ماء الحيوان [4] ، والكوثر يمدها فى كل أوان ، من شرب منها النغبة [5] فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت [6] وسعد من اللبن متخرقات ، لاتغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر [7] من الرحيق [8] المختوم

* * *

وبعد أن أبدع « المعرى » فى وصف الفردوس ماشاء أن يبدع وأفتن فى وصفها ووصف من فيه من السعداء تمثل صديقه « ابن القارح » ـ وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس » ، ثم يخطر له أن يتنزه ، ولا يكاد يفعل حتى يقابله الأعشى ثم يقابله غيره من الشعراء وبذلك يخلق أبا العلاء

---

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تنتزع ، تحرك ، تطير (٤) الحياة (٥) الجرعة (٦) الضياع (٧) أنهار كبيرة (٨) أطيب وأفضل أنواع الخمر

جوّا صالحا لتلك الكوميديا الرائعة ـ رسالة الغفران ـ ويجعل مسرح هذه الكوميديا الجنة والنار فاذا انتهى من هذه الكوميديا عاد الى الرد على رسالة ابن القارح .

ولعل هذه الرسالة هى أمتع ما كتبه [(١)] أبو العلاء ، وهى تعد بحق أنفس أثر له بعد كتاب اللزوميات

(٢) لماذا أطلق عليها اسم الغفران[(٢)]

وانما أطلق عليها اسم « الغفران » لأن الفكرة الرئيسية التى دفعته الى إنشائها ـ وقت إجابته على رسالة ابن القارح ـ هى مناقشة من فازوا بالمغفرة ومن حرموها فى الدار الآخرة ، ومما يسترعى انتباهك فيها ، سؤاله ـ وكثيراً ما كان يوجهه الى الفريق الناجي : « بم غفر لك ؟ » فيجيبه كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، ويشرح له السبب فى دخوله الفردوس ويصف له كيف يتمتع به ، وكيف ينعم بيدائعه

وسؤاله الذى كان يوجهه الى الفريق الثاني ـ وهو من حقت عليه اللعنة وكتب عليه الشقاء ـ : « لم لم يغفر لك قولك كذا » فيجيبه أكثرهم عن السبب ويشرحون له مايقاسون من ألم وعذاب ، ويصمت بعضهم لاشتغاله بما هو فيه من نكال وغصص .

وهكذا ألم بطائفة من الحوادث والأسباب ، ومزج الرواية بالدعابة ، والجد بالفكاهة ، والأدب والفلسفة بالنقد الصائب والسخرية الدقيقة .

***

---

(١) وقد كتبها فى سنة ٤٢٤ هـ .

(٢) اقتبسنا هذه الكلمة من مقدمة رسالة الغفران التى شرحها المؤلف .

وليس هذا الخيال ، أو تلك الفكرة الفنية التى انتظمت الكتاب فأفردته من بين الآثار الأدبية التى كتب لها الخلود ـ مما يستغرب من مثل أبى العلاء ذى العقل الراجح والبصيرة النفاذة والخيال الواسع .

نعم وليس تمثل البعث والنشور ونعيم الفردوس وتعذيب الأشقياء فى الجحيم من الافكار الطارئة التى سببتها رسالة ابن القارح أو نبهتها فيه ، ولكنها فكرة متأصلة فى قرارة نفسه ، نبتت ونمت وتوشجت أصولها ونضج ثمارها فى قلبه — نحو نصف قرن — فاختلطت بلحمه وسيطت بدمه وهيمنت على مشاعره منذ حداثة نشأته ـ حتى أصبحت ـ من أهم مصادر الفلسفة العلائية .

ولعل أول محاولة رأيناها له ـ فى اكتناه البعث والتردد فى قبول الروايات والاخبار المتناقلة . قوله فى مستهل حياته الأدبية ـ وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فى نونيته التى رثى بها أباه ، إذ يقول فيها :

« فياليت شعرى ! هل يخف وقاره اذا صار أُحْدٌ فى القيامة كالعهن ؟
وهل يرد الحوض الروىّ مبادرا مع الناس ، أم يأبى الزحام ، فيستأنى[1]

(١) ألا ترى اليه كيف لاءم فى هذين البيتين بين روعة الموقف ووقار أبيه ، وكيف تردد في أن هذا اليوم العصيب الذى تتبدل فيه طبائع الناس من الرزانة الي الخفة ، ومن العطف على سواهم إلى الاهتمام بأنفسهم لشدة الهول والفزع ، فيصد المرء عن أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه ، ومن فى الارض جميعا ثم ينجيه ، انظر إليه كيف ارتاب في أن هذا اليوم المفزع الهائل مبدل من تؤدة أبيه ورزانته التى عرفها فيه

وانظر اليه كيف لاءم بين هاتين الفكرتين المتنافرتين وكيف جمع بين تمثيل الهول والرعب ، وتمثيل الرزانة والتؤدة !

وأحب أن انبه إلى وصف يوم الموقف في الفصل الثاني من رسالة الغفران ، كيف

***

وإنك لتلمح الشك يساور نفسه ، التى تتطلع إلى اليقين ، فلا تظفر به وتتلمس الحقيقة فلا تصل اليها ، فترجع يائسة حائرة - بعد أن وجدت كل معين ناضبا وكل ماء سرابا — وإنك لتجد حيرة من قتل الفكرة بحثا وقلبها على كل وجه من وجوهها وناحية من نواحيها ، فلم يظفر بطائل ، وزاد تفاقم الشك فى نفسه الفتية . فأصبح يتلمس مايسد به ذلك الفراغ — الذى كان يملؤه اليقين -فلا يجده . كل ذلك تتمثله واضحا فى قوله من تلك القصيدة :

جهلنا فلم نعلم -على الحرص- ماالذى   يراد بنا ، والعلم لله ذى المن

إذا غيب المرء ، استسر حديثه   ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى

تضل العقول الهبرزيات رشدها   ولم يسلم الرأى القوى من الأفن

طلبت يقينا من جهينة عنهم   ولم تخبرينى ، ياجهين سوى الظن

فإن تعهدينى لاأزال مسائلا   فانى لم أعط الصحيح ، فأستغنى

وهكذا ظل أمر البعث والنشور والجنة والنار من أكبر شواغل هذا العقل الممحص الكبير ، فاكتظت كتاباته وأشعاره بالاشارة إلى ذلك ولم تكد تمر به فرصة ، دون أن يشير اليه إشارة قريبة أو بعيدة ، واضحة أو خفية ؛ هازئة أو جادة ، ساخرة أو مقررة (١)

يتدافع الناس إلى ورود الحوض ، ليطفئوا غلة العطش الذى أهلكهم ، وكيف يذودهم الواقفون على الحوض ، يمنعوهم الوصول اليه !

(١) شعر أبى العلاء فى البعث

نكتفى باختيار النبذة التالية من أشعاره الكثيرة التى تناول فيها هذه الفكرة ، وهى - على مافي بعضها من تناقص ظاهرى - لاتكاد تختلف فى جوهرها قال :

زعموا أنني سأرجع شرخا   كيف لى ؟ كيف لى ! وذاك التماسى

ولم يكن يرى حلا لهذه المشكلة المستعصية الحل ، إلا وسيلة واحدة

وأزور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود فى الأرماس!

***

هى النفس تهوى الرحب فى كل منزل فكيف بها، إن ضاق الأرض قبرها ؟
أتتني أنباء كثير شجونها لها طرق ، أعيا على الناس سبرها
هفا ـ دونها ـ قس النصارى، وموبذ المجوس ، وذيان اليهود وحبرها
وخطوا أحاديثاً لهم فى صحائف لقد ضاعت الاوراق فيها وحبرها
تخالفت الأشياع فى عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها !

***

أما القيامة ، فالتنازع شائع فيها ، وما لخبيئها إصحار
والجهل أغلب ـ غير علم أننا نفنى ، ويبقى الواحد القهار

***

وأعجب مانخشاه دعوة هاتف : «أتيتم ، فهبوا يانيام ! إلى الحشر »
فياليتنا عشنا حياة بلا ردى ـ يدالدهر ـ أومتنا مماتا بلا نشر

***

لو كان جسمك متروكا بهيئته ـ بعد التلاف ـ طمعنا فى تلافيه
كالدن ! عطل من راح تكون به ـ ولم يحطم ـ فعادت مرة فيه
لكنه صار أجزاء مقسمة ثم استمر هباء فى سوافيه

***

ويذكر أن فى الأيام يوما يقوم من التراب مغيبوه
وما يحدث ! فانا آل عصر قليل فى المعاشر منجبوه

***

ويقال : « إن الله ـ جل جلاله ـ يوما ! يطهر أرضه بالنار »

***

من للدفين بأن يفرج لحده عنه ! فينهض وهو أشعث أغبر
والدهر يقدم ، والمعاشر تنقضى والعجز تصديق بمين مخبر

مستحيلة التحقيق . بعيدة الحدوث . ولكنها أمنية ـ على كل حال ـ من

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا أن المنية كسرها لايجبر
قالوا : « وآدم مثل أوبر ، والورى كبنا ته » جهل امرؤ ما أوبر !
كل الذى تحكون عن مولاكم كذب أتاكم عن يهود يحـبر
رامت به الأحبار نيـل معيشة فى الدهر ، والعمل القبيح يتبر

***

إن يصحب الروح عقلى ـ بعد مظعنها للموت عنى ، فأجدر أن ترى عجبا
وان مضت فى الهواء الرحب هالكة ـ هلاك جسمى فى تربى ـ فواشجبا

**

خـذ المرآة واستعرض نجوما تمر بمطعم الأرى المشور
تدل على الحمام ـ بغير شك ـ ولكن لاتدل على النشور

**

تحطمنا الايام ـــ حتي كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

***

قال المنجم والطبيب ـ ، كلاهما : ـ «لا تحشر الأجسام» قلت : « اليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ! أو صح قولي ، فالخسار عليكما ! »

**

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا ـــ كلما في الشهر
ولم نر بطن الارض يلقي لظهرها رجالا ، كما يلقى إلى بطنها الظهر

***

حياة كجسر ، بين موتين ، أول وثان ، وفقد الشخص أن يعبر الجسر

***

والفقر موت ، غير أن حليفه يرجى له بتمول إنشار

***

الأمانى التى لا بأس من تحدث النفس بها — وإن كانت جد واثقة من قلة غنائها — تلك الوسيلة هى استفسار من ماتوا عما لقوه من عذاب أو نعيم — فى عالمهم الثانى — ليضع بذلك آخر حد لتضارب الآراء وتناقض الأخبار فى هذه المشكلة المستحيلة الحل ، وثم لجأ إلى الأمانى — وإن لم تسعفه الأمانى —

أعلم أنى — إذا حييت — قذى   وأننى — بعد ميتتي — مدر
كم من رجال جسومهم عفر   تبني بهم — أو عليهم — الجدر

***

رب روح كطائر القفص المسـ   ـجون . ترجو بموتها التسريحا
فرحوكم بباطل — شيمة الخمـ   ـر — فهلا لا أوثر التفريحا
كيف لى أن أكون فى دارى الأخـ   ـرى . معافى من شقوة مستريحا
عجبا لى ! أعصى من الجهل عقلى   ويظل السليم عندي جريحا !

***

لا نعلم الموتى تهم بكرة   لكن أحياء تروم لحاقا

***

يكر موتانا إلى الحشر — إن   قال لهم بارئهم : « كروا »
يخلف منا آخر أولا   كاننا السنبل والبر

***

لعلك منجزى أغبار دينى   إذا قمنا من الأجداث غبرا !

***

ومتى شاء الذى صورنا   أشعر الميت نشورا فنشر

***

أيها الملحد ! . لا تعص النهى   فلقد صح قياس واستمر
إن تعد فى الجسم — يوما — روحه   فهو كالربع خلا ثم عمر

***

قد يمكن البعث — إن نادى المليك به —   وليس منا لدفع الشر إمكان

فود لو يتاح له الظفر بسؤال أحد الهالكين واستفساره عما لقيه ـ بعد الموت ـ لتنتهي باجابته شكوكه وحيرته انتهاء حاسما ، فقال :

لوجاء من أهل البلى مخبر   سألت عن قوم ، وأرّخت
« هل فاز بالجنة عمالها ؟   وهل ثوى فى النار نوبخت ؟ »

وقال :

« أسكن الثرى ! لا تبعثون رسالة   إلينا ! ولستم سامعي كلام الرسل !
ولم تسل نفسي عنكم باختيارها ،   ولكن طول الدهر يُذهل، أو يُسلي! »

وقال :

« داران أما هذه فسيئة   جدا ، ولا خبر لتلك الدار
ما جاء منها وافد متسرع ،   فنقول للنبأ الجديد: «بدارِ !»

وقال :

« فهل قام ـ من قبره ـ ميت   يعيب على النفس إخفارها
يقول : « جنبنا ذنوبا لنا   وجدنا المهيمن غفارها »

إلى آخر تلك الأبيات التي لا حاجة بنا إلى استقصائها .

***

***

إذا ما أعظمى كانت هباء   فان الله لا يعييه جمعى

***

لخلاصة رأى أبي العلاء التي تخرج بها ـ بعد قراءة أشعاره في البعث والنشور ـ هى أن الله أقدر كل شيء ، وأن قدرته التى أنشأت الانسان من العدم إنشاء غير عاجزة ـ بلاشك ـ عن إنشائه مرة ثانية وثالثة ورابعة ـ متى أرادت ـ ولكن القدرة شيء والارادة شيء آخر ! فقد تقدر على الشيء ولا تريده أو تريده ولا تقدر عليه !

ولكنه بعد أن سئم هذه التمنيات التى رددها كثيراً ـ بلاطائل ـ لجأ إلى نوع آخر من الأمانى المجدية — وهو الخيال — وما أوسع عالمه إذاضاق بالانسان عالم الحقائق !

وانتهز لذلك مناسبتين :

أولاهما : رسالة سائل — لم يحفظ لنا التاريخ اسمه — بعث بها إليه مستفرا عن بعض المسائل الصرفية .

وثانيتهما : رسالة على ابن منصور الملقب بدوخلة والمشهور بابن القارح، فكان جوابه على الاولى رسالة الملائكة ، وعلى الثانية رسالة الغفران . فأما رسالة الملائكة فقد انتهز فيها مناسبة كل لفظة سأله المستفهم عنها ، للخروج منها إلى ما يناسبها من لقاء عزرائيل إلى محاسبة الملكين الى نفخ الصور إلى دخول الجنة

وأما رسالة الغفران فقد انتهز فرصة الثناء على رسالة ابن القارح وإطراء — كلماتها كما أسلفنا — لتوصل إلى غايته التى رمى إليها ، فتمثل الملائكة ترفع كلمها الطيب الى السماء وتخذ من قوله ـ تعالى ـ : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة ،كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » وسيلة الى تمثل الاشجار قدغرست فى الفردوس، بعدد كلمات تلك الرسالة ، لأنها جميعها مما ينطبق عليه معني الآية التى كأنما كانت تعنيها بهذا الوصف .

وساقه ذكر أشجار الجنة الى ذكر أنهارها ومافيها من الخمر ثم إلى تنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها الخالد وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك الى وصف دخوله ودخول غيره من المغفور لهم جنان الخلد ، ثم جره ذلك إلى زيارة أهل

النار وسؤالهم عن السبب الذى جرهم إلى هذه العقبى السيئة. وهكذا الى آخر أغراض الرسالة .

وبعد أن فرغ من ذلك القسم الممتع عاد الى الرد على رسالة ابن القارح

***

أما رسالة الملائكة فقد يخيل إلينا أنها كتبت قبل رسالة الغفران ، لأنها ـ على جمال أسلوبها وتفرد خيالها ـ مقتضبة اذا قسناها إلى رسالة الغفران . أوهى ـ إن شئت ـ إنما كانت تمهيدا للفكرة الفنية التى قامت عليها القصة .

أما رسالة الغفران فهى ـ فى اعتقادنا ـ أوضح وأدق وأبرع صورة شعرية قرأناها عن العالم الثانى وأحوال الناس فيه ، وهى كما قلنا من قبل : « فن من الأدب العالى ، لايقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس غربى مفكر . . . . ! »

حقائق يجهلها الاطباء (١)

عن الغـذاء

يقولون إن أحد المشتغلين بالتنجيم حل ضيفاً عند أحد أمراء العرب فلقى من الحفاوة والاكرام مالا مزيد عليه . فلما حان وقت الرحيل . بصرت عيناه بطفل علم أنه وليد صاحب الدار . فأراد أن يسدى الى مضيفه يدا يكافئه بها على كرمه الحاتمى . وظل يضرب أخماسا لأسداس . ويخط فى رمله — على عادة الدجاجلة والمنجمين ـ ثم التفت إلى صاحب الدار متهلل الوجه متطلق الأسارير ، وقال له : «أبشر أيها السيد العظيم فقد أنبأنى طالع ابنك السعيد أن سيكون له شأن عظيم وأنه سيخوض المهامه والقفار ويقهر الأعداء . ويغزو الممالك ويفتح الأقطار وتدين له الجبابرة وتخضع لسطوته الملوك و ....» فأسرع رب الدار بمقاطعته قائلا :« ولكن هذه بنت . .. ! »

ومن عجائب الزمن . أن يدور الزمن دورته فنسمع أشباه هذه الحكاية ؟ يقصها رواة صادقون ، ويرويها ـ بصيغة أخرى ـ عدول لا يرتاب إنسان فى نزاهتهم وصدق روايتهم . وعن أية طائفة يروونها ؟ عن طائفة من أكبر رجال العلم طالما تلقف الناس أقوالهم بلهفة وثقة حاسبيها الحق الصراح واليقين الذى لا يتطرق إليه الباطل . وهى طائفة الاطباء!

ياللعجب: لقد أظهر البحث أن كثيراً ـ من أطباء اليوم والأمس والغد المشتغلين بمسألة الطعام ـ دجاجلة ومنجمون ، تتناقض أقوالهم ، وتتضارب آراؤهم فى المسألة الواحـدة ؛ فتصل مسافة الخلف بينها الى ما بين الضد

---

(١) نشرت بمجلة الاخاء وهى مقتبسة من الانجليزية .

والضد ، ولعل أبدع مانسوقه دليلا على ذلك هو ماترويه لنا مجلة من أشهر المجلات العامية الامريكية ، إذ يقول راويتها الثقة ـ والتبعة عليه :ـ

كان لى صديق ـ فى مقتبل أيامه ـ وكان كثير الشكوى من اختلال صحته، فذهب ذات مرة إلى طبيب مشهود له بالكفاية ، واسع الشهرة فى فن الطب ؛ وبعد أن أتم الطبيب فحصه ـ على أحدث الطرق العلمية ـ التفت اليه قائلا :

« اسمع ياصديقى : إن متاعبك وآلامك كلها ناشئة من كثرة تهافتك على أكل اللحم بمقادير كبيرة جداً ! »

ولم يكد صديقى يسمع من طبيبه ذلك حتى بلغت دهشته أقصاها وأجابه قائلا :

« ربما كنت مصيباً فى حكمك يادكتور ، ولكنى لم أذق لحماً منذ عامين ! »

وهنا وجم الطبيب ، ولم يكن خجله بأقل من خجل ذلك المنجم الذى روينا قصته فى أول هذا المقال !

وغيَّر الطبيب تذكرته الطبية ، وأشار عليه بوصفة أخرى ، تتلخص فى الابتعاد دائما عن الانفعالات النفسية التى تسبب له هذه المتاعب والآلام !

***

هذه حكاية واقعة صحيحة أيها القارئ . وهى ـ على غرابتها ـ كثيرة الأشباه والنظائر . وربما حدث لكل إنسان ما يقاربها أو يماثلها . وإنى لأكاد أجزم موقناً أن ملايين من الناس يعانون من غموض نصائح الأطباء وتناقض أقوالهم واضطراب وصفاتهم مايعجز القلم عن وصفه ؟

والحق الذى لامراء فيه : أن اتباع وصفة بعينها أو السير على نمط خاص فى التغذية وتناول نوع واحد من الطعام ؛ من الأشياء التى منى بها هذا العصر ، بل هو — على الأصح — بدعة ممقوتة فيها من الاضرار

مالاقبل لانسان باحتماله ، وما أعجب غرام الاطباء ومصالح الصحة ، باصدار قوائم مطولة ، يحصون فيها مايجب أكله من الطعام ومالايجب ، ويقيدون بها مايزعمونه صالحاً للتغذية وما يزعمونه ضاراً من الأطعمة !

وفي الواقع أن النصائح الطبية للتغذية لايرضخ لها رضوخاً تاماً إلا في الاحوال مرضية حادة أو خاصة وفي الحميات وفي الحالات الجراحية والبول السكرى .

وما أشد مايغررون بنا ، إذ يقررون لنا أن اتباع نصائحهم سيقودنا الى السلامة ، ويكسبنا الصحة والعافية ويرد لنا مافقد من قوانا وما بهت من ألواننا ويطيل من أعمارنا إلى آخر هذه المزاعم الطويلة العريضة التى لاآخر لها ؛ وليس هذا شأن دجاجلة الطب وحدهم . بل إن كثيراً من أفاضل الأطباء يندفعون في هذا الطريق بحسن نية ، ويصفون ذلك باخلاص وأمانة منساقين في تيار هذه البدعة الجارف !

لقد طالما نصحنا الأطباء بأكل الخضر نيئة ثم نصحونا أيضاً بطبخها ، وطالما أشاروا علينا بأكل الفاكهة ثم أشاروا علينا بالكف عن أكلها وهكذا وهكذا مما لانهاية من الأوامر التى لاتلبث أن تصير نواهى ، حتى أصبح الرجل الذى يستطيع أن يمنع نفسه من الحيرة والارتباك — أمام هذه الاوصاف المربكة المتناقضة ويستخلص من هذه الشعاب الملتوية طريقاً واضحة — جديرا أن ندعوه بطلا وأن نطلق عليه اسم الانسان الأعلى «السبرمان»

ولاتزال الى اليوم فئة من الاغرار تنخدع بهذه النصائح فتعكف على تناول طعام بعينه : حاسبة فى ذلك نجاتهم وتوفر صحتهم . فتكون النتائج غير مرضية . أو — على الأصح — عكسية ! ذلك أن الاقتصار على نوع واحد من الغذاء — بالغة مابلغت فائدته وصلاحيته — يضر بنا إضراراً بليغا ، فان جسمنا الذى اعتاد أن يتغذى بالأطعمة المختلفة إذا أقتصر على غذاء بعينه

حرم مواد مغذية ليست فى هذا الغذاء ، وأدخل فيه عناصر متراكمة من هذا الغذاء ليس هو فى حاجة اليها ، ومن هنا ينشأ الاسراف فى إدخال عنصر — مهما بلغ نفعه — فهو ضار إذا تجاوز المقدار الكافى منه ، وربما دفعهم اليأس — بعد ذلك — إلى نقيض مافعلوا ، فأسرفوا فى الخلط بين المآكل العديدة واندفعوا فى أكل الأطعمة المختلفة ، ولكن

بين إسراف وبخل ، رتبة وكلا الأمرين — إن زاد — قتل !

* * *

ومن غرائب الأمور أن الكيميائى البارع — الذى كرس حياته لدراسة طبائع الأغذية يكاد يحجم عن وصف طعام لك ، بينما يندفع الجهلاء وأنصاف الجهلاء الى تقرير مايصلح لك من الطعام بلا تردد !

وإننا لنسجل بالاعجاب قول أحد العلماء الكيميائين — وهو تصريح له خطره وأهميته — قال :

« قبل ستة أعوام ، لم أكن قد تعمقت فى درس الغذاء ، فكنت إذا استشارنى انسان فى نوع الغذاء الذى يصلح له أجبته عنه بلا تردد ، أما الآن — بعد أن أطلت البحث والعمل بجد ونشاط ووقفت على خصائص الأغذية ومزايا كل نوع وأضراره — فقد وصلت إلى نتيجة أخرى ، هى اقتناعى بعجزى وقصورى التامين عن وصف أى طعام لأى إنسان

وكل ماوصلت إليه من الحقائق ، هو أننى — وغيرى — جاهلون جهلا لاشك فيه بتخير الطعام الذى ننصح لك بتناوله بأكله .

* * *

أذكر لك حكاية صديق آخر : لاعمل له إلا الاشتغال بتحليل الأطعمة

ووصف مايصلح للمرضى منها وما لا يصح ، فقد أصابه ذات يوم مرض ، فذهب الى الطبيب العلامة « هو بكنز » فماذاقال له الطبيب ؟ قال له :

« إن كل أعضائك سليمة ، وليس عليك ـ اذا شئت الشفاء ـ إلا أن تقلل من أكلك أو تكثر من النزهة ، فانك إن فعلت واحدا من هذين نجوت وسلمت ! »

وقد اتبع نصيحة الطبيب ، واستفاد منها كثيرا ، وأصبحت صحته على أتم ما يرام.

فاذا كان المشتغلون بكيمياء الطعام وتحليله ووصف ماينفع الناس منه ومالا ينفع ، عاجزون عن اختيار مايلائمهم منه ، فان غيرهم من الناس أعجز !

* * *

وموجز القول أن فى كل نوع من الأغذية مزايا وأضرارا . وأن الأطعمة المختلفه يتمم بعضها بعضا فان فى كل طعام من المزايا ماليس فى الآخر وأن تعود الجسم على تناول أطعمة بعينها يكسبه مرانة على هضمها . فاذا تركها فجأة وعدل عنها إلى نوع آخر من الطعام ـ لم يألفه ـ أضر به ذلك العدول . وان أكثر الأطباء لا يعنون بتحرى الدقة فى أقوالهم إذا تكلموا عن الغذاء . وأنهم لو أرادوا الدقة لما وصفوا أى نوع من الأغذية فان اللبن وهو أصلح الأطعمة ـ فى زعمهم ـ ناقص يحتاج الى ما يكمله ، وقس على ذلك غيره مما لا يتسع المقام للافاضة فى شرحه ، ولقد كان الموز يعتبر ـ منذ زمن قريب ـ أخطر نوع من الغذاء للأطفال .

وكانت الأم إذا رأت طفلها يأكله مرة ، حسبته هالكا لامحالة ، وهاهو قد تغير الزمن ودار دورته فأصبح المختصون يوصون الناس بتغذية أطفالهم به ، ويقررون لهم أنه أصلح غداء صحى لصغارهم .

ولعلنا نسمع فى الغد نظريات جديدة تنقض كل مايقررونه اليوم !

الشعراء المعاصرون (١)

أبو شادي

« وإن صديقي - إن رأى الحق شرعتي -
فليس يحابيني ، ولا ينثني عني »
أبو شادي

لعل خير ما أفتتح به هذا الفصل هو قول صديقي الاستاذ الاديب الفنان سيد افندي ابراهيم من مقال له : -

« وإذا كان للعدو أن يكتب عن عدوه وأن ينصفه - مادام من طبعه الانصاف - فلا ضير أن يكتب الصديق عن صديقه وأن ينصفه مادام من طبعه الانصاف » .

هذه كلمة حق يجب أن أسجلها لصديقي سيد ، وأن أستشهد بها حين أكتب عن صديقي أبي شادى ، فسيقول بعض المتسكعين الفارغي القلب كعهدنا بهم : « صديق يقرظ صديقه ويجامله ! »

ولا ، وحرمة الحق والانصاف ، إنْ هو إلا صديقٌ يسجل حسنات صديقه مغتبطا بتسجيلها له ، وما أدرى أية غضاضة فى ذلك ؟

وإذا كان الصديق لا ينصف صديقه - بعد أن رآه أهلاً للانصاف - فمن ينصفه ؟ !

أينصفه عدوه الذى يرى كلّ حسنةٍ من حسناته ومفخرةً من مفاخره سيئة يلومه عليها وجريمة يندد بها ؟ ! أينصفه حاسده وهو يرى فى

(١) فصل مختار من كتاب المؤلف بهذا العنوان لم يطبع بعد.

نجاحه أكبر نكبة تحيق به وتضيع آماله، ولا يرضى عنه إلا اذا تساوى معه فى العجز والفشل ؟!

إن العيب الذى يؤخذ على الصديق هو أن يغفل عن تنبيه صديقه الى مواطن الضعف والزلل، وهو جديرٌ — إذ يفعل ذلك — بأن يسجل له مغتبطاً المزايا الباهرة التى يراها فيه. وإنما يُعاب على الصديق أن تغطى الصداقةُ على عيوب صديقه فلا يراها ،وهو جدير أن يكون لصديقه مرآة صافيةً تُريه محاسنه وعيوبه — على السواء — « فإن المرء لا يرى عيب نفسه» كما يقولون. بقيتْ ثمةَ ملاحظة لا أرى بدّاً من الافضاء بها الى القارىء، وهى أن الصداقة التى تجر إلى الاعجاب غير الاعجاب الذى يجر الى الصداقة. وأنا ممن يعجبون بالرجل أولا ثم يصاحبونه ، فإعجابي بمزاياه الباهرة هو أساس صداقتى معه وليست صداقتى معه هى أساس إعجابى به.

فاذا سجلت لصديق شيئاً من ميزاته فإنما أسجل رأيي فيه الذى ارتأيته قبل أن أتخذه لي صديقاً وصاحباً وأخاً ، ثم لم أتحول عن هذا الرأى بعد مصاحبته. وهذه كلمة لابد من الافضاء بها إلى من يخلطون بين واجبات الصداقة وواجبات النقد الأدبى النزيه الذى يحترم الاصول الفنية.

وإنا لنسجل على أنفسنا التقصير والعقوق إذا لم نشد بعبقرية شاعر فـذٍّ وأديب متفنن ألمعىّ. لا لذنب إلا لانه من معاصرينا ، تاركين لأعقابنا الاعتراف له بحسناته فى الوقت الذى لا ينفع أدبنا العصرى هـذا الاعتراف بعد أن عققنا أدبه وتغاضينا عن حسناته.

وإذا كان أدباؤنا الممتازون الذين حرموا نفوسهم كلّ لذات الحياة ومبهجاتها — فى سبيل إنهاض الأدب وخدمة اللغة والعلم والفن جميعاً —

لايجـدون منا كلمة انصاف ولايرون إلا جحوداً ونـكراناً للجميل ، فما أجدرنا حينئذ بلقب غـير هذا اللقب السامى ـ لقب الأديب ـ الذى يرى أولّ واجباته انتصارالأديبللاديب « وفرحة الأديب بلأديب ! » ويدين بقول أبى تمام : ـ

« أو نختلف يومايؤلّف بيننا أدب أقمناه مقامَ الوالد »

***

وإنى لأكون ساخراً بنفسى وبالقراء معاً ، اذا حسبت أن الماعةً موجزة كهذه تكفى لتحليل أبى شادى والتنويه بفضله على العربية وعلى الأدب وعلى العلم وعلى الفن ، وقد أبلى فى كل هذه جميعاً بلاءً حسناً وكان الرائد الجرىء . وهذا مايعترف له به النُقاد قبل مريديه . وماظنك برجل أيسر إنتاجه أكبر وأجدى ممـا أنتجه أىُّ فرد من خصومه الزارين عليه المتظاهرين بتحقير جهده الفذّ ؟! مابالك برجل يكون أيسر تآليفه عدة أوپرات يختط بها ـــ فى الشعر العربى — طريقاً واضحة ميسرة معبدةغير ملتوية ولامعوجة مما أكبره أعلام المستشرقين .

ولواستطاع أحد خصومه أن ينظمواحدة من هذهالاوپراتالعديدة ـ « كاحسان » و « الآلهة » و « أردشير » و « الزبّاء » و« بنت الصحراء » و « أخناتون » ـ لكانت بيضة الديك ، ولملأ الدنيا بها فخرا ومباهاة ! !

ثم يكون من آثاره تآليفه القيمة فى علم النحالة (apiculture) التى خدم بها اللغة والعلم والاقتصاد الزراعىمعاً واشتهرتعالمياً،وكتاب «الطبيب والمعمل» ـ فى زهاء ألف صفحة ـ يطوّع فيه الألفاظ العربيةتطويعاًلم يسبقه اليه غيره من أساطين فن الطب الى الآن :

« ردت لطافتهُ وحِدَّةُ ذهنه   وَحْشَ اللغات أوانساً بخطابهِ
والنحل يجنى المرَّ من نَوْرِ الرُّبى   فيصير شهداً فى طريق رضابهِ »

ثم يكون من آثاره ترجمته القوية الرائعة لشكسبير ، وديوانه «الشفق الباكى» فى أكثر من ألف صفحة جياشة بشتى العواطف والاحساسات ، حافلة بالدراسات الادبيــة القيمة ، ونراه يثبت فى كتبه آراء خصومه كما يثبت آراء المعجبين به على السواء ، ويدعو الى النقد الحر المستقل ويحترمه شاكراً ، وهى خلة لم نكد نراها فى سواه من أدباء هذا العصر الذين يحقدون على كل من خالف لهم رأياً أو أظهر فيهم عيباً واحداً [(١)] ! !

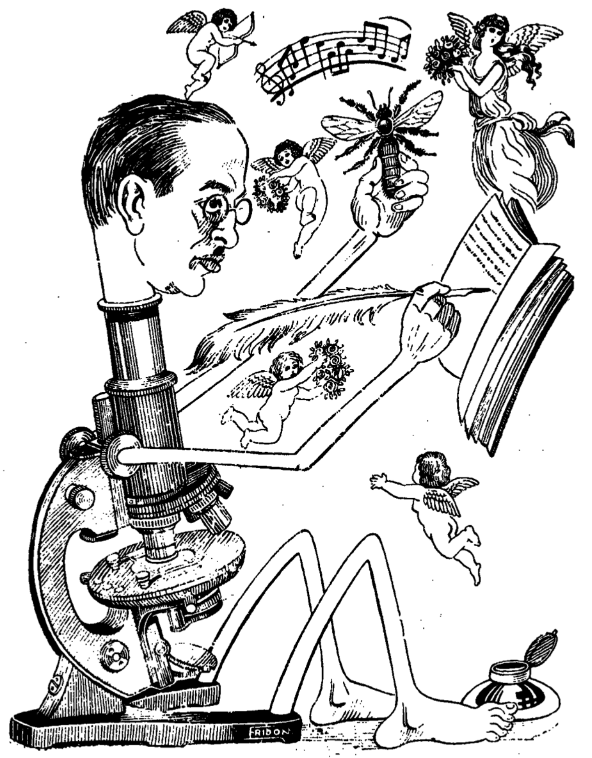
تلك بعض حسنات أبي شادى الذى يمثل لنا أدبَ الثقافة العالية والحياة القوية ، كما يمثل لنا روحَ العلم وحبَّ البحث والاستقصاء ، نسجلها بايجــاز حقائق ناطقــة لامجال للاسراف والغلوّ فيها ، وهى حســنات يذكرها له الأدب وتاريخ اللغــة وتاريخ النهضة العلمية معاً . ولقد كنا نحسب من المغالاة ما رُوى لنا عن أنَّ الشعر كان أيسر أدوات ابن الرومى

---

(١) مما هو جدير بالتنبيه اليه أن من لا يقدرون هذا الشاعر المبتكر الملهم — عن تعجل أو سوء فهم منهم — لا يكلفون أنفسهم قليلا من التأمل الذهني، و ينسون أن كل جديد يحتاج الى أن تألفه النفس قبل أن ينال التقدير الوافى ، وهذا بخاصة في الفنون كالموسيقى والشعر . وعندى أن الشاعر الخلاق المطبوع لا يعنيه تقدير الناس إياه بقدر ما يعنيه أن يسمع الملأ صوته كيما يؤدى رسالته الروحية الفنية ، فلا غرابة إذا كان « أبو شادى » لا يعتبر الشهرة الا منبراً عالياً فقط ، وما أجمل من ترديد أبياته عن «الالهام» فى هذه المناسبة إذ كأنها لسان حاله أمام المتحاملين الجامدين ، وهو بهذه الأبيات يستنطق رسم المصور الفنان فراجونارد (Fragonard) . قال :

وتلفت الرانى الى إلهامه   كتلفت الالهام نحو الرانى
فتلاقيا فى عالم   متمنع الا على المتأمل الفنان!

حتى رأينا انتاج أبي شادي المتنوّع علماً وأدباً ، واختبرنا تفننه فى



صورة فنية كاريكاتورية بديعةمن رسم الاستاذ « فريدون » تمثل مناحى عبقرية «أبى شادى» الأدبية العلمية .

كم راعني من وجهه نظراته للغيب والأحلام فى إيمان
وجبينه المتألق الموحى بما يوحى كتاب الفن فى العنوان
لمأدر أيهما الأجل : أرأسه يستقبل الاعصار دون توان

ذلك ، فآمنا بصدق تلك الرواية ، واتخذنا من عبقرية أبي شادى المتعدّدة النواحي قرينةً أو برهاناً على صحة نظيرتها عند ابن الرومى .

وقد انثنى فى عزمة غلابة — متجهماً ، متبسماً ، في آن
أم مصدر الوحي العظيم وإن يكن — ماغاب عن حس وعن حسبان!
فكلاهما ـ لولا أخيه ـ لما غدا — مثلا لدين عز أو ديان
لولا التجاوب ماتتوج خالق — بصنيعه ، بل ماتطاول فان !
فاذا الألوهة فى ابن آدم أشرقت — واذا جمال الله فى الانسان !
ومتى نظرت الى نوافذ لبه — نطقت بمغلق سره العينان
مسك اليراعة مسكة الخلاق فى — حزم ، وفى علم ، وفى إمكان



(الالهام)

﴿ شعره ورأيه فى الشعر والشاعر ﴾

يرى « أبو شادى » أنه لابد للشاعر المتعالى من رسالة سامية يؤديها ، وأنه لا كمال للشعر فى أن يكون ذاتياً « subjective » فقط ، ولا فى أن يكون موضوعياً « objective » فحسب ، بل إنما كمال ما جمع بين الصورتين ، وما توّج برسالة فنّية عالية للحياة والأحياء . والرسالة التى تزجيه نفسه وشاعريته إلى بثها هى رسالة التفاؤل الانسانى والاندماج الفلسفى فى النوع اندماجاً يجعله يحسّ حقيقة بأنه خالد فى نوعه ، وأن الفرد — أو الحياة المحدودة — يضحى فى سبيل تجميل النوع — أو الحياة المستمرة — فهو يرضى قريراً بهذه التضحية فى سبيل ماتنزع اليه الحياة من جمال وكمال [1] . وهو بهذا الشعور متصوف ، وتتجلى روحه الصوفية — على أقوى ماتكون — فى مناجاته الطبيعة بأناشيده التى تراها — وإن اختلفت أنغامها ومعانيها — متجهةً إلى قبلةٍ واحدةٍ .

وهو — وإن لم يغمط الشاعر الذاتى البحت ، ولا الشاعر الموضوعى الصرف ، حقه بالنسبة إلى مدى قوته فى الشاعرية — إلا أنه ينظر إلى المثل الأعلى من الشعر نظر المؤمن إلى رسالة قدسية ، فهو لا يعتبره شعوراً عميقاً وخيالاً سامياً وعاطفة حارة وتعبيراً فنياً فقط ، بل يراه — مع كل هذا — نشيداً لوحى سماوى يصعد بالانسانية من حضيض البهيمية ويبوّئها مكانتها الروحية الجديرة بها .

والطرس يرتقب البيان كشأننا   فى قبسنا منه صنوف معانى !
ما كان غير الفن معجز حاكم   فى هذه الدنيا وآية بانى !

(١) انظر قصيدته المعنونة « تشاؤمى » فى الجزء الاول من « وحى العام » ص ٤٦ ، وهى التى يستهلها بقوله : —

تشاءمت حتى قد وجدت تشاؤمى   تفاؤل من ينأى عن العرض الفانى

فاذا شئت أن تعرف روح هذا الشاعر وأبّه فحسبك عبرته «أخناتون» ـ وهو أول من ألف رواية عنه وحاول إنصافه فى أدبنا العربى ، وتابعه شوقى بك فى محاولته إنصاف كليوباترة ، وان كان الفرق بين الشخصيتين شاسعاً .

وفى ديوانه « الشفق الباكى » ـ فضلا عن دواوينه السابقة ـ نماذج شتى لما يوصف بشعره الانسانى العالمى ، وكذلك ترى فى ديوانه الأخير « وحى العام »[1] بجزءيه لسنتى ١٩٢٨ و١٩٢٩ م . وفى ملحمته الشعرية الفلسفية المشهورة « شوبنهاور والحياة » تعابير شتى من عقيدته هذه ومن تصوفه القوى . وإذا رجعتَ الى شعره القديم وجدت نفس هذه الروح الانسانية متمشيةً معه فى نموه الفكرى الوجدانى منذ نيف وعشرين عاماً.

***

وأنت ـ إذْ تقرأ شعره القومى السياسى ـ لا تقرأ شعراً ديمقراطياً مثلما تقرأ شعراً إنسانياً فى روحه ، ولا غرابة فى ذلك مادامت هذه هى النزعة الغالبة على الشاعر فى جميع أدوار حياته وفى كل نواحى عيشته : مما يدل عليها تعلقه بمظاهر التعاون الأممى الفكرى ، واشتراكه فيما يستطيع الاشتراك فيه منها .

ولشعره القومىّ ـ إلى جانب انسانيته ـ صبغة ديمقراطية سليمة تجدها

(١) أليس هو القائل ـ فى « وحى العام » ج ١ ص ٧٩ : ـ

إن كان للوطن العزيز رعايتى ... فلدولة الانسان عهد ولائى
لا كان إيمانى بمصر إذا نفى ... حبى لها برى بدين إخائى
وطنى كنفسى ، فالغلو بحبه ... ـ إن طاش ـ مثل الأثرة العمياء
والموطن الأسمى بدنيا ملؤها ... عطف، واخلاص ، وكره عداء
لن يبلغ الانسان أكرم مجده ... حتى يعيش لنده كفداء

فى حَدَبه على الفـلاحين . ألا ترى ذلك فى قصيدته « كوخ الريف »[1] ؟ ثمّ ألا تراه أبلغ محبّب حياةَ الريف للمصرىّ فى مثل قصيدته « فى حضن الريف »[2] التى هى مثال لشعره القومى الكثير ؟

فأنت ترى – فى هذه القصيدة – صُوَراً من العواطف الحارة الجامعة

---

(١) أنظر ديوانه « الشفق الباكى » ص ١٠٧٩ ، إذ يقول : –

فى مقبل الاعوام حين تراه	مثل الجمال المستعز ثراه
ومسنة الجميز تلثم سطحه	ومن النظافة والنظام حلاه
والماء موفور لديه موزع	فى حسن هندسة تزيد غناه
والبائس الفلاح غير سميه	فات السوائم ، واستطال رجاه
يحيا حياة الآدمى منعماً	وبنوه أعوان له أشباه
فهنالك اذكرني برحمة ذاكر	حي لمن أحياه ثم رعاه
إنى أعيش كمجرم فى بيئة	قتلته (*) ثم أبت على رثاه !

(٢) أنظر « الشفق الباكى » ص ٩٢٦ إذ نراه واصفا يوماً فى « قطور » موطن أسرته ، وفى هذه القصيدة يقول : –

القرية السمراء نقط طينها	اللقلق (+) المتأمل المبرور
وتلوح أحراج النخيل كأنها	جند ترد الدهر حين يجور !
لم ترض غير الصفو يسكن قربها	فالهم عن جيراتها محسور !
لابدع إن عبق الهواء بسكره	وتلا أهازيج المنى العصفور !
فمشيت بين فواتن مبثوثة	والفاتن الغاوى بها مسحور !
ملء الحصى – مثل النبات ومائه	والنور – فاض من الاله شعور
وحسدت سائمة يلطف عيشها	هذا الجمال الشائق المعمور
وغبطت مأسوراً لساقية بكت	والماء يضحك حولها ويدور
فجلست فى ظل النخيل بقربها	أصغى ، فيسرف بثها الموفور
والغرس يشكرها بهزة رأسه	والبشر فى لحاته منظور !

(*) أى الفلاح . (+) اللقلق (Stork) : طائر مصرى مفيد ينقى الارض من الحشرات الضارة بالمزروعات .

بين حب الوطن وحب الطبيعـة والتفنن فى وصفها . وقلما نجـد له قصيدة وجدانية لاتجمع بين فنون شتى من الشعر تمتزج امتزاجاً بنفسه المستوعبة لشتى الاطياف والالوان والأنغام .

ومادمنا قد أشرنا إلى شعره القومى - وطائفةٌ صالحةٌ منه موزَّعةٌ بين دواوينـه « مصريات » و « أنين ورنين » و « الشفق البـاكى » و « وحى العـام » - دع عنك مؤلفـاته الشعرية الأخرى مثـل « نكبة نافارين » و « مفخرة رشيد » الخ - فخرى بنا أن نشير إلى قصيدته الوطنية الممتازة : « الفلاحة »[1] . دون ان ننسى أنه صاحب البيت المشهور :

والشعبُ أن يُغفلْ حقوقَ صغيره * صار الكبيرُ بهالصغيرَ الضائعا!

حتى إذا سكنت تمايل لوفهـا	وأتى يئز حيـاله الزنبور
والنحل تنشد شعرها فتجيبها	برحيقها الصافى الشهى زهور
والجدجد الفرحان يقصد حجره	متهـادياً يبدو عليه غرور!
وأكاد أنشق فى التراب ألوهة	وكأنى (غندى) أو (تاجور) !
لم لا ، وأنفاسي بانفاس الهوى	تسرى وهذا الـكون منه سطور؟
والريف مرآة (الطبيعة) عندما	تجلى ، فينشر سحرها المستور
ماأطيب الحالى الاصيل برقة	يهفو لهـا المكلوم والموتور
يأتي النسيم به كاشفاق المنى	أو كالحبيب يعود وهو غفور !
وأنا السعيد بما أرى وأحسه	وكأنما هو شعري المنثور
حتى أفاجأ بالغروب كأنه	توديع من قدست وهو نفور!
وسمعت عن بعد رواية «شاعر»	ونشيده متموج مشكور
فأتم لى حلما كأحلام الصبى	فاضت عليه صبابة وسرور
وأظل أذكره عيانا كلما	أحسست أنى البائس المأسور

(١) أنظر « وحي العام» ج ١ ص ٢٩ ، وفيها يقول :

سـيرى خلال القطن بين تبسم	ما القطـن الامن تبسم فيـك !
ودعى الذي يدعوك ربة مصره	يجني ابتسام الحب دون شريك

ولما كانت للشاعر جولات شتى فى فنون الشعر المتعددة فانى اكتفى بالاشارة الى أهمها ، أو على الاصح إلى مايحضرنى منها : فهو قد أعاد لنا الروح الفلسفى فى الشعر ، وبرهن — أيما برهان — على أن الشعر العالى يعتز بذلك ، وأن الفلسفة لاتضر الشعر بل تخدمه وتغذيه . وليس الذنب عائداً اليها اذا أدخلها بعض الأغرار فى الشعر فأفسده بها . فانما الذنب ذنب من يتناولها بغير بصيرة . ومن يخرجها بتقليداً ، لاعن شعور وإيمان صادق ، وقد رأينا أبا العلاء والمتنبي مثلاً يمزجان الشعر بالفلسفة فيبلغان ذروة الاجادة ويضىء شعرهما بأسمى معانى الفلسفة . وشواهد «أبى شادى» فى هذا الباب تكاد لاتحصى . وهو يرى أن النظرة الشعرية تستطيع أن تستوعب الفلسفة والعلم ، بل وجديرة بان تستوعب كل شىء ؛ والعبرة باندماج الشاعر فى موضوعه بدل أن يكون صانعاً وصافا غريباً عنه . ولعل هذا هو السر فى إكباب أبى شادى على عمله العلمى بشغف كأنما هو ينظم شعراً جميلاً . وله فى « المكرسكوب » — المجهر — قصيدة فلسفية وجدانية فريدة فى بابها .

إنى أبايع بالسيادة من لها — في مجد وادى النيل مجد مليك!
ربت له همم الرجال وأطلعت — أملا كوعد للصباح وشيك
وكأن رفق الشمس لفظة ثغرها — فيحول فى طمى يعز سبيك !

***

ياوحى (بنتاؤور) لم تزل العلى — كالفن فى أيام (منف) تليك !
مازلت لابسة الحداد كسيفة — فلتنزعيه ، فنحن نستوحيك !
أنت المؤلهة العزيزة بيننا — وإن احتملت متاعباً لذويك
سيرى متوجة بتاج محبة — للنفع والاصلاح جنب أخيك
واذا تناساك الذين تخاذلوا — جاهدت إشفاقا على ناسيك

الى آخر هذه القصيدة المصرية الممتعة .

وبينما يروّج غير واحد من أعلام أدبائنا الدعاية ضد المرأة ، على اعتبار أنها نوع من الشر الضرورى ، يعدّها أبو شادى ينبوع السعادة ويضعها فى أرفع منزلة لم تنلها من شاعر عربى من قبل ، بل ولا من أحد من معاصريه . وتدور حولها — على الحقيقة — عبرته «الآلهة» فى رمزىْ الجمال والحبّ ، وبدافع سحرها نظم قصيدته البديعة «الينبوع» مستوحياً — كما شاءت عواطفه الحارة وخياله الشعرى — الصورة الفنية [1] التى رسمها النقاش الشهير إنجرز (ingrss) .

---

[1] فهو يقول لنا فيها «وحى العام» ج ١ ص ٤١ :

بلغ التخيل منك غاية سؤله	وكذا الحقيقة فى الخيال تضوع
هل كان للدنيا سواك رجاؤها	أو كان غير جمالك الينبوع ؟ !
بنت (الطبيعة) أنت ، آية فنها	فعلى روائك فنها المطبوع
تعبت ملايين القرون فأبدعت	ووفت : فكان سناؤك المتبوع
قسماً به لولاك ماحفز النهى	داع ، ولا صحب النبوغ سطوع
لولاك أعلنت العواطف يتمها	وقضى على لب الحياة الجوع
منك استمد الملهمون وأثمروا	فالأصل أنت وما عداه فروع
فاذا اعتززت فان عصرك سيد	واذا أهنت فعزه ممنوع !

***

و وقفت عارية فكنت أمينة	للحسن حين عدوه المصنوع
فى حافة النبع المرحب مثلما	بالبدر رحب ماؤه المسموع
وعرضت فى فتن اثنائك ما اشتهت	عين ، وما سفكت لديه دموع
وقلبت جرتك العزيزة فارتوى	من مائها الينبوع فهو زروع
أودعته غرسا لظلك مثلما	أودعته ألقاً يظل يروع
والنرجس النامى بقربك مفعم	عبقاً ، كذلك لحظه مرفوع
وأرى الجدار قد استحال مباءة	للوحي ، واستولى عليه خشوع
والناميات حياله من خضرة	هى للمحبة نضرة وذيوع
والماء — وهو يسيل بين أنامل	لك — كالحظوظ يفوتها المفجوع

وقد تنوقلت هذه القصيدة وكثر الاقتباس منها — لجمال موسيقيتها



(الينبوع)

وأرى يمينك فوق رأسك وحدها　　كالتاج زينه سنى وولوع

وعرفت أنك أنت نور أو شذاً　　متجسم ، مستأسر ، مجموع

هذا هو الينبوع ، لا النبع الذى　　أسديته روحاً لديك يضوع !

ومعانيها — ولم يفت شوقى بك روحها وأخص معانيها حين نظم قصيدته اللامية « بمصرع كليوباترا ». ولاجدال فى أن نظرة ابى شادى الى المرأة هى نظرة افلاطونيه روحية بريئة ، ويتبع ذلك شعره الغزلى ـ وكله عفيف ـ ونظمه الغنائي الكثير . ولن تجد فى شعره الغزلى ـ كيفما كان الموقف أو الموضوع أو المناسبة ـ شيئاً ينبو عنه الذوق المهذب أو تستحى منه الفتاة . وكما أنه بطبيعته مبتكر ـ فى المعنى والخيال والموضوع ـ فهو كذلك شديد النزوع الى الابتكار فى المبنى : مثال ذلك قصيدته الطريفة « المثال [1] » وهى تحفة من

---

(١) والى القارىء هذه القصيدة : ـ

أتت فى وفاء الجمال النبيل تحيي العليل بلحظ كحيل وثغر جميل
وعطف الخليلة نحو الخليل برغم الزمان

* * *

ولكنها أقسمت أن تدوم كزهر كتوم لعطر نؤوم فطال الوجوم
وعادت تبدد هذي الغيوم بنور الأمانى

* * *

دعتنى لأعلن عن سر فنى بشعر التغنى وحلو التمنى وما ثم عنى
من الحب فى كل نظم أغن (*) كشعر (ابن هانى)

* * *

وشجعها من هواى ابتسامى ونجوى غرامى فزادت هيامى بعذب الكلام
وجادت برأي كنفح المدام لصب يعانى

* * *

دعتنى لأرسمها فى نظيمى بروح وسيم ولفظ سليم ووصف كريم
وقالت: « سأجعل هذا نديمي وآى افتتاني ! »

* * *

(*) رشيق .

حسنات الشعر العصرى الذى مازال نغفل دراسته فى معاهدنا بكل أسف ـ ولا أستثنى من ذلك الجامعة المصرية ـ منقطعين لعبادة القدماء والتغنى بآثارهم، وفى هذه القصيدة مايروعك ويفتنك من الوصف الدقيق المشوق والنغم الشجى، فى حين أن كل عقباه قبلة افلاطونية و«شعر يطيب كوقع المثاني» !!

ولاعجب فى ذلك حينما تدرك نزعة « الايديالزم » المتسلطة عليه دائماً، الموحية إليه بأن يقول :

مذهبي فى جلالة الحسن أن لا يغتدى نعمةً تحب لتفسدْ
أكثر الحسن مايصان ليشقَى انما الحسن مايصان ليعْبَدْ !

ويطول بنا الحديث إذا تكلمت عن شعره الوصفى واستنطاقه للحياة والجماد بل لعالم رؤياه كله فنكتفى بالاشارة الى قصيدته « الرقيبان الصامتان » (١)

فهزت فؤادي بلحن جديد ومعنى فريد لقلبي العميد فكان السعيد
وقلت لها : «ياإلهي الوحيد وأشهى جنانى!»

***

«أينصف حسنك وحي الخيال وأنت «المثال» وأنت الجلال وأنت الجمال ؟
افتنانى ألا فانزعى الثوب قبل الدلال فيحيا افتناني ! »

***

فأزعجها من غرامى سؤالى كأنى المغالى برسم الجمال العزيز المنال
أليس المصور فى مثل حالى بصيد المعاني ؟ !

***

وعادت الى البشر ـ بشر الحبيب بجسم رطيب فلاح الاديب وراح الأريب
فقبلت (فينوس) شعراً يطيب كوقع المثاني !

(١) وصف الشاعر فى هذه القصيدة وقفة الاسد وأنثاه على قمة جبل برقبان : ـ

وقفا على الجبل المنيف وأرسلا شرر العيون الكاشفات وهادا
وقفا وقد ربط الوداد كليهما ربطاً يضاعفه السكون ودادا

فتشاهد الأسد المهوب مراقباً   مثل القضاء يراقب الآبادا !
وبقربه أنثاه تنظر مثلما   تبع الوجود إلهه منقادا !
مرأى به الضدان من عطف ومن   روع ، وقد نستملح الاضدادا
وقفا وقوف الفن : فى ظل وفى   نور ، فلاقى الفن فيه مرادا
هذا يصد. وذاك يجذب حينما   تلقى الخيال مصوراً إيجادا
والنور يعبث بالمشاعر ساخراً   كالسحر بدل بالحياة جمادا
أرنو الى النقش الدقيق معبراً   وأحيل أصباغ الحياة مدادا



(الرفيقان الصامتان)

والى قصيدة المتأملة[1]، وكلتاهما من شعر التصوير الذى أخصب به الأدب المصري، كما ابتدع له فنوناً من الشعر المرسل ومن الشعر الحر، وتصرف تصرفاً حكيماً فى أساليبه البيانية الجديدة وفى مناهجه اللغوية لفظاً وأسلوباً.
ولانحسبنا فى حاجة إلى الاشارة إلى شعره التاريخى وإلى نظمه القصصى الموفق، فنماذجه كثيرة مشهورة، وقد جاءت برهاناً كافياً على طواعية اللغة العربية ومواتاتها لمن يعرف أسرارها ويتضلع منها، وتكون له شاعرية مطبوعة وثقافة تزجيه إلى التعبير والابتكار. وشاعرنا ـ بطبيعة تكوينه العصبي وفرط حسيته وعواطفه ـ شاعر أصيل يرث الشاعرية أو الاستعداد الفنى عن والده الخطيب المفوه والكاتب الشاعر الكبير محمد أبى شادى بك من ناحية. وعن والدته الأديبة الشاعرة الرقيقة السيدة أمينة نجيب وعن خاله المؤرخ القدير والشاعر الناثر المتفنن مصطفى نجيب بك من ناحية أخرى.

وأكاد أخشى رغم حسى لفتة ... من ذلك الأسد الذى يتفادى (*)
وأعد فى حلمي سكوتهما المدى ... كرماً، وقد يلفى البخيل جوادا!

(١) هذه القصيدة التصويرية هى فى ذاتها تبيان جميل لمنزلة المرأة عنده، وهى تفيض سلاسة وعذوبة وموسيقية بديعة، كما أن دقة التصوير تتجسم فيها ـ شأنه في جميع شعره الوصفى الذي اخال أنه يتأثر بطبيعة مهنته الفنية وبذهنه المتأمل الحساس. وإذا طالبتنى بذكر مفتاح شاعرية أبى شادى قلت لك في غير تردد: «الطبيعة والمرأة والانسانية» وكأنها وحدة لديه لاتتجزأ، والخطاب لاحداها خطاب لمجموعها، وهكذا تفسر بيته:

وإنما المرأة الدنيا بما جمعت ... اذا تسامت وصانت حسنها الغالى

واليك قصيدته الشائقة فى «المتأملة»:

عزفت عن المزمار (+) واستغنت بما ... لاقت من الأنغام ملء تامل

(*) يتفادى: يتحامى وينزوي.
(+) أي أعرضت عنه.



في عزلة يحمى (الطبيعة) مثلما تحمى خشوع الراهب المتبتل
وأبت سوى النور الثمين دثارها والنور منها يستعز ويجتلي
والسرو تنميه حرارة قربها مثل الحشائش فى العزيز من الحلى
ويكال الرأس النبات بنضرة منها ، كأن النبت شبه مكال
وترى الصخور تكاد تنبت تحتها والجزع - إذ لمسته - كالمتهلل

البحت الا في مواقف الدفاع أمام تهجم الجامدين أو حسد المنافسين ، إذا مااستحالت نزواتهم الى تحامل مرذول . ولعل من الخير للادب هذا الشعور المتأصل فيه ، لانه يدفعه الى الانتاج المتواصل طلبا للكمال الفنى - على العكس من القانعين الكسالى الفخورين بآثارهم الضئيلة ، لأنهم لايخدمون الأدب ولا يصلحون من ملكتهم بتكرارهم إنشاد شعرهم القديم فى زهو وغرور.

ومن أحسن ما نختاره من شعره الذاتى « Subjective poetry » قصيدته فى الدفاع عن نفسه أمام خصومه المتحاملين وحاسديه ، وعنوانها « جوابى » (1) .

وهذه القصيدة - التي ينظمها شاعر رومانطيقى - هى فى جملتها كلاسيكية

وترى البعيد من التلال قريبة … في الحس ترمق حسنها فى مأمل
والماء مندفقاً هنالك صاخباً … حتى ترى فيرى نحلو تسلسل
وتظل بين تأمل وتأمل .... … فيم التأمل وهى أعذب منهل ؟!

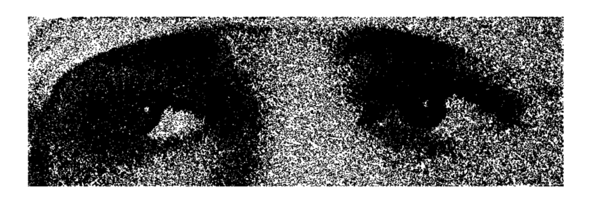
(1) أنظر وحى العام « ج ١ ص ٥٥ » ، وفى هذه القصيدة يقول : -

عددتم ثباتى فى يقينى ضلة … أصبتم، نخلونى إذن ثابتا وحدى
لعمرى ما باليت يوما بجمعكم … خصيما ، كأنى شامخا لست بالفرد!
ولكنما باليت عمرى بمبدئي … ففى مبدئى عرضى وأكرم ماعندى
وأوذيت حتى قد تمتعت بالأذى … وبالحسد المشتق ، وبالألم المردى !
ولم أكترث بالغامطين وحربهم … وإن أنا أدبت المنافق عن عمد
سبيلي قويم لاضلال بنهجه … وما كان رجمى مايشبط من قصدى
فان كان لى فى جرأتي وصراحتى … وفى تضحياتى ماحملتم من النقد
وإن كان حبي للحقيقة سبة … وما حبها إلا التعالى بلا حد
وإن كان سبقى وابتكارى زلة … ولم أر كالتجديد أقرب للجد
فلا خير لى فى مدحكم بسلاسل … فان مديح العبد أصلح للعبد !
وأهلا بطعنى حين أمضى مسدداً … خطاى ، وأقضى بعد سد على سد!
وما خدم الأحرار مثل خصومهم … ولا خدم الابداع مثل ذوى الحقد!
وحسبي أن منتج من حشاشتى … مآثر نفسى للمآثر من بعدي

الصورة [1] ، وهذا الذى يجيب خصومه بهذا الجواب المفحم لايتردد عند الموازنة فى الاعتراف بحسناتهم ، كأنما هى جزء من نفسه ، مادامت قد

ولست أحاكى من شكوا فى قبورهم ولا أنا مثل القرد يفتن بالقرد !
أسير مسير النجم والرجم حوله وهيهات ينبو عن مدار وعن وعد !
وما فقده الا اندماجاً بصنوه وهل كان فقد النجم نوعا من الفقد ؟
ولى مذهبى ، لا أستطيع خيانة له ، أوعزوفا عن رجائى أو ودى
وما ضرنى أن تجهلوا ماأردته وأن تنكروا أو تبخسوا مابه مجدي
فحسبي أنى طابع نهضة بدت بطابعى الفنان فى المثل والضد
يسير بها شعرى الطليق محرراً وان كان بعض الناس ينعم بالقيد !
وآبى مصف الناس فى غير نشوة من الزهو ، لكن فى نبو عن الغمد
فاما أشق الكون طوعا لمهجتى وإما أشق اللحد فى موت معتد !

(١) مثال آخر لشعره الكلاسيكى الديباجة فى جملته ، الرومانطيقى النزعة ، قصيدته الغزلية البديعة « عينان » ، وهى ـ ككل غزله ـ مرآة صافية لحب نبيل صادق لاأثر للتصنع فيه ، ولايلوثه شىء من غزل المذكر القبيح الذى مايزال للاسف شائعاً الى الآن في الشعر العربى . واليك أبياتها الرقيقة الجذابة :



(عينان)

عينان فيما توحيان تمثلث شتى الحظوظ وعزة الخلاق
غني الاله بما تبسم من هوى بهما عن الاعجاز والاغراق
وكأنه سبحانه فى حبه لطف السذاجة فى سنا الاحداق

نالت استحسانه ، ويرفض فكرة الحفاوة به فى «جمعية المصباح الخافت» قائلا انه لا يستحق مثل هذه الحفاوة ولا التعريف به للادباء الغربيين وهو لم يسد بعد للأدب العربى ما أسداه مثل توماس هاردى بتأليفه «المواهل» (The Dynasts) الى الادب الانجليزى بل الى عالم الادب والانسانية . وهكذا يثبت «أبو شادى» اخلاصه الفنى ، وجدارة شعره بالعناية والدرس والاجلال .

وصفوة القول أنه ليس بالغنم القليل للادب المصرى أن يظهر فيه شاعر منجب خلاق يتدفق شاعرية ذو عقيدة قوية ، وقد شمل شعره السخى الملىء بافانين الجمال وطرف الادب كل ماوقع تحت بصره واهتزت له نفسه ، وكل

قد صاغ حسنهما نموذج عشقه ... فاذاه (*) قدوة دولة العشاق !
سحر الالوهة هذه النظرات في ... جذب ، وفى بأس ، وفى اشفاق
عمر شقيت به فداؤهما لما ... لاقيت فى شغفي وسوف ألاقي
لم لا يكون هو الفداء ومنهما ... عمر يجدده جميل تلاق ؟ !
وأحس أني كالمؤمر ناعما ... بالقرب حين أئن فى استرقاقي
وأذوق من هذا النعاس حلاوة ... وكأنما أحظى بلذة راق (+)
وأكاد من نهمى برغم تمتعى ... أشكو من الاقدار والأرزاق !
والنور للظل الرفيق وفاؤه ... كالنبع للازهار والاوراق
أستلهم الأحلام مما ضنتا ... إلا على الفنان والمشتاق
كل البدائع - إن هما رنتا - استوت
فى القبس ، واستجدت مدى الانفاق
وأخص بالعطف الاحب لانني ... أدرى بآيات الجمال الباقي
حولت أنفاسى نظيم عبادة ... وحييت أنشد ما أباح الساقى
حتى غدوت كأن عيشى كله ... شعر ، وماعيشي سوى اشواق

(*) فاذا هو . وقد شاع هذا التركيب فى لغة العصر ، وكذلك نظيره « فاذاك » .
(+) الراقي : الساحر .

ماتاق له وجدانه وتخيلته روحه المتسامية . فتغنى بالطبيعة والفضيلة وبالخير والانسانية العالية ، كما تغنى بحب بلاده وبزرعها وضرعها . وبازهارها وشمسها ونيلها السعيد ـ كل ذلك فى بيان عذب ذى موسيقية ساحرة وجدة رائعة لا أثر للتقليد فيها ، مع غيرة صادقة على تراث أجداده : وفى مقدمته لغته العزيزة التى يرى فى خدمتها المتواصلة وفى التقدم بها اكرامها ، حينما يقنع الادعياء الصاخبون بالوقوف بها وباقتسام فضلات الموتى !!

فدراسة «أبى شادى» الشاعر تجمع فى الواقع بين دراسة شاعرية قوية متأججة وشخصية انسانية ممتازة ، وكلتاهما ثائرة الطبع برغم تفاؤلها . واسعة الأفق ، عالية الروح ، وان انتسبت أصلا الى هذا الوطن وأخلصت له الحب .

الجمال الساحر (١)

حُسْنُ هذا الخد ـ إن قيس به ... كل حسن كان عنه قاصرا
كم شموس قد خبَتْ أضواؤها ... حين لاح الخد نوراً باهرا
فجمال الوجه الاخلاق وقد ... سطعا للناس صبحاً سافرا
منطق حلوٌ ، وحسن رائعٌ ... جمعا هذا الجمال الساحرا

---

(١) أبيات فارسية طلب إلى المؤلف نظمها بعد أن ترجمت له الى العربية .

مذكرات عجائبي (١)

(١)

هب نشالا عرف أني أراقبه باهتمام أليس من المحتمل وقوعه أنه ربما انتهز هذه الفرصة لنشل مافي جيبي من النقود في الحين الذي أنا مشتغل فيه بالاهتمام بمراقبته وعيناي شاخصتان اليه ؟ اذا أقررنا ذلك سهل علينا تفهم مايأتي به العجائبي من المدهشات فانه يبني على هذه النظرية حيله المدهشة.

تعتقد أني أحاول خداعك والعبث بك فتحدق بي عندما تراني أقف على مسرحي كما هي الحال مع النشال حين تراقبه

والعجائبي جدير أن يتعرف كثيراً من مميزات وخواص الناس الضرورية البسيطة فان حيلنا يتحتم فيها الفشل اذا لم نعن بدرسك أيها القارئ عنايتنا بدرس صناعتنا واصطلاحاتنا الفنية

ولقد يكون مثلا من أكبر عوامل نجاحنا قدرتنا على توجيه نظرك متى وأنى شئنا. فاذا صحت فيك قائلا « انظر الى هاهو ذا الصندوق فارغا لاشيء فيه » أو قلت « تأمل هاء نذا ليس في أكمامي شيء البتة ! »

فانما أفعل ذلك لتحصر انتباهك فيهما بينما آتي بحركات خفيفة لاتراها لانشغالك بهما

ولو أنك اهتممت بمراقبتي ولم تهتم بمراقبتهما مثلا لتمكنت من إدراك حيلتي وفطنت اليها بسهولة

---

(١) هو « هوديني» الذي يطلق عليه العامة اسم (الحاوي) وهذه المذكرات كتبها ذلك العجائبي الذائع الصيت

ولكن تحويل انتباهك، هذه الثوانى القليلة عن مراقبتى وقت أن آمرك بذلك فتاي أمرى هو أكبر عون لى على خداعك .

وقد اشتغلت بهذا الفن أكثر من ثلاثين عاما ولا أذكر أنى استطعت ـ رغم ذلك ـ أن أغالب عينى عن التحول عن الجهة التى يأمرنى العجائبى بالتحول اليها عند مايصيح قائلا : « انتبه الى كذا ... »

وذلك تقهقر طبيعي لا يمكن مغالبته ولنفرض انى أريد الاتيان بحركة خفية فليس يكلفنى ذلك عناء كبيرا فى الاتيان بها دون أن تفطن اليها

وذلك انى اذا أردت نقل ساعة جيب أواخراج بيضة من قبعة فانى أدق برجلى دقة شديدة تسترعى الانظار فتتحول الى قدمى ، واذا بدا لى أن مراقبة الحاضرين جدية أشرت الى مساعدى بالاتيان بحركة فجائية غير عادية لتحويل الأنظار عنى قليلا .

واذا أردت احضار كرسى اوطاولة أوسلة إلى المسرح دون أن تراها فإنى أنتقل الى الجهة المضادة لها أولا ، وقد علمت من التجاريب أن أعين الناس تتبع العجائبى دائما الا اذا أراد هو أن يحولها عنه الى جهة اخرى.

كل هذه نظريات سهلة وبسيطة فى تحويل الانظار وهى ـ مع ذلك ـ نافعة ومجدية .

ولكى ندرأ عنا كل شبهة ونتحامى كل ريبة تحوم حول مساعدينا نجعلهم يتظاهرون بأقصى ما يمكن أن يتظاهروا به من العته والبلاهه فيسقطون الاشياء من أيديهم ويتعثرون بالكراسى ويخطئون ـ عن عمد ـ حتى فى أبسط الاشياء العادية المعروفة بالبداهة متظاهرين بان ذلك انما يحدث عفوا لأننا نود أن تكون لديك عقيدة ثابتة وفكرة لا تتزعزع عن جهل أولئك

المساعدين والاعتقاد بانهم عاجزون عن تقديم أية مساعدة لنا على انجاز حيلنا بينما هم في ـ الحقيقة ـ أكبر عون لنا على إتمام عملنا

ولقد جلست مرة الى جانب سيدة من السيدات فرأيتها تظهر أشد الغرابة والدهشة من بلاهة أحد المساعدين وجهله. وأنا معتقد أنه أنشط وأمهر من عرفت في أداء عمله بدقة وإحكام . وقد رأيته ينجز تسعة أعشار العمل حينما عمل الساحر لم يذكر بجانبه . لأن الانظار متجهة الى الثاني غافلة عن الاول .

ولقد أتقن المساعد تمثيل دوره حتى لم تمالك السيدة نفسها من أن تقول ـ : «عجيب ! ـ كيف ! ـ ألم يجد هذا العجائبي أحداً يستخدمه غير هذا الغبي الابله ـ لشد ما يدهشني أن يبقى العجائبي معه مثل هذا المعتوه ! »
واقد هممت بأن أجيبها أن العجائبي بدون هذا المساعد الابله لاقيمة له .

وكل اخواننا السحرة يعرفون أن الناس لايهتمون بتحويل أعينهم كثيراً عن المستوى الذي ينظرون اليه ولذلك السبب يستعملون موائد مصنوعة بطريقة بعينها لتلائم أغراضهم ومقاصدهم بحيث تكون مرتفعة قليلا عن مستوى الانظار. فبينما تحسب نفسك ترى كل مافوقها إذا بك واهم مخدوع

وإذا شئت رؤية مافوقها فارفع بصرك قليلاوالامر الذي يجعلك تغفل هذا أنه يتطلب بعض الجهد

وليس العجائبي وحده هو الذي انفرد بمعرفة مالاعين الانسانية من مميزات وخواص بل يشاركه في ذلك أصحاب الحوانيت والتجار فانهم يعلمون بان اللوحات التي عليها الاثمان اذا ارتفعت قليلا عن مستوى النظر فانها لاترى . ولهذا تجدهم يضعونها مائلة منحدرة قليلة بحيث تستطيع رؤيتها

ومن مميزات العين التى قلما يفطن اليها الناس أنها تتطلع الى الجهة اليمنى أكثر مما تتطلع الى الجهة اليسرى . وينتفع زملاؤنا بهذه الميزات كثيرا اذ يجعلون أهم العابهم وأصعبها فى الجهة اليسرى من المسرح بدلا من الجهة اليمنى ؛ وبهذه الطريقة يكون من الصعب عليك أن تكشف حيلتنا

ولو أنى كنت تاجراً أو صاحب حانوت لوضعت كل مايستدعى النظر وتسر العين رؤيته على الجهة اليمنى للداخل بحيث تغريه برؤيتها عند مايقع نظره عليها

ويسألنى الكثيرون لماذا يهتم السحرة بالاستكثار من ضوء المسرح وبذل همتهم فى الحصول على أكبر كمية يمكنهم الحصول عليها من الضوء بحيث يصبح المسرح شديد الضوء؟ ويحسب أولئك المستفسرون أن ضوء المسرح كلما قل ضوءه أصبح أكثر ملاءمة لنا ، وقد أوضحت لهم أن كثرة الضوء لاتقتصر فائدتها على ابطال زعم الناس انهم عاجزون عن رؤية مافى المسرح بوضوح بسبب قلة الضوء بل تتخطى ذلك الى مساعدتنا على بهر انظارهم واعشائها .

ولعل الكثيرين من الناس يدركون فيما أظن أن تمتمتنا هى خير عون لنا على خداعهم فاننا نكلمك أثناء القيام بالحيلة لا لأن لدينا أمراً هاماً نريد أن نلقى به اليك بل لأننا نريد أن نشغل أذنيك بينما تتم حيلتنا

ولولا ذلك لحصرت كل انتباهك وقواك فى حاسة البصر ففطنت الى حيلتنا . ولكن أقوالنا تقسم انتباهك وتضطرك الى الاصغاء والنظر فى آن واحد فتتقاسم قواك حاستان لاحاسة واحدة

وقد دلتنى تجاريبى على أنه أسهل على الانسان أن يخدع النظر من أن

يخدع الأذن فإن أكثر الناس يستطيعون أن يضبطوا حاسة النظر كما يريدون

ومن الغريب المدهش فى الافراد أننا نجد من السهل علينا جداً أن نخدع المتعلمين و نرى خداعهم أيسر من خداع العامة . ويرجع ذلك الى تعمق العالم فى نظرياته العلمية التى درسها لاستنباط فكرة غريبة يعلل بها غرابة ما رآه أما الفرد العادى فانه لجهله النظريات العلمية تجده يفكر دائماً تفكيراً عادياً بسيطاً وقد يهتدى بذلك الى الحقيقة

ولهذا السبب عينه نتحاشى ونجبن عن اللعب أمام الاطفال لأن عقل الطفل يتشكك بمجرد رؤيته شيئاً لا يفهمه فيصعب علينا خداعه

وبهذه المناسبة أذكر ماحدث لى مع المستر « روزفلت » فقد كنا عائدين معاً من لندن على باخرة واحدة ولم يكن قد أعلن من قبل عزمه على السفر ولا عن اسم السفينة التى أزمع أن تقله ، ولكنى حين ذهبت لابتياع تذكرة أخبرنى الكاتب أن المستر « رزوفلت » مرافقى فى هذه السياحة ، فسرنى ذلك بالطبع وعلمت أنهم بلا شك سيدعوننى لاظهار بعض مدهشاتى أمامه فعزمت فى هذه المرة على ابداء شىء طريف لهذا السيد

وكان المستر « روزفلت » قد رسم خريطة وبين فيها اكتشافاته وأرسلها الى احدى الصحف الانجليزية وأمر أن تنشر بعد أن تقلع السفينة بثلاثة أيام ولم يعلم أحد بأمر هذه الخريطة الا المستر « روزفلت » وشخص واحد أو شخصان فقط . فاعتزمت أخذ صورة منها لأفاجئه بها

أما كيفية حصولى على نسخة منها فأرجو أن يعفينى القارىء من ذكرهِ وحسبي أن أؤكد له أنى حصلت على نسخة منها بسهولة

وفى اليوم التالى طلب الي أن أعرض عليهم بعض الالعاب وأن أجيب

عن بعض الاسئلة وقد كنت متحققاً من أن بعض الحاضرات سيطاب الى أن أرسم الخريطة التى فيها اكتشاف المستر روزفلت ولم يخطئ ظنى فقد سألنى المستر ـ «تيدى» ـ والضحك ملء فيه نفس هذا السؤال وهو واثق من أنه قد عثر على أمر لن أهتدى الى حله. ولما شرعت فى رسمها جحظت عيناه وظهر عليه من الدهشة والاستغراب والعجب مالم أره على أحد فى حياتي قط ثم اندفع الى قائلا : «ويلك ياخبيث ذلك أقصى مايصل اليه عجائبى من الاغراب والحذق»

(٢)

وأنت حين تأتى بما يعده الناس مستحيلا [١] تتحول إليك أنظارهم وتشرئب أعناقهم ويجلسون وكأن على رءوسهم الطير وهذا هو الأمر الذى يحدونى، إلى اظهار حيل متنوعة مثيرة للعواطف كل عام. ولى فى هذا العام شأن عظيم

---

(١) من أجمل ماقرأناه في تعليل مايأتيه العجائبى من ضروب الحيل قول العلامة «ابن حزم» فى كتابه «الملل والنحل» بمناسبة قوله تعالى : «يخيل إليه من سحرهم أنها حية تسعى» عند الكلام على السحر وأنه تخييل لاحقيقة قال :
«ذلك انهم رأوا صفة حيات قصار وطوال تضطرب فسارعوا الى الظن وقد روا أنها ذوات حيات ولو أنعموا النظر وفتشوا لو قفوا على الحيلة فيها وانها ملئت زئبقا ولد فيها تلك الحركات، كما يفعل العجائبي الذى يضرب بسكينه فى جسم انسان فيظن من رآه ممن لايدري حيلته ان السكين غاصت فى جسد المضروب وليس كذلك بل كان نصاب السكين مثقوبا فقط، فغاصت السكين فى النصاب. وكادخاله خيطا فى حلقة خاتم تمسك طرفي الخيط بيد ثم يأخذ العجائبى الخاتم الذي فيه الخيط بفيه وفى ذلك المقام أدخله تحت يده وكان فى فيه خاتم آخر يرى من حضر حلقة الخاتم الذى فى فيه يوهمهم انه قد أخرجه من الخيط ثم يرد فمه الى الخيط ويرفع يده وفمه فينظر الخاتم الذى كان فيه الخيط وكذلك سائر حيلهم وقد وقفنا على جميعها (ارجع الى كتاب الملل والنحل لابن حزم «جـ ٥ ص ٥»)

فى بعض ألعاب مدهشة منها إخفاء الفيل وإخفاء الابرة التى تبتلع مائتى إبرة ومائة قدم من الخيط ثم اظهار هذا العدد مرة ثانية وفى كل ابرة خيطها .

ويسألنى الكثيرون عن أبدع الحيل التى يميل إلى مشاهدتها الجمهور وجوابى أن هذا يتوقف على نوع الحاضرين . فالسيدات مثلا يرغبن فى مفاجأتهن برؤية الازهار والطيور الجميلة والاشياء التى يرينها ويتناولنها يوميا . والرجال ـ على العكس من ذلك ـ يحبون لعبة الورق وحجرة العذاب الصينية ، وأرى أن جميع الحيل التى يشتد فيها الخطر تروق الرجال أكثر مما تروق النساء

ومن الملاحظات العجيبة أيضا أن الناس يهتمون لرؤية الاشياء تختفى أكثر مما يدهشون لرؤيتها تظهر ثانية . فانك حين تعيد لهم الأشياء التى أخفيتها عنهم يتهمونك بأنك كنت قد خبأتها . فى مكان لم يفطنوا اليه أما حين تخفيها عنهم فانك تزيد فى حيرتهم واعجابهم ولهذا ترانى أهتم باخفاء الفيل الضخم الذى يزن عشرة آلاف وخمسمائة رطل عن أعينهم فى بضع ثوان فى مضمار نيويورك . أكثر مما اهتم باعادته ثانية من الهواء

وان فكرة إخفاء فيل زنته عشرة آلاف وخمسمائة رطل هى فكرة مروّعة ومحيرة معاً

وقد قمت باعمال باهرة فى السنوات الاخيرة فى مناسبات عدة فاظهرت قدرتى على انقاذ نفسى بعد أن يشد وثاقى

على أن مثل هذه الحيل تكبّدني عناء لا يوصف

فقد كنت أوثق فى جذع الشجرة وثاقا محكما وتغل يداى ثم أغمر فى الماء بحيث تكون رأسى الى أسفل فانجو من تلك القيود الثقيلة المحكمة وأتخلص من تلك الحبال التى أوثقونى بها بحيل عجيبة مدهشة . وفى هذا النوع من

الألعاب من الخطر المحقق مالا يستهان به . وهو أكثرها ملاءمة وتسلية للناس . والناس يأنسون برؤية الخطر وليس من مأربهم طبعا أن يرونى قتيلا ولكن من مأربهم أن يرونى فى خطر محقق أحاول النجاة منه . والخطر إذا كان الانسان بمأمن منه حين يراه يصبح ممجبا

* * *

ولو أن قوما رأوا مصورا فوق سطح منزل ذى عشرة طبقات لوقف بعضهم ينظر اليه . ولو أن ذلك الرجل نفسه قد زلت قدمه مثلا وأمسكت احدى يديه بحافة السطح فاصبح معلقا فى الفضاء لرأيت الجمع يحتشد والزحام يشتد فى أسرع وقت لرؤية هذا المنظر ومشاهدة مافيه من الخطر . وليس يغتبط الناس فى أمثال هذه المواقف برؤية سواهم من الناس يهلكون . ولكنهم يودون ألا يفوتهم ذلك إذا حدث ويحبون أن يكونوا فى اللحظة التى يحدث فيها . وهذا هو السر فى اغتباط الناس وشدة فرحهم حين يرونى أبدأ فى اللعبة المعروفة بحجرة العذاب الصينية التى يعدونها من أمتع حيلى لما فيها من الخطر الدائم

ويرى الحاضرون — قبل شروعى فى هذه اللعبة الشاقة — تلك العلبة الزجاجية الضيقة وهى ملأى بالماء وفى رجلى ثقل زنته ثلاثمائة وخمسون رطلا وأنا أنغمس فيها بحيث تكون رجلاى فى أعلاها ويداى فى أسفلها — كما مر — على مرأى من الناس جميعا . ثم تغلق تلك العلبة الزجاجية التى تحتوينى ، والخطر الدائم المحقق فى هذه اللعبة هو أن هلاكى يتحتم اذا لم استطع التخلص من تلك القيود والاصفاد وأنجو من هذه العلبة الزجاجية توا . وذلك هو السر فى إيجاد مساعدى بحيث يقف بجانب الزجاجة دائما حاملا فى يده معطسا

حتى إذا غبت دقيقتين دون أن أخرج اضطر الى تحطيم الزجاجة وإخراجى فى الحال .

واذ يرى الحاضرون هذا المساعد واقفا امام الزجاجة يتحققون من أن هناك خطرا على فينصتون انصاتا و يرهفون آذانهم ارهافا ولا يتحركون وكأنما على رءوسهم الطير . ويظلون كذلك حتى يرونى أنجو من هذه الزجاجة ويستغرق ذلك عادة نحو ثلاثين ثانية

وانه الخطر المحدق بى هو الذى جعل الجمع يحتشد ويكثر عندما يرانى موثقا مغلولا أقفز من القنطرة الى النهر . وخطر هذه اللعبة ايضا فى ان هلاكى محتمل جدا اذا لم تتح لى فرصة النجاة منها والعودة الى سطح الماء ثانية وأنا حى.

وأذكر فى ذات يوم من ايام الشتاء فى بطرسبرج أنى اثرت فى نفوس المتفرجين انزعاجا حقيقيا وسببت لهم جلبا وصياحا ورعبا

وذلك انى أغللت وقيدت كما هي العادة ثم ربطت الى جذع بالحبال والسلاسل والقيت فى فرجة كبيرة قطعوها من مياه النهر المتجمد فى ذلك الحين لهذا الغرض . ولما أراد البوليس التدخل لم تمهله ريثما يمنعنا بل أسرعت بالقاء نفسى فى الماء قبل أن يقوم بعمل أى شيء ليحول بينى وبين ذلك وهنا بدأ الجزء المروع من هذا الفصل فانى بعد أن حللت وثاقى ـ دون عناء ـ حاولت الصعود إلى سطح الماء فوجدتنى قد أخطأت تلك الفرجة التى ألقونى فيها ورأيت أن سمك الثلج فوقى يبلغ سبع بوصات وأيقنت حينئذ أنى لامحالة هالك ولكن إيمانى بالنجاة من هذا المأزق طمأننى قليلا ولم أشأ أن استسلم للهلاك دون أن أبذل كل مالدى من القوة فى مقاومته فقربت أنفى من

الجليد ـ بقدر استطاعتى ـ لأتنسم الهواء وذكرت أني قرأت عن رجل نجا من مثل هذا المأزق بان واصل السباحة على شكل دائرة ضيقة تزيد اتساعها شيئاً فشيئا فى كل مرة عن الأخرى ففعلت ذلك وانتهيت أخيرا إلى الفرجة التى ألقونى فيها وظهرت على وجه الماء ثانية بعد أن مكثت تحته ثلاث دقائق

وكان جسمى كالكتلة من الثلج لشدة مااحتملته من البرد القارس ولم أتمكن طبعاً من اخفاء ضعفى على المسرح ، ولكني لم أعبأ بذلك فقد كنت فى شغل عن ذلك بما رأيته من ابتهاج بسلامتى من ذلك الهلاك وشكرت ـ كل الشكر ـ الله على ذلك

ولا أنسى ما حدث فى «ملبورن» بأستراليا فقد كان أغرب وأعجب مالاقيته فى جميع أطوار حياتي ، ولقد جاء ستون ألف شخص وراقبونى وانا أغطس فى الماء ـ فى ذلك اليوم ـ موثقا الى جذع شجرة وشخصت إلى كل عين حين ألقيت نفسى فى الماء ولم يلبث الناس أن رأوا على سطح الماء جسما طافيا لاحراك به ولا حياة . فتبادر الى اذهانهم ان ذلك هو جسمي ، وقد أخبرنى مساعدى بعد ذلك ان انزعاجهم كان شديداً وان الرعب والخوف قد وصلا بنفوس الحاضرين الى حد لايمكن وصفه . وقد أسرع الى انتشال هذا الجسم سبعة قوارب وعلا الصياح والجلبة والصخب وإذا بى قد ظهرت بغتة على وجه الماء وليس بينى وبين ذلك الجسم الا بضع خطوات وياهول مارأيت ! أؤكد للقارىء ان انزعاج الحاضرين حين رأوا ذلك الجسم الهامد الذى حسبوه جسمى هو انزعاج ـ على ماوصل اليه من الشدة ـ لايمكن أن يقاس الى انزعاجى واضطرابى اللذين وصلا الى حد أن أفقدانى صوابى فيه . ولم

تمر على لحظة أو لحظتان حتى فقدت الحركة وكان الحاضرون أيضا يصخبون ويصرخون كما يفعل المجانين وأسرع إلى رجالى فجذبونى إلى السفينة وأنا مهما عشت ومرت بى عجائب ومروعات فان أنسى فداحة ذلك الخطب الذى حدث لى يومئذ

ويسألنى الكثيرون من أصدقائى عن أحب الألعاب والحيل التى آتيها وأنا أجيبهم على ذلك السؤال بأن جميعها حبيب إلى بلا ريب وإلا لما أتيتها . ولكن لعل ماأفرده بأعظم الحب والشغف الشديد هو هروبى من السجون التى يعتقد الناس اعتقاداً جازماً أن الهرب منها محال

وقد دعيت منذ بضع سنوات إلى لهروب من الحجرة نمرة ٢ الخاصة بالمحكوم عليهم بالاعدام فى سجن « فدرال » بواشنطون وهى الغرفة التى سجن فيهاقاتل الرئيس «جارفيلد» . وقدراهننى الضباط على الفرار منها ولم أجد صعوبة فى ذلك فخرجت منها توا ولكن عن لى أن أتفكه باتيان بعض الطرف فذهبت إلى بقية الغرف الأخرى وتمكنت من فتحها ووضعت كل سجين فى غرفة الآخر

وكنت مجردا من ملابسى حتى لايتبادر إلى ذهن بعض المرتابين أنى أخفى معى بعض العدد والآلات لتساعدنى على النجاة فلمارآنى السجناء على هذه الحال حسبوا أن الشيطان أو أحد أقربائه قد حضر اليهم . فارتعدت فرائصهم من الرعب ولبوا أمرى على الفور ، وكم سخرت بهم حين أتى السجانون لرؤية مسجونيهم وتبادر الى أذهانهم أنهم هربوا من السجن ولم تهدأ ثائرتهم الابعدأن ذكرت لهم الحقيقة

وتقابلت مع اسكتاندى فى انجلترا ذات يوم وقد أفلح فى الفوز على

بحيلة لم أفطن لها بعد وهى تدل على ذكائه ومكره فقد راهننى على أن أخرج من حجرة مغلقة. وحين وضعنى فيها قال لى ساخرا: «لا أحسب أنك قادر على الخروج من هذه الغرفة فى هذه المرة؟» فأجبته أنا أيضا بابتسامة الهازئ الواثق من نفسه، وشرعت فى فتح القفل دائبا نحو ساعتين دون أن أصل الى أية نتيجة مجدية، ولا أحسب أنى فى نهايتهما قاربت فتحه أكثر مما كنت عند وقت دخولى الغرفة مباشرة!

ولكنى لم أيأس بل واصلت العمل حتى غلبنى الاعياء على أمرى أخيرا، فاستندت الى الباب لاستريح قليلا واذا بذلك الاسكتلندى الماكر — قد وقف أمامى فجأة وقال إنه لم يغلق الباب بالمفتاح — كما هى العادة — لعلمه أن أول ما أسعى اليه هو محاولة فتح الباب. وقد أصاب الحقيقة فاننى لو كنت عالجت الباب نفسه — دون أن اهتم بمعالجة القفل — لخرجت فى طرفة عين.

* * *

ولا تتوهمن أيها القارئ العزيز لحظة واحدة أن هذه التجاريب والنظريات قد وصلت الى علمى بسهولة فاننى لم ادركها الا بعد عناء لا يوصف ولقد طالما وقفت أمام المرآة لارى نتيجة ما أتيته من الحركات الخفيفة وأثق من النجاح.

وقد تعاون على عناء تلك الألعاب وأخطارها فشيبا رأسى وأصبحت وأنا فى السادسة والاربعين أبدو للناظر شيخا قارب الستين!

الطيرة والتشاؤم[1]

بين المعرى وابن الرومى

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه ـ مع تشاؤمه الذى لايقف عند حد ـ ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير .

وإنما نعنى بالتشاؤم ذلك المذهب الذى يسميه الافرنج « Pessimisme » ونريد أن نسميه بالعربية سخطا ، ونسمى أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لايرون فيه إلا شراً مستطيراً لايستطيعون دفعه ولا أمل لهم فى إزالته أو تحسينه ، ولاينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد . وعلى العكس من ذلك مذهب الرضى ويسميه الافرنج « Optimisme » وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ، فيرون كل مافيه يدعو إلى الغبطة ، ويرونه سائراً فى طريق التقدم والكمال ، وفى هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع « ماكس نورداو » جماعة الساخطين سخرية وتعنيفا ورماهم بنقص فى عقولهم ، فى مقاله الذى كتبه عن السخط والرضى Pessimisme & Optimisme فى كتابه الفلسفى الذى سماه الغرائب « Paradoxes »

أما الطيرة « Maauvis Augure » ونقيضها الفأل — أو التيمن « Bon Augure »

---

(١) فصل مختار من شرح رسالة الغفران للمؤلف

فمذهب آخر يختلف فى نظرنا عن مذهب السخط والرضى كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان ساخطا أو راضيا ولكنه لايتطير ولايتفاءل ، وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه — فى الوقت نفسه — ساخط على الحياة أوراض عنها .

وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لايفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات لاستنتاج شىء وهمى لاأساس له من الصحة ولا قيمة له — عند العقلاء — وإنما يدعو إليها — فى نظرنا — خفة العقل وعدم اطمئنان القلب ، ولعل الانسان لو رجع الى نفسه يسائلها فى أى ساعتها تميل الى التعلل بأشباه هذه الخزعبلات ، لرأى أن ذلك كثيرا مايحدث فى أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مذهل تملك على الانسان قلبه ، وأطار لبه وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أتفه الأسباب وأقلها غناء لينقذ نفسه من الهلاك . فأما فى ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم إلا أن كان من ذلك النوع الذى أصبح له التطير ديدنا وطبعا ، وهذا غير السخط الذى أساسه سوء الظن وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والنظر إليها من جانبها الأسود !

انظر إلى تطير الامين — مثلا — حين حاصره « طاهر » ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل : قال « ابراهيم بن المهدى » وكان حينئذ مع الامين :

« خرج الامين — ذات ليلة — يريد أن يتفرج من الضيق الذى هو فيه فصار إلى قصر له بناحية « الخلد » ثم أرسل الى فحضرت عنده . فقال :

« ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء على شاطىء دجلة ، فهل لك فى الشرب ؟ » فقلت : « شأنك » فشرب رطلا وسقانى آخر . ثم

غنيته ماكنت أعلم أنه يحبه ، فقال لى : ماتقول فيمن يضرب عليك ؟ »
فقلت : « ما أحوجنى اليه » فدعا بجارية متقدمة عنده - اسمها « ضعف » -
فتطيرت من اسمها ونحن فى تلك الحال فقال لها : غنى بشعر الجعدى :

« كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم »

فاشتد ذلك عليه وتطير منه ، وقال : « غنى غير ذلك » فغنت :

« أبكى فراقكم عينى فأرقها إن التفرق للأحباب بكاء
مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا . وريب الدهر عداء

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا ؟ »
فقالت « ماتغنيت الا ماظننت أنك تحبه ! » ثم غنت آخر :

« أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ، وما دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك
وملك ذى العرش دائم أبدا ليس بفان ولا بمشترك »

فقال لها : « قومى غضب الله عليك ولعنك »

وكان له قدح من بلاور حسن الصنعة ، وكان موضوعا بين يديه - فعثرت الجارية به فكسرته ، فقال : « ويحك ياإبراهيم أما ترى ماجاءت هذه الجارية ثم ما كان من كسر القدح ؟ والله ما أظن أمرى إلاقد قرب »

فقلت « يديم الله ملكك ويعز سلطانك ويكبت عدوك »

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتا : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان »

فقال : « ياإبراهيم أماسمعت ماسمعت » قلت « ماسمعت شيئا ! » - وكنت قد سمعت - قال « تسمع حسا » فدنوت من الشط فلم أر شيئا - ثم عاودنا

الحديث ، فعاد الصوت بمثله ، فقام من مجلسه مغتما إلى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى الا ليلة أو ليلتان حتى قتل [1] »

فانظر الى هذه الحكاية المحزنة وتأمل قليلا . ألست ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر فى كل هذه الاستنتاجات ؟ وتمثل كل ماحدث فى تلك الليلة المروعة قد حدث فى ليلة أنس وطرب ، بل فى ليلة عادية - إن شئت - أكانا يهتمان به كل هذا الاهتمام ؟

وهذا الروع الذى أحسه إبراهيم المهدى - حين سمع اسم الجارية « ضعف » - هل كان يحس مثله إذا تبدل الموقف وكان انتصارا وفوزا ؟ أولم تكن الجارية متقدمة عند الأمين ؟ فكيف لم يتطير باسمها من قبل هذه المرة ؟ وهل تحسبها غنت إلا ما حسبت أن مولاها يحبه ؟ وكم غنته - هى أو غيرها - مثل هذه الأبيات فطرب وانتخى ؟ ومن يدرى فربما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر الشجى . وكان هذا الميل مغريا الجارية على غناء تلك الابيات ؟ وتمثل الامين عاقب مسيئا بالقتل على جرم فرط منه فخامره شىء من الندم - وإنه لكذلك - إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

« كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم »

ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده ؟

وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المسىء وهو يفكر فى ذلك ، أكان يتطير منه اذ ذاك ؟ وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه ؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذلك المسىء ؟

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية - فى موقف غير هذا - فى

---

(١) انظر كتاب مصارع الخلفاء (ص ٨٦)

موقف غرام مثلا ، في ساعة يفكر فيها الأمين في معشوق له - مات ولم ينعم به طويلا - فكيف يكون أثرها في نفسه ؟ وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للاحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف فتغير المعنى .

واعكس الآية ، فتمثل الأمين - في مكان المأمون - وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه وأنه قد سمع الأبيات الاخيرة وهو يحاصر مدينته ؟ فأى أثر يتركه في نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما   دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك   قد زال سلطانه إلى مالك ! »

وهكذا غير الظروف وتمثل آثار تلك الأبيات في نفسيهما تجدها مختلفة يصل اختلافها الى مسافة ما بين الضد والضد أحيانا !

ثم ماذا في هذه الجملة التي غمت الأمين : « قضى الامر الذى فيه تستفتيان » ألم يكن فيها متأول حسن - لو شاء ! ألم يسمعها عقب دعاء له بدوام ملكه وإعزاز سلطانه وكبت عدوه ؟ فإذا قضى هذا الأمر فقدتم له ما أراد !

ولكن إخوان هذا الخليقة - كما يقول أبو العلاء - لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة !

ومن أجمل ماروه عن التطير والتفاؤل قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد — الطيرة والظن والحسد — » ، قيل له : « فما المخرج منهن يارسول الله ؟ » قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ . »

إذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطا ولم يكن متطيراً . أما « ابن الرومى » فربما لم يكن شديد السخط على الحياة ، ولكنه

كان — على الرغم من ذلك — إماما من أئمة المتطيرين ، وفى رسالة الغفران ورساله ابن القارح مامزيدك اقتناعا بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لايلبس ثيابه إلا بعد أن يتعوذ ، فاذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح . فاذا رأى ذلك الاحدب ـ الذى تعود مضايقته ـ جالساً ، جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومى » كيف ينتقم منه ويثأر لنفسه منه ، ببيتيه اللذين وسمه بهما آخر الأبد ، وهما قوله :

«قصرت أخادعه، وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما قد ذاق أول صفعة وأحس ثانية لها فتجمعا»

ولابن الرومى ـ فى تطيره ـ أخبار شتى . منها أن أبا الحسن الأخفش ـ غلام المبرد ـ كان كثيراً مايقرع بابه ، فاذا رد عليه ابن الرومى مستفسراً أجابه : « مرة بن حنظلة » فيتطير من ذلك ولايجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه فى ديوانه مرراً هجاء مؤلما مقذعا .

ولما كان هـذا المقام لايحتمل شيئاً من الاسهاب فى تفصيل هـذه النزعات وتحليلها والمقارنة بينها ، فانا نكتفى بهذا القدر ـ على ايجازه — ونشير الى رأى أبى العلاء فى مذهب المتطيرين والمتفائلين ؛ وتهكمه اللاذع بأصحابه وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ماترى فى هذا الفصل من حججه[1] الباهرة وبراهينه القوية التى دلل بها على فساد ذلك المذهب . ثم نتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومى الى التطير ، وإليك نخبة من كلام أبى العلاء فى ذلك قال :

« تروم قياسا للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها الحصر »

---

(١) ارجع الى رساله الغفران (ج ص ٨١)

« تعرض للطير السوانح زاجراً ... أمامك من نقل يكفك زاجر؟ »
« أغربانك السحم استقلت مع الضحى ... سوانح ، أم مرت حمائمك الورق؟ »
« لا تفرحن بفال إن سمعت به ... ولا تطيرْ ، اذا ما ناعب نعبا
فالخطب أفظع من سراء تأملها ... والأمر أيسر من أن تضمر الرعبا »
« آليت لا يدرى بما هو كائن ... متفائل بالأمر أو متطير
كالدار صبحها سوى سكانها ... فثووا بها ، وتحمل المتدبّر »
« زجر الغراب تطيراً ، ونقيضه ... ديك لأهل الدار أبيض أفرق »
« شاهدت قبّرة نخفت تطيراً ... ما كل ميت لا أبا لك يقبر ! »
« لا يتطير بناعب أحد ... فكل ما شاهد الفتى طيره »
« وما طير اليمين . بمبهجاتى ... فأخشى الهم من طير الشمال ! »
« وقد سمى المرء « الهزبر » تفاؤلا ... وليس بباق فى الليالى هزبرها ! »
« وما أسر لتعشير الغراب أسى ... ولا أبكى خابطا حل تعشارا
ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ... ولا ظننت سهيلا كان عشارا [1] »
« وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس ، لا . بل فى الرجال غباء
وذو نجب إن كان ما قيل صادقا ... فما فيه إلا معشر نجباء ! »

* * *

وانظر الى سخريته الدقيقة فى قوله :

« رآنى فى السكرى رجل ، كأنى ... من الذهب اتخذت غشاء رأسى

(١) يقول : « لا أضمر حزنا إذا سمعت الغراب يصيح عشرة صيحات متتابعة ، ولا أبكى جمعا ذهب الى « تعشار » ، ولا أتوهم أن « الزهرة » امرأة كما تفعل العرب ولا أن « سهيلا » كان عشارا بالیمن .

قلنسوة ـ خصصت بها ـ نضارا كهرمز . أو كملك أولى خراس
فقلت ـ معبرا : ـ « ذهب ذهابى وتلك نباهة لى ـ فى اندراسى »
أقمت ـ وكان بعض الحزم يوما ـ لركب السفن أن تاقى المراسى .

* * *

وإلى القارىء نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والفأل :

«لا تهاون بطيرة أيها النظا ر . وأعلم بأنها عنوان
قف ـ إذا طيرة تلقتك ـ وانظر واستمع ـ ثم ـ ما يقول الزمان!
قلما غاب من أمورك عنوا ن مبين والزمان لسان (١)
لا تصدق عن النبيين . إلا بحديث — يلوح فيه البيان
قد أتى عن نبينا حبه الفأ ل . مضيئا بذاك البرهان
فدع الهزل والتضاحك بالطير رة . فالنصح مثمن مجان
أترى من يرى البشير بشيرا يمترى فى النذير . ياوسنان (٢)

---

(١) ومن قول ابن الرومى : « الفأل لسان الزمان . والطيرة عنوان الحدثان» قال ابن رشيق :

« وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف ـ تطيرا بسوء ما يراه و يسمعه ـ حتى أن بعض اخوانه من الامراء افتقده وأعلم بحاله في الطيرة فبعث إليه خادما اسمه اقبال ليتفاءل به . فلما أخذ اهبته للركوب . قال للخادم : «انصرف إلى مولاك فأنت ناقص . ومنكوس اسمك « لا بقا » وابن الرومى القائل : « الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان » . وله فيه احتجاجات وشعر كثير »

(٢) كان ابن الرومى يحتج للطيرة و يقول : « ان النبي (ص) يحب الفأل و يكره الطيرة: أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده » و يقول : إن النبي (ص) مر برجل ـ وهو يرحل ناقة و يقول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصبحنا ملعون » وأن عليا رضي الله عنه ـ كان لا يغزو غزوة ـ والقمر فى العقرب ! » انظر خاتمة الجزء الثالث من ديوان

خبّر الله أن مشأمة كا نت لقوم ، وخبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال ، والفرقان ؟ »

« وقد تفاءلت له – زاجرا كنيته ، لازاجرا ثعلبا
إنى تأملت له كنية – إذا بدا مقلوبها – أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وذاك فأل لم يعد معطبا
بل ذاك فأل ضامن سبعة مثل الصقور استشرفت أرنبا
يأتون من صاب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
فى مدة تغمرها نعمة يجعلها الله له ترتبا
حتى نراه جالساً بينهم أجل من رضوى ومن كبكبا
كالبدر – وافى الأرض فى نوره بين نجوم سبعة – فاحتبى
يعدى على الدهر – اذا اعتدى ويؤمن الناس – اذا استرهبا

* * *

« تفاءلت والفأل لى معجب فقلت – وما أنا بالعابث [1] – :
« أبو حسن وأبو مثله كنيا أبى حسن ثالث ! »

* * *

أحذر أهل الأرض شؤم ابن طالب فما زال مشحوذا على من يصاحب
وقد جربت منه على « آل مخلد » تجارب . ليست مثلهن تجارب
أزيرق مشئوم ، أحيمر قاشر لأصحابه ، نحس – على القوم – ثاقب

ابن الرومى شرح المؤلف

(١) وليت شعرى ماذا كان يقول ابن الرومى لوكان عابثا ؟

وهل أشبه المريخ ـ إلا وفعله ... لفعل شبيه السوء ـ شبهمقارب
أعوذ ـ بعز الله ـ من أن يضمني ... وإياه فى الأرض البسيطة جانب
شبيهه « قدار » بل قدار شبيهه ... وان قيل:«كايم»وان قيل.«كاتب»
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف، والسيف قاضب
ويدعى أبوه « طالبا » وكفا كم ... به طيرة ـ أن المنية طالب
ألاقاهِ بوامن «طالب»و«بن طالب» ... فمن طالب ،ثليهما ، طار هارب !
قل لغراب البين ـ تبا له ـ ... اذا تعاطى القول فى مذهب [1]
أو رفع الصوت بشدو له ... مثل سقيط الدمق الأشهب :
« اسكت ، لحاك الله ـ من قائل ... أجنف عن قصد الهوى أنكب »
لاتنطقن الدهر فى محفل ... واغضض على الكثكث والأثاب
أنت غراب ـ خير أحواله ... مالزم الصمت ـ ولم ينعب
فاترك نعيبا ـ شؤمه راجع ... عليك ـ يحدوك الى معطب
يابين ، أنت البين فى عزة ... بين غراب البين والاخطب [2]
ينتقل الناس وأحوالهم ... وأنت فى الدنيا من الرتب [3]
إذا جلا عن منزل أهله ... فأنت فى أوتاده الرسب
أنت أثافيه وآناؤه ... يشعب أهلوه ـ ولم تشعب [4]

---

(١) من أبدع ماقرأناه فى انصاف الغراب، وتبرئته من تهمه التفريق، قول بعض الشعراء:

والناس يلحون غرا ... ب البين لما جهلوا
وهل غراب البين إلا ... ناقة أو جمل
وما على ظهر غرا ... ب البين تطوى الرحل !

(٢) الصرد (٣) جمع راتب وهو الثابت

(٤) والقصيدة طويلة يمكن الرجوع اليها فى ديوان بن الرومى « فى ص ٤٤٨ ج٣ »

الدين فى اسبانيا

الاسلام فى الاندلس (١)

لم يكن العرب ليـكونوا الأقلية الصغيرة من مسلمى اسبانيا ، فحسب (٢) ، بل كانوا — إلي ذلك — يظهرون عدم مبالاتهم بالدين ، واحتقارهم لقوانين الاسـلام ، مماهو منتظر من رجال تشبعوا بتقاليدالبدو وكانوا فى كل أيامهم —على اتصال— بأمويى دمشق الدنيويين ، وعلى النقيض من ذلك كانت الحال مع البرابرة ، ومع مؤمنى اسبانيا المسمين بالصابئين ، أو المولدين ، الذين يعيشون كموالى فى كنف أشراف العرب ، فقداستمسكت تلك الطوائف بالدين الذى اتبعته استمساكا يتناسب مـع مزاجها السوداوى الحار ، الذى كانت تتميز به دائما ، وثم ساد بين مسلمى اسبانيا إيمان صارم ، يتمثل فى يحي ابن يحي المتوفى سنة ٨٤٩ م وهو أحد البرابرة ونموذج صادق لهذا الصنف .

﴿ يحي بن يحي ﴾

سافر إلى الشرق وسنه وقتئذ ثمـان وعشرون سنة ، وتلقى العلم على أستاذه مالك ابن أنس الذى أملى عليه كتابه المعروف بالموطأ ، وحدث أن كان يحي ذات يوم فى إحدى دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقائه ، فقال قائل : « حضر الفيل » فأسرعوا جميعاً إلى رؤيته ، ولم يتحرك يحي من مكانه ، فسأله مالك : « لم لم تذهب لتراه وليس فى اسبانيا مثل هذا الحيوان ؟ » فأجابه يحي : « لقد تركت بلادى لأراك وأتلقى عنك الدروس ، ولم آت هنا لرؤية الفيل » فسر مالـكا هذا الجواب وقال عنه انه عاقل إسبانيا ، ولما عاد يحي الى إسبانيا ، بذل كل مافى وسعه لنشر تعاليم مذهب سيده — ولئن كان يحي هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أى منصب من المناصب العامة — فقد عظم تأثيره رغم ذلك وذاع صيته إلى حد أن وصلا — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لايولى قاض فى الاندلس إلا بعد أن يؤخذ رأى يحي فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس (٣)

---

(١) فصل مختار من كتاب « نظرات فى تاريخ الأدب الاندلسى » وهو مجموعة محاضرات القاها المؤلف فى الجامعة المصرية (٢) اخترنا هذه النبذة من كلام الأستاذ « نيكلسون »

(٣) هذا ماأورده ابن خلكان فى الجزء الرابع « ص ٢٩ » واليكم ماقاله المقرى فى ذلك قال :

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة فى اتخاذه شرعا للبلاد - قال عالم من كتاب القرن العاشر : « لقد كان الاسبانيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ ، فكانوا إذا وجدوا تابعا من أتباع مذهب أبى حنيفة أو الشافعى طردوه من إسبانيا - والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من أية طائفة تنتمى إلى مذهب ما، فانهم كثيرا ما كانوا يخمدون أنفاسه (١) وقد كان علماء الدين الاسلامى متغطرسين مفرطين فى التعصب الأعمى والطمع فى إحراز القوة ، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد فى المملكة - فأما فى زمن هشام (٧٨٨ - ٧٩٦) - خلف عبد الرحمن - فقد رأوا أميرا وفق ما يتمنون ، إذ كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالا للكلام ، وكان على شاكلتهم فاهتم بشئونهم

« ومن الراحلين من الاندلس الفقيه المحدث، يحي بن يحي الليثى راوى الموطأ عن مالك رضي الله عنه ، ويقال إن أصله من برابرة مصمودة - وحكي أنه لما ارتحل الى مالك ولازمه، فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل: « حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحي، فقال مالك : « مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك ؟ » فقال « إنما جئت من الاندلس لأنظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لانظر إلى الفيل » فأعجب به مالك وقال :« هذا عاقل الاندلس » ولذلك قيل « إن يحي هذا عاقل الاندلس ، وعيسى بن دينار فقيهها ، وعبد الملك بن حبيب عالمها ، ويقال رواها ومحدثها » وتوفى يحي بن يحي سنة ٢٣٤ هـ فى رجب ، وقبره يستسقى به بقرطبة » وقال المقرى :

« وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم عفيفا عن الولايات متنزها جلت رتبته عن القضاء ،وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الامر بالاندلس ، لزهده فى القضاء وامتناعه . قال الحافظ بن حزم : « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبى حنيفة ، فانه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصي عمل أفريقيا ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالاندلس ، فان يحي بن يحي كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض فى أقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الي الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به - على أن يحي لم يل قضاء قط ،ولا أجاب اليه - وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم » ا . هـ

(١) المقدسى صفحة ١٤٤

وأما الحكم (٨٩٦ - ٨٢٢) فقد كان أقل منه مراعاة لهم - نعم إنه أكرم رجال الدين و بجلهم ولكنه أراهم في الوقت نفسه أنه لن يسمح لهم بالتدخل في الشئون السياسية مطلقا فنقموا عليه - وعلى رأسهم يحي بن يحي الشرس - وأجابوه بالتهديد والاهانات واستثاروا جمهور قرطبة ولاسيما الصابئين - وكانوا في الجزء الجنوبي من المدينة وهو المسمى بالربض - ليقوموا في وجه ذلك الظالم وجنوده السفهاء ، وفي ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨ه) (مايو سنة ٨١٤) وجد الحكم نفسه وقد أقصيت عنه حاشيته وحاصره الغوغاء الصاخبون في قصره ، ولكن شجاعته لم تفارقه ، وقد أنجاه من مأزقه الخطر الذى كان فيه ، برودته و إسراع جيشه المدرب لانقاذه - وكان نصيب تلك الضاحية الثائرة أن دكها دكا ونفى من سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة ، و بلغ عددهم نحو ستين الف نسمة ، والحق أن المجرمين الأصليين لم يقعوا تحت طائلة العقاب .

ثم كف الحكم عن اضطهاد رجال الدين الحانقين الذين شعروا بأنهم يستطيعون أن يصلوا منه باللين إلى ما أخفقوا في الحصول عليه بالقوة - و إذ كان أغلبهم من العرب أو البرابرة ، فقد بثوا الدعوة الشديدة في الناس لاحترام الحكم ، فأعاد اليهم قوتهم في الحال

وفى زمن عبد الرحمن الثانى (٨٢٢-٨٥٢) أدار دفة السياسة الملية ، يحي بن يحي زعيم الثورة بنفسه ، وتولى توزيع مناصب القضاء كما أراد . ا.ه ، ،

***

هـذا هو الجزء الذى تناول فيه الاستاذ نيكلسون ، الكلام على الاسلام فى اسبانيا ، ولما كنا لا نستطيع مناقشته فى كل ما قاله ، لكثرة الأغراض الأخرى التى نريد الكلام عنها ، فانا نكتفي بمناقشة أهم تلك النقط الآن وحسبنا أن نلقى بنظرة سريعة على ما قاله :

فاما أسلوبه فهو دائما لا يتغير - اسلوب موجز حافل بالمعانى كما رأيتم ، وكما ترون في كل ما ننقله لكم عنه - وأما النتائج التى نخرج بها من هذه القطعة فاننا نسوقها ممزوجة بآراء غيره من المؤرخين ، مع إبداء ملاحظاتنا على أهمها بإيجاز الكلام فنقول : يتبين لنا مما مر ما يلى :

أولا : قوة نفوذ الفقهاء وهيمنتهم التامة على عقول العامة ثانيا : رغبتهم الشديدة فى الاستئثار بكل شىء والتداخل في كل أمور المملكة تقريبا ثالثا : شدة تشبع الناس بالعقيدة الدينية وشدة انتصارهم لها ، إلى حد أنهم كانوا يحاربون كل من يغضب رجال الدين أو يعتدى عليهم. رابعا : معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ الديني العظيم ، وكيف ينتهزون فرصة تشبع الجمهور بالعقيدة الدينية وتفانيه فى حمايتها - فى إنفاذ ما تسوله

لهم نفوسهم من الرغبات وفى تحويله إلى حيث شاءت لهم أهواؤهم . وقد شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه. خامسا: أن مسألة الدين فى الاندلس كانت غيرها فى الشرق، بل انهما كانتا على النقيض، فبينما كنت ترى المذاهب العديدة، والنحل المختلفة، سائدة فى المشرق ، إذ تشاهد عكس ذلك تماما فى الاندلس، فلم تكن لترى هنا إلا مذهبا واحدا قد هيمن على كل أهلها تقريبا، ذلك هو المذهب السنى الذى لم يشذ عنه إلا بعض أفراد غاية في الندرة، ممن مالوا إلى مذهبي المعتزلة والظاهرية سادسا : أن تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم في الانتصار له قد وصلا الى حد الجنون ، فقد رأيتم أن افتتانهم بهذا المذهب وتهوسهم فى الولوع بكتاب الموطأ، وصلا بهم كما يقول ذلك العالم الذى استشهد به نيكلسون- إلى حد أنهم كانوا لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، بل لقد بلغ جنونهم بالموطأ أكثر من ذلك، فقد حكى لنا بعض المؤرخين أن تعصبهم للموطأ أنساهم النظر فى القرآن والأحاديث

فأما عن النقط الأربعة الاولى فلا أدل عليها مما سرده نيكلسون عن «الحكم» هذا وعن موقعة أزاء الفقهاء فقد رأيتم من حكايته جرأة الفقهاء فى استعمال نفوذهم على العامة باغرائهم إياهم حتى على مهاجمة قصر الملك ومحاولة قتله وقد كادوا يفعلون لولا حسن حظه ولولا أن أغاثه جنوده الذين داهموهم وشتتوا شملهم . ولعل أول ما يسترعى النظر فى هذه الحكاية - التى سردها عن الحكم - هو قوله عنه : «وقد أنجاه من مأزقه الحرج الذى كان فيه برودته وجيشه المدرب » والحق أن الحكم قد بلغ من رزانته وثبات جأشه في هذا المأزق ، أن داعب خادمه بتلك الجملة التى سقناها لكم في محاضرتنا السابقة — فقد أمره أن يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها - وقت أن كان الجمهور يحاصر قصره ويحاول اغتياله - ولما أبطأ الخادم ، أعاد عليه السؤال ثانية ، فقال له خادمه : « ياسيدي أهذا وقت الغالية ؟ » فأجابه : « ويلك يا ابن الفاعلة بم يعرف رأسي من رءوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ » ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزانة بعض الناس وعن ثبات جأشهم وبرودتهم فى ساعة الخطر المميت ، فلم نر - فيما رأيناه - مداعبة أغرب من هذه المداعبة ، ولا رباطة جاش وصلت إلى أكثر من هذا الحد. شاهدتم شدة ازدياد نفوذ الفقهاء في ذلك العصر. ولكن لا يفوتنا أن نقول إن هذا النفوذ العظيم الذى شاهدتموه لم يكن ليقاس بما وصل اليه نفوذهم وسلطانهم في الاندلس - وقت انحطاط الدوله وتقهقرها - فلقد كان نفوذهم يتعاظم كلما ازدادت الدولة في الانحطاط ، وقد كان ذلك أكبر مساعد على توالى انحطاط الدولة وتقهقرها، ولقد كانت وطأة التعصب للدين والانتصار للعقيدة تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوى كالحكم الثانى مثلا الذى استطاع حماية

الفلاسفة و رجال العلم وأحرار المفكرين من عنت العامة والمتنطعين فى الدين ـ كما سترون ذلك فى حينه ـ فسترون أنه أطلق حرية التفكير للناس وأن العلوم قد وصلت فى عصره إلى أقصى مدى وأن الآداب أزهرت وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم جداً، وأنه أخذ بناصر المفكرين، وأن الحرية الدينية لم تصل فى عصرها إلى ماماثل وصلت إليه فى زمنه. سترون كل ذلك فى حينه ، ولكنكم سترون أيضا أن الحرية الدينية ـ رغم ماوصلت اليه فى ذلك الزمن ـ لم تصل حتى فى عهد هذا الملك العظيم إلى ماوصلت اليه فى عهد المأمون ـ الخليفة العباسى ـ بقى علينا أن نتكلم عن النقطتين الخامسة والسادسة فنقول :

« إن وصول المذهب المالكي الى حد أن أنساهم القرآن نفسه ، و إلى حد أنهم كانوا لا يطيقون رؤية أى مذهب آخر، و إلى حد أنهم كانوا يطردون أى متمذهب بسواه ، والى حد أنهم أحرقوا كتب الغزالى حين وصلت الاندلس – كما سترون فيما بعد ـ و إلى حد أنهم كانوا لا يطيقون النظر في كتاب فلسفة » نقول : « إن وصول المذهب المالكي إلى هذا الحد ، كان بلا شك نذير سوء بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التى حصلت وقت انحطاط الدولة ، وسنورد أهمها فى حينه »

قلنا إن العقيدة الدينية تمكنت من نفوس المسلمين فى اسبانيا ، و إن الفقهاء تعهد واغرسها وانماءها وفق مايشتهون و إنهم أولوا النصوص الدينية والآي القرآنية على حسب رغباتهم فماذا نشأ عن ذلك؟؟ نشأ عن ذلك أن الجمهور ـ فيما بعد ـ وقف عقبة كأداء فى سبيل كل من حاول البحث بحرية فكر، فكان لا يتردد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة ، متى رأى ما ينكره عليه ـ بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة العامة إلى حد أن كان الملك إذا حاول استرضاء الرعية تقدم الى واحد من مشهورى الفقهاء وفوض اليه الامر فى حرق كل ما راه فى مكتبته منها ـ يفعل ذلك بعد أن يكون قد احتاط ووضع أهمها فى مكان لا يهتدى اليه الفقيه. وكان الجمهور يحارب الآراء الحرة من غير أن يفهم شيئا عن حقيقتها ،وآية ذلك أنه كان يخلط الفلسفة بالتنجيم ، فكان يطلق على كل من حاول البحث بحرية فكر، اسم المشتغل بالفلسفة والتنجيم ، وكان الفقهاء يحاربون الآراء الحرة والمذاهب الفلسفية لأسباب عديدة، قد يكون أهمها أن أغلبهم كان يخشى على نفوذه إذا انطلقت الافكار من عقالها وتحررت العقول من ربقة التقليد ، و إذ كانوا قد استمدوا ذلك النفوذ العظيم من سيطرتهم الدينية ، فقد أيقنوا أن سلطانهم الدينى باق على الجمهور مادام جاهلا ، وعرفوا أنه اذا استنار أدرك مافى أقوالهم من التناقض والاغراق وفى ذلك القضاء على نفوذهم ، وكأنهم كانوا يرون رأى أبي العلاء فى قوله:

الدين متجرميت ، فلذلك لا   تلقاه فى الأحياء إلا كاسدا

وقد يكون الدافع شيئاً آخر ، هو جمود بعضهم على فكرة واحدة ، وعدم قدرته على التمشى مع الآراء الحرة لقصر مداركه — كما أنه قد يكون ناشئا عن سوء نية الكثيرين منهم وأنانيتهم وجنونهم بالسيطرة ، لكننا مع ذلك جدير ون أن لا ننسى أن بعضهم كان يفعل ذلك عن محض اخلاص ، لاعتقاده أن انتشار الفلسفة وحرية الفكر بين الجماهير أكبر باعث على السير بهم فى طريق الالحاد والزندقة وزلزلة العقيدة — فكان لذلك يعتقد أن التضييق على الآراء الحرة خير معوان على بقاء الدين ثابت الدعائم ، آمنا من تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس — ومهما يكن من أمر فقد أدى ذلك التضييق الى عكس الغرض الاساسى منه. فقد حبب الفلسفة إلى نفوس الكثيرين وزادهم هياما بها، كما كانت الحال فى البلاد الشرقية — واذا رأينا أكثر ملوك الاندلس يخشون نفوذ الفقهاء ، ويتهيبون سطوتهم ويبذلون جهدهم في نشر العلم، ويشجعون حرية الفكر سرا، لأنهم لم يجرؤوا على مخالفة إرادة الفقهاء ، وإذا شكا العلماء والفلاسفة والملوك شدة بأس الفقهاء فى اوائل الدولة ، فقد انقلبت الحال فى أواخرها تقريبا ، وأصبحنا نرى فى الملوك أنفسهم من هو على رأى الفقهاء المتنطعين، في التضييق على الفلاسفة ، وستتبينون ذلك من القطعة التالية (١) وهى: «وقام بأمره (بأمر الملك) من بعده ، ابنه على بن يوسف ابن تاشفين، وتلقب بلقب أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين ، وجرى على سنن أبيه فى الجهاد ، وكان — إلى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين — أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين. واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين . وكان لا يقطع أمرا في مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء . فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الاندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم — صغيرها وكبيرها — موقوفة عليهم طول مدته فعظم أمر الفقهاء — كما ذكرنا — وانصرفت وجوه الناس اليهم . فكثرت لذلك أموالهم . واتسعت مكاسبهم وفى ذلك يقول أبو جعفر المعروف بالبنى الاندلسى :

أهل الرياء لبستم ناموسكم   كالذئب أدلج فى الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك   وقسمتمو الأموال بابن القاسم

---

(١) منقولة عن كتاب المعجب فى أخبار المغرب تاليف محي الدين المراكشى «صفحة ٩٥ .»

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده إلا من علم الفروع - أعنى فروع مذهب مالك - فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسوله (ص) فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يعتني بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة فى الدين وربما أدى اكثره الى اختلال فى العقيدة ، وأشباه لهذه الاقوال ، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله - فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض فى شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه - ولما دخلت كتب ابى حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتقدم بالوعيد - من سفك الدم واستئصال المال - إلى من وجد عنده شيء منها (١) »» ا . هـ

---

(١) ومما قاله ابن سعيد فى ذلك ، في كتابه المسمى بالشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة ، ونقله عنه المقرى ، قوله :

« وأما قواعد أهل الاندلس فى دياناتهم فانها تختلف بحسب الأوقات ، والنظر إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة فى ذلك وانكاره إن تهاون فيه اصحاب السلطان ، وقد يلج السلطان فى شيء من ذلك ولا ينكرد ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبئون بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير فى اخبارهم . وأما الرجم بالحجارة للقضاة والولاة للأعمال - إذا لم يعدلوا - فكل يوم » الى أن قال : « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم ، فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ؟ ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » اطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيد عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة ؟ رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيراً مايأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن - إذا وجدت - وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

وقال

« وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث لها عندهم منزلة رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المباحث مايباحثون

* * *

نكتفي الآن بسرد تلك القطعة في هـذه الالمامة الموجزة ، من غير أن نعلق عليها بشيء من عندنا ، ففيها وحدها تتبينون صورة واضحة للحال الدينية في عصر من عصور الدولة

شيء من الآثار الفعلية للعقيدة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ماذكرناه أن نبين لحضراتكم أثرا فعليا واضحا من آثار تمكن العقيدة في نفوس أصحابها ، متى وجدت محركا قادرا على تصريفها ، واستفزاز العاطفة الدينية فيهـا فان القاء نظرة سريعة على قصيدة أبي اسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمهور ، ليكفي وحده في اثبات ذلك ، وانكم لترون فيها مبلغ التحمس الديني العظـيم ، وكيف أنها كانت السبب في القضـاء على ما يربو على اربعة آلاف يهودي ، ونهب أموالهم ، وتدمير منازلهم وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الخامس الهجرى سنة ٤٥٩ م

وقـد دعا صاحبها الي قولها أن يوسف ابن نغزلة اليهودى الوزير (١) وشى بأبي اسحق قائل هـذه القصيدة فاقصاه السلطان عن بلاده ـ قالوا ـ وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ ـ فوجـد أبو اسحق من ذلك حافزا الى انشاء تلك القصيـدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم أحسن مافيها والتي دفعه الى قولها غيظه من عدوه ـ ذلك الوزير الخطير ـ فمـلأها تحريضا وأفعمها حججا وبراهين ، أفلح في التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته ـ ومازال يتفنن في ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور الساذج

به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم في العـلوم »

(١) قال صـاحب نفح الطيب : « ولما استـوزر «باديس» صاحب غرناطة ، اليهودى الشهير بابن نغزلة ، وأعضل داءه المسلمين ، قال زاهـد ألبيرة وغرناطة «أبو اسحق الألبيرى» قصيدة النونية المشهورة التي منها في اغرائه «صنهاجة» باليهود ....الخ.»

« وهي قصيدة طويلة فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة ، عظيمة وفيهم الوزير ، المذكور ، تأراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيـخ ، الذي نور الحق على كلامه باد »

حماسة وهجم على ذلك الوزير فقتله ـ فى قصر السلطان نفسه ـ وليس من شك فى أن أبا اسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية واظهار التفجع الشديد على ماانتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الادلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة فى التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام فخم، يتطاير حماسة ويتأجج نارا، وشعر صارخ

خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل اولئك اليهود ـ أخصامه ـ فرض لامناص من ادائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم ـ إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى ـ فهم خليقون أن يتداركوه فى الحال، حتي لا تصب عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه. فيخسف بهم الارض، أو ينزل عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التى تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة الا استخدمها، ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة الدينية، إلا ضرب على وترها. كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل ـ لسهولته ـ إلى حد الركاكة فى بعض الابيات مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه، وإن شئت فقل، وأروعه. واليكم هذه القصيدة الفريدة فى بابها :

«ألا قل لصنهاجة اجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مقة مشفق ... يعد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا، وكانوا من الأرذلين».

ومنها : «فكم مسلم راغب راهب ... لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ... ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالالى ... من القادة الخيرة المتقين (١)
وأنزلهم حيث يستأهلون ... وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ... ولم يستطيلوا على الصالحين»

ومنها يخاطب السلطان :

---

(١) فى هذا البيت شيء كثير من الركاكة فى قوله « بالألى من القادة الخيرة المتقين » ولكنا نغتفرها لما فى تاليبه من تتمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة

«أباديس(١)! أنت امرؤ حاذق ... تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفى عنك ما يعبثون ... وفى الارض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى ... إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين ؟ »

ومنها: «وإني حللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين»

ومنها: «وهم امناكم على سركم ... وكيف يكون امينا خؤون ؟
ويأكل غيرهم درهما ... فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهضوكم إلى ربكم ... فما يمنعون وما ينكرون »

ومنها: «ورخم قردهم داره ... وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ... ونحن — على بابه — قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فانا الى ربنا راجعون » (٢)

---

(١) الهمزة للاستفهام ، و «باديس» هو «باديس بن حبوس» صاحب غرناطة ، وكانت بينه و بين المعتضد حروب شديدة ، قال ابن خلدون : « ولى (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه ، واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغزلة الذمى ، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين وار بعمائة ، وقتل معه خلقاً من اليهود ، وتوفي باديس سنة سبع وستين وار بعمائة

(٢) يرى القارىء فى هذا البيت أسلوبه الشيطانى فى استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف أدى بذلك اليهودى الى السخرية منه .

المسيحية في الاندلس (١)

« بعد الفتح الاسلامى دان كثير من المسيحيين بدين الفاتحين ، حفزتهم الى هذا المنافع من جهة واقتناعهم بأن الدين الاسلامى هو الدين الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم فى نظرية الصراع : يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، و يقولون للكهنة : «لوكانت المسيحة حقا فلماذا أسلم الله بلادنا — وهى مسيحية — لشيعة نبي كاذب — وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته، وقصصتم علينا مجموعة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا الدين أيام المظالم الآرية ؟ لم لا تبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟ » وقد كانت هذه الاعتراضات فى العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين ! ! — فلما تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط وكهنتهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التى قرعتهم لم تكن إلا عقابا عادلا من الله . وقد كان اعتبار النكبات قصاصا عادلا ، من فلسفة الاقدمين — على العموم واليهودية على الخصوص — ولقد تتجلى فى أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار — فى صورة مختلفة — ولما توالت النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه ليقلعوا عن اعتباره مجرما — لولا أن برهن على طهارته وفضيلته — وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية فكان انتصار المسلمين — على الخصوص — آية الغضب الالهى كما كانت انتصارات المسيحيين في رأي المسلمين . وكانت تردد هذه الجملة فى ايطاليا كذلك وهى: « إذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله يريد عقابنا على خطايانا » وكذلك كان يقال فى اسبانيا — وفى سنة ٨١٢ أذاع الفونس الثانى منشوراً باملاء الكهنة قال فيه « أيها الاله ! إن القوط قد أهانوك بكبريائهم فكانوا أهلا لأن تمزقهم السيوف العربية » وفى سنة ٩٢٤

---

(١) فصل آخر من كتاب نظرات في تاريخ الادب الاندلسى للمؤلف وهذا الفصل مترجم عن كتاب دوزى. *Recherches sur les Musulmans & Litt, d,Espagne.*

ومن هذا الفصل يتبين القارئ حال المسيحيين فى اسبانيا — بعد الفتح الاسلامى — وكيف تسرب الايمان الى الكثيرين ومنهم الذين أسماهم نيكلسون بالصابئة أو المولدين وكان لهم اكبر أثر في الدين الاسلامى وعاشوا كموال فى كنف أشراف العرب و وصل تمسكهم بالاسلام إلى حد عظيم جدا — ولقد يضطرنا الى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تعليق على بعض ماجاء فيها من النقط الهامة — رغبتنا فى الايجاز الشديد .

قال سنكو دى نفار فى منشوره بمناسبة انشاء معبد البلد :

« لقد كانت اسبانيا تحت سلطان المسيحيين فكانت حصونها وقراها مكتظة بالكنائس . وبذلك كان الدين المسيحى سائدا فى كل مكان ، ولكن أسلافنا تتابعت خطاياهم وخرجوا على وصايا الاله . فلاجل أن يعاقبهم — على ماقدمت أيديهم — ويرجعهم إلى الصراط السوى رماهم بهذا الشعب البربري »

وقال «سبستيان» بدوره :« وانما هلك الجيش القوطى لان الملوك والكهنة تركوا شريعة الله » وقال كاهن باشيلوس « عاقب الله أسلافنا فى هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة إلى عقابهم فى الحياة الاخرى » كذلك نرى المؤرخين المتحضرين من أهل الشمال قد اتهموا «وزيتا» ومعاصريه بانهم كانوا غلاظا ملحدين فاهان الكهنوت برمود الثانى ومعاصريه — بسبب ذلك — وفى رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه، أن «برمود» كان عاقلا رحيما عادلا وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ، ولكنه كان سيء الحظ فقد حدث فى عهده — وقت ان كان على عرش ليون — أن وجه المنصور إلى المسيحية أشد الضربات التى أصابتها منذ الهجوم العربى فلم ينج شيء من سيوف المسلمين ولم تكن لترى حينذاك الا مدائن مخربة وأديرة خاوية وكنائس مهدمة ، بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان — رأساً على عقب — وهنا رجع السؤال «لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عادتهم :« ذاك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الالهى(١) »

---

(١) *Aunozral n élè le fleau de la colère celeste* « المنصور مطرقة الغضب الالهي » هكذا كانوا يسمونه ، ولهم الحق فى ذلك ، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو ، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد ، فحدثت له نية في ذلك ، فلا يرجع إلى قصره بل يخرج — بعد انصرافه من المصلى — كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولا فأولا ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم ، إلا وقد لحقه من أراده . من العساكر ، وقد غزا فى أيام مملكته نيفا وخمسين غزوة ، وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل إلى معاقل امتنعت على من كان قبله ، وملأ الاندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس فى الأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، حتي نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة — وكانت ذات جمال رائع — فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً

وكان فى أكثر زمانه لايخل بأن يغزو غزوتين فى السنة » اه مخلصا عن كتاب المعجب .

على أنهم كانوا جديرين أن يبينوا لنا: أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟؟ وكيف تم ذلك رغم أن الايمان بالخلود كان ـ فى ذلك الزمن ـ أكثر منه فى أى زمن آخر ؟؟ ولكن لا غرابة فى ذلك فقد آلى كتاب القرن الثانى عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب (١) فمؤلف التاريخ القشتالى على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى ـ بلاروية ـ بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة رمبو ستيل فى القرن العاشر وأظهرهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب (٢) وعنى فيلاخ أفيدبو بشخص « برمود » ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ومخازيه فاذا انتهى منها وصل الى هذه النتيجة فقال : « وإنما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه أن المنصور الخ ،، وهكذا برروا عمل الألوهية التى سمحت للاسلام أن يكتسح المسيحية .

ولما كانت الأقاصيص الشفوية قد لحقها كثير من التحريف فى زمن سبستيان ولم يكن قد اعترف إلا من ذلك المعين فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالحذر المشروع » اه

---

(١) وهو اتهام كل من أصابته نكبة بالعصيان ليسهل عليهم تعليل ذلك

(١) فعل هذا ليتوصل به إلي إثبات أن سقوطهم كان عقابا عادلا من الله .

قَصَصٌ لِلأَطْفَالْ

بقلم

كامل كيلانى

فى البلاد الغربية يعنى كبار المفكرين وأساطين الكتاب بالأطفال عنايتهم بكبار المتعلمين ، أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، إهمال للطفل وإهمال فى تغذيته بالمعلومات النافعة والقصص المختار ، بل إهمال فى كل شىء يدفع الطفل الى القراءة ويحبب إليه الكتاب ، ولكن طفل اليوم هو رجل الغد ، وخير هدية نقدمها اليه هى أن نترك فى ذهنه ـ بعد قراءة الكتاب ـ صورة بهيجة تهش اليها نفسه وتجعله يرى فى الكتاب سميرا له وصاحبا ومعلما ، فيقبل على قراءته بدافع الشوق من نفسه من غير أن يدفعه أحد إلى ذلك ، وفرق

عظيم بين كتاب لا يبدأ الطفل فى قراءة الصفحة الأولى منه حتى يندفع إلى إتمامه فرحا مبتهجا وبين كتاب لا يقرأه الطفل إلا مرغما مكرها خوفا من عقاب المعلم أو غضب أبيه . تحبيبُ القراءة الى الطفل وترغيبه فى المطالعة وسَوْق الامثال الحكيمة اليه فى أسلوب قصصى ممتع جذاب ، هذه هى أهم الأغراض التى دفعت المؤلف إلى اظهار هذه الحلقة القصصية بأسلوب عربى يتناسب مع مدارك الطفل ، وبه كثير من الصور المشوقة التى توضح اغراضه ومعانيه . وقد ظهر الجزء الاول وسيظهر قريبا الجزءان الثانى والثالث . ويطلبان من مكتبة الفجالة المصرية لصاحبها عبد الحميد افندى محمود .

المجلات الشهرية

نذكر فى هذه الصحفة أهم المجلات العربية الشهرية التى أشار اليها المؤلف اليها فى هذا الكتاب أو ترتبط موضوعاته بها وجميعها تطلب من المكتبة التجارية الكبرى ومن مكتبةالفجالة المصرية ومن مكتبة الوفد بالقاهرة

مجلة المقتطف

شيخة المجلات العربية وقد أتمت بختام سنة ١٩٢٩ مجلدها الخامس والسبعين . ويتولى رئاسة تحريرها الأستاذ الكبير فؤاد صروف ويعاونه طائفة من كبار الكتاب والعلماء والشعراء ، وبينهم نخبة من أعلام رجال الغرب مثل الفيلسوف برتراندرسل والسير أرثركيت وغيرهما . وللمقتطف هدية سنوية لقرائه من أنفس الهدايا المكتبية . وكانت آخر هداياه « جمهورية أفلاطون » والمجلة بالاختصار مدرسة جامعة للفلسفة والعلم والأدب . وقد تولت أخيراً إذاعة ترجمة (العاصفة) للدكتور أبي شادى .

مجلة الاخاء

يصدرها عن القاهرة الاستاذ الصحفي القدير سليم قبعين متوخياً دائماً أن يجعلها فى طليعة المجلات العربية الراقية مع اهداء تأليف قيم فى كل عام إلى قرائه. وقد اشتهر الاستاذ قبعين بتضلعه فى اللغة الروسية وعنها ينقل طرفاً كثيرة في مجلته المتعددة الأبواب . وله علينا فضل التعريف بالمستشرقين الروسيين . ومجلة الاخاء خفيفة الظل غزيرة الفوائد تنم عن شغف صاحبها الفاضل برقيها المتواصل . وقد بلغت الآن سنتها السادسة وشهد كل من قرأها بسلامة ذوق القائمين بتحريرها كما شهدوا بأنها المجلة التي تقرأ من الغلاف إلى الغلاف .

مجلة العصور

تظهر شهرياً بمدينة القاهرة لصاحبها ورئيس تحريرها الكاتب المفكر الكبير الاستاذ اسماعيل بك مظهر ، وتمتاز بمباحثها الفلسفية الجليلة ونقدها الجرئ ، وشعارها حرية التفكير والبحث . وقد صدر منها حتى الآن خمسه مجلدات كلها مباحث شائقة متنوعة

مجلة الحديث

تصدر عن مدينة حلب بسورية، لصاحبها ورئيس تحريرها الأديب القدير الاستاذ سامى الكيالى . وهو يبذل فيها مجهوداً عظيما لجعلها نظيرة للمجلات المصرية الشهيرة مجتمعة . والواقع أن من يطالع «الحديث» مرة يتطلع الى قراءتها دائماً . وقد أتمت الآن ثلاث سنوات من حياتها الجيدة .

المجلة الجديدة

تصدر عن مدينة القاهرة شهرياً لصاحبها

﴿ الجمعية العلمية بالأزهر ﴾

أطلبوا من إدارة « الجمعية العلمية » المطبوعات التى تمت بمعرفتها :

	عدد الأجزاء	الثمن (ص)
(١) كتاب تفسير العلامة أبى السعود بوضع أنيق لم يسبق على ورق أجود وجيد مذيلا فى كل جزء بفهارس لكل الآيات والمباحث	٥	٤٠ - ٣٢
(٢) رسالة السنيين فى الرد على الوهابيين لخمسة وثلاثين عالما	١	٢
(٣) كتاب علم المنطق الحديث والقديم على النظام الصحيح والنظم القويم وهو أبدع كتاب ألف فى هذا الفن : أدبى ـ اجتماعى ـ تطبيقى	١	٥ ـ ٣
(٤) خزانة الأدب الكبرى للبغدادى فى الأدب والصرف والنحو	٨	٥٦
(٥) خلاصة جمع الجوامع المعروفة بايضاح سلم الوصول الى علم الأصول لمدير الجمعية والعلامة ابن حجاب	١	٢
(٦) آداب البحث والمناظرة لفضيلتى الشيخين جاد ابراهيم صالح ومحيى الدين عبد الحميد المدرسين بالأزهر	١	½ ـ ١
(٧) ملخص قواعد الاملاء حسب مقرر المعاهد للشيخ ابراهيم بن سليم المدرس بالأزهر	١	١
(٨) كتاب مختارات كامل كيلاني لخيرة الأدباء الأستاذ كامل افندى كيلانى أديب مصر ونابغتها	١	٥ ـ ٤
(٩) نسبة المحدثين الى مواطنهم لفضيلة عباس رضوان المدنى	١	١
(١٠) محمد أبوشادي — دراسة أدبية تاريخية (بالصور)	١	٥

واطلبوا بالاشتراك كتاب جامع الأصول الستة لابن الأثير الجزرى واقعا فى ٦ أجزاء بسعر ١٠ قروش الجزء . وكتاب شرح العلامة ابن أبى جمرة على مختصر الامام البخارى بسعر ١٠ قروش الجزأين وكل مطلوب لكم من غيرها، تجدوا اعتدالا فى الثمن لا يقبل المزاحمة ـ محل إدارة الجمعية ومكتبها بمصر بشارع رقعة القمح بجوار الأزهر الشريف مدير الجمعية: عبد الوصيف محمد